مُـــحَـــمَّـدُ
قُـدوَةُ الـعـالَـمـيـــنَ

صلّـى اللّـهُ عليـهِ وسـلّـم

الـجــزء الرابع

إكمال الدين

(من عالمية الدعوة إلى وفاة قدوة العالمين)

مدحت رضا ماهر

* الكتاب: قدوة العالمين. الجزء الرابع
* الكاتب: م. مدحت رضا ماهر
* مراجعة لغوية: قسم التحرير والمراجعة بدار المنتدى
* تصميم الغلاف: قسم الجرافيك بدار المنتدى
* إخراج داخلي: القسم الفني بدار المنتدى
* رقم الإيداع: 14437/ 2023
* الترقيم الدولي: 1-97-6914-977-978

المدير العام: عزيز عثمان

لمراسلة الدار: **daralmuntadaa@gmail.com**

واتس آب: ٠١٠٠٥١٨٦٤٧٦

صفحة الدار على موقع فيسبوك: دار المنتدى للنشر والتوزيع











قدوة العالمين

مقدمة الجزء الرابع

لم أكن واثقا من أن يمتد بي العمر للبدء في الجزء الرابع من هذا الكتاب الذي بدأته منذ خمس سنوات، كان الجزء الثالث قد اكتمل بعد ثلاث وثلاثون شهرا لما شهد معي من أحداثِ جسام طالما أبعدتني عن الكتابة فيه، كنت قد بدأت الكتابة في هذا الجزء عام ٢٠٠٩ م في المملكة العربية السعودية، وعدت دون تخطيط لظروف شخصية، واستدعت هذه الظروف التوقف عن الكتابة ثم شغلني البحث عن عمل الوقت الكثير، ولما قامت الثورة في مصر فقدت عملي الذي كنت قد حصلت عليه بأعجوبة وانغمست مرة أخرى في رحلة البحث عن العمل، ولما وفقني الله فيه تعرضت أمي لأزمة صحية حادة وماتت أختي على إثر حادث مروري أثناء عودتها بعد رعايتها لأمي بالمستشفى وماتت أمي بعد شهور من ذلك الحادث، وكانت تلك الفترة شديدة القسوة علي، أبعدتني عن الكتابة شهورا عدة،

أكملت الجزء الثالث وسط عزوف الجميع عن الاطلاع عليه، تمنيت أن تقرأه أختي الفقيدة التي كانت تتشكك في أهليتي للكتابة عن رسول الله، أو أن تعلم أمي أنني قد أنجزت الكتاب برمته، وهكذا حرمت من الإطراء من الأحبة الذي كان يدفعني منذ طفولتي منهما - الذي كنت ولا أزال في حاجة إليه – بغية تشجيعي على الاستمرار فيما حسبته ولا زلت، هدفا أردت به الله.

تزامن كتابة هذا الجزء مع ما عاشته مصر من حكم الجماعات المتأسلمة، وكان ما قد سبق أن كتبته بالفعل في هذا الشأن يرفض هذا الزج الممقوت بالدين في التجارة والسياسة والتشدق بادعاءات الإيمان والاتجار بالدين، وفي هذا الجزء من الكتاب الرد الحاسم فيما إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بفتحه مكة قد قام بإجبار الناس على الإسلام، فهل سعى قدوة العالمين للتمكين بعد النصر أم كانت الموادعة وكسب القلوب شغله الشاغل؟ وهل تحول رسول الله من الدعوة إلى الدولة؟ وهل لانزال خير أمة أخرجت للناس أم كنا كذلك؟ وهل حرصنا على ما أفاء الله علينا من نعمة أم أهدرناها ولا نزال نهدرها؟ فهل من مخرج لنا وعودة إلى ما هو مطلوب منا، فقد كنا في نعمة من الإيمان لو عرفها ملوك الأرض لقاتلونا عليها

كان الغرض في الأساس من هذا الكتاب هو الرد على هذه التساؤلات ولهذا آثرت أن يكون الرد موضوع خاتمة الكتاب

في الجزء الثالث من هذا الكتاب تم استعراض الأحداث التاريخية بما تم فيها من معارك وفي هذا الجزء أيضا سنجد سيلا من المعارك الحربية والغزوات بما يحتم علينا طرق أبواب البحث عما إن كانت تلك الغزوات والمعارك قد فرضت فرضا على الدعوة أم دفعت إليها دفعا.

الإسلام والقتال دفاعا عن النفس وعن الدين

ما كان المسلمون يقدرون في مطلع الرسالة على حماية أنفسهم من الاضطهاد والتنكيل، كل ما كان يقدرون عليه هو الانفعال برد ضربة مثلما فعل سعد بن أبي وقاس كدفاع تلقائي عن النفس في مكة، كان شراء العبيد لحمايتهم من القتل والتعذيب هو رد الفعل الوحيد الذي أمر به رسول الله في مكة ؛ ثم جاءت فكرة الفرار للحبشة بعد نزول سورة الكهف تيمنا بأهل الكهف، فاجتمعت قريش ليردوهم من المهجر واضطهادهم من جديد، والذين يفرون لا يقدرون على الدفاع عن أنفسهم ولا يخططون لهذا، ولا يفكرون في شن حرب على غيرهم سواء للدفاع فما بالنا بالعدوان، ثم كانت الهجرة الثانية للحبشة فرارا جديدا بدينهم كدليل دامغ على نبذ العنف وسلمية الدعوة، ثم كانت الهجرة الثالثة ليثرب هذه المرة فما كان من قريش إلا أن عاودت التحرش بالمسلمين في مهجرهم الجديد بيثرب، واستمرت التحرش بالمسلمين، وكانت العلامات الدالة على الغدر عديدة فقد كتب المشركون إلى عبد الله بن أبي بن سلول

رئيس الأنصار قبل أن ينافق بإسلامه يحثونه على التآمر معهم فاجتمع أنصاره من المنافقين لبحث طرد رسول الله من يثرب، ولما بلغ ذلك رسول الله لقيهم وقال لهم (لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم)

فتفرقوا بعد مقولة رسول الله وفي يوم أرسلت قريش إلى المسلمين تقول لهم: لا يغرنكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب، سنأتيكم فنستأصلكم ونبيد خضراءكم في عقر داركم، وكتب أبو سفيان بن حرب إلى رسول الله رسالة جاء في آخرها: نريد منك نصف نخل المدينة، فإن أجبتنا إلى ذلك وإلا فأبشر بخراب الديار وقلع الآثار.! من هنا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكمل ما بدأه بعد معاهدة اليهود لتأمين المدينة المنورة حرصا على حقوق المعاهدين، خاصة وأن الأنصار مهدده ديارهم ففكر في الاجراءات الوقائية وعمل على تأمين المدينة بعقد المعاهدات مع القبائل المحيطة بالمدينة المنورة والمجاورة للطريق ما بين مكة والمدينة وأرسل دوريات استكشافية للتعرف على الطرق المحيطة بالمدينة والمسالك المؤدية لمكة، وعقد المعاهدات مع تلك القبائل في هذه النواحي وأنزل الله الآيتين ٩٠&٩١من سورة النساء

(إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا * سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾

وكل تلك الإجراءات كانت دفاعية محضة إلى أن زادت تحرشات قريش لجرهم للقتال إذ تعمدت أن يصل إلى مسامع المسلمين أنهم سيقومون ببيع ما تبقى لهم من ممتلكاتهم في مكة مما تركوه من متاع وراءهم، وقد كان ذلك ما قصم ظهر بعير الصبر، فكانت أولى معارك المسلمين لاستئصال الحق المسلوب ويقول الله تعالى مؤذنا في القتال بعد نفاذ كل الحلول والحيل السلمية

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ، وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ *ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ، وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)

كانت المبادئ الاستراتيجية لتي انتهجها رسول الله لا تخرج عن:

- الاستكشاف
- الحشد
- المفاجأة
- التعرض
- التطويق
- المطاردة
- المحافظة على الغرض
- السرية وسلامة القوات
- الضبط والربط
- الشورى
- السماحة بعد النصر

يجيز الله لهم الدفاع عن النفس وينهى الله تعالى عن الاعتداء (وَقَاتِلُواْ في سَبِيلِ ٱللَّهِ الذين يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوَاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ)

و الله تعالى يقول في دفع العدوان (فمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوَاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ)

ويقول الله تعالى آمرا بالسلم (وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ)

يقول الله تعالى مانعا الإكراه في الدين (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)

فحينما توافرت لهم القوة في المدينة المنورة لم يستخدموها في إجبار أحد على الدخول في الإسلام ولكنهم استخدموها في الدفاع الشرعي عن النفس ورد عدوان القوى الباغية عليهم التي تستبيح حرماتهم، وتنتهب أموالهم وتسعى إلى استئصال شأفتهم، واستعملوها في القضاء على مغامرات المغرورين ومؤامرات اليهود والعربان وهذا هو مفهوم قول الله تعالى (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ، ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ)

فكان المطلوب من الإعداد، مجرد دفع الخطر بإرهاب العدو وليس بممارسة العدوان، والدليل على ذلك أن لم يحارب المسلمين أهل الحبشة لمحاوله إيصال الدعوة بالقوة لتلك البلاد، فمقاليد الحبشة كانت بيد حاكم صالح وإن لم يؤمن في أول الأمر ولكنه لم يمنع أحدا من الدعوة للدين الجديد، وما كان يظلم عنده أحد ولم يبدأ بعدوان. أما فارس فقد أرسل كسرى بعد دعوته سلميا للإسلام إلى عامله باليمن يأمره بتأديب النبي أو ضرب عنقه أو جلبه لبلاط جلالته بفارس أسيرا! فصار إجباره على السماح بإيصال كلام الله لرعيته أمرا واجبا. وقيصر الروم قد أعد جيشا وأرسل طلائع هذا الجيش لتبوك تمهيدا لغزو المدينة وكان عامله قد قتل وفد الرسول إلى ذات الطلح، بل وقتل عامله الآخر خمسة عشر من وفد آخر ذهب إليهم يدعون إلى الدين الجديد سلميا! فصار إجباره على السماح بإيصال كلام الله لرعيته أمرا واجبا

فيحرضهم الله على الصبر في الدفاع وتحمل البلاء فيقول (وَلَا تَهِنُواْ في ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾

ويعد الله المقاتلين فيقول (فَلْيُقَٰتِلْ في سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْآخِرَةِ وَمَن يُقَٰتِلْ في سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)

وبهذا فقد حارب الإسلام لرد العدوان، ثم لإفساح الطريق لدعوة الهدى دون إكراه فقد آن الأوان لعالمية الدعوة، ولم يبق إلا أن يتم الله نعمته على العالمين

مدحت رضا ماهر

الفصل الأول

عالمية الدعوة

عالمية الدعوة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا * هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا * وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا * وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا *

خفي على المسلمين وعلى الكفار - سواء بسواء - أن هدنة الحديبية كانت فتحا مبينا، وقد أثبتت الأحداث أن نعمة الله على رسوله في أمر التبليغ أوشكت أن تتم، ففي تلك الآيات وعد إلهي بما سيحدث بالضرورة، فمنذ أن أنزل الله سكينته في قلوب المؤمنين زاد إيمانهم وتوالى نصر الله لهم، ليس على كفار مكة ويهود خيبر فحسب، بل توالى تأثير ذلك الفتح المبين في قلوب المكيين وهم يرون المسلمين يخرجون من نصر إلى نصر، وكذلك على أهل اليمن وشبه الجزيرة العربية كلها فلم يبق إلا أن يتم الله نعمته على رسول الله للعالمين فيدعوهم للإسلام ويبشرهم بالدين الجديد وينذرهم ليؤمنوا بالله الواحد القهار، فأهداه الله صراطا مستقيما إذ لم تكن الجزيرة العربية وحدها هي الهدف من رسالة الإسلام، بل كانت للعالمين، ويحصر الله دور رسوله في الشهادة والتبشير والإنذار فحسب، فما لأحد من العالمين أن يدعي أكثر من هذا الدور، فلا إكراه في الدين وقد تبين الرشد من الغي.

(وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ((١) [1]

كان هذا البحث الدائب يشغل عقول المجتمع الإنساني كله، كان صراع دولة الفرس المجوسية ودوله الرومان المسيحية ضاريا بما قد شغل العالم في ذلك الزمان من صراعات الأمم كعالمنا المعاصر فقد كان ذلك الزمان الذي طغى وطغت فيه المادة على الروح، وأصبحت الأمم تقاتل

وتجاهد في أمر تلك الصراعات حتى تظفر بما في أيدي الآخرين من سلطان وصولجان أو ترف ومال باسم الدين - في الظاهر- أما حقائقه فقد كان صراعا على النفوذ وثارات بين الأمم أو إرضاء لمطامع الملوك والأباطرة، وطمعا في المزيد من الفخار القومي.

ذكرنا في الجزء الأول أنه في عام ٦٢١ م أن انتصرت جيوش الفرس على الروم واستولت على الشام ومصر وآسيا الصغرى قبل هجرة الرسول ليثرب بسنة، وفي بضع سنين بعدما ظهر هرقل عظيم الروم يناضل من أجل استرداد ما فقده لسنوات من أراض الإمبراطورية واسترداد الصليب المقدس - في نفس الوقت كان رسول الله يناضل من أجل إقامة مجتمع فاضل بالمدينة المنورة - وقد حاصر الفرس عاصمة الدولة الرومانية الشرقية (القسطنطينية) في يوليو من عام ٦٢٦ م وخلال تلك الأحداث

---

(١) سورة سبأ الآية ٢٨

التي كانت قريبة التزامن مع حصار الأحزاب للمدينة المنورة بأشهر في شوال السنة الخامسة من الهجرة (فبراير سنة ٦٢٧ م) فانهزمت الأحزاب في أواخر ذي القعدة سنة خمس من الهجرة مارس ٦٢٦ م وفي ديسمبر ٦٢٧ م انكسرت جيوش الفرس في موقعة نينوى ففر كسرى إلى عاصمة ملكه قبل هدنة الحديبية، وبقي هرقل قيصر الروم في بلاد فارس زمنا يتابع تأمين نصره، واستعاد الصليب المقدس الذي كان قد أقسم على إعادته لإيليا (أورشليم القدس) . ويعيده سيرا على الأقدام كما نذر، من فارس إلى فلسطين فقضى عام ٦٢٨ بكامله ليبر بهذا القسم وليحج إلى بيت المقدس.

على الرغم من أن الإمبراطوريتان الفارسية والرومانية الشرقية (بيزنطية) كانتا على عظم سلطانهما وذروة جبروتهما، إلا أنهما كانتا أيضا في ذروة العجز عن التجديد وانعدام القدرة على فهم الأحداث، فجعلتا تنفقان من مخزوناتهما الفكرية والإيمانية، حتى نضب، ففقدتا ملكات الفضيلة، ونزلتا من عالم السمو الروحاني المعني بالتفكير، إلى عالم الإفلاس الروحاني المعني بالمادة، فلجأتا - في خضم هذا الإفلاس العقائدي - إلى تقليد السلف، حتى ولو كان السلف مخطئا، فكانتا تعتبران كل جديد بدعة، حتى ولو كان هذا الجديد ليس بجديد وإنما دعوة للتجديد بغية الحفاظ على الأصل، وبالتالي فكل بدعة ضلال وكل ضلالة في النار.

كانت حياة هاتان الإمبراطوريتان في تناقض روحاني وفكري، واحتضار حضاري مستمر تسيران في انحدار إلى درك النهاية، ولكن قادة تلك الإمبراطوريتان كانوا لا يشعرون، بل ويصمون آذانهم عن أي دعوة حق، والملحوظ أن أي مجتمع إنساني لا يتم تجديده على مر العصور ينحدر إلى هذا المصير، فيصبح أكثر احتياجا لعنصر خارجي لتجديده ولتخليصه من الخرافات الوضعية والملتصقة بدين الله، بغية تجديد منظومة الإيمان بعد اختلالها، ولكي تبلغ بالمجتمع الإنساني حدا للكمال المراد من الله عز وجل.

هنا آن الأوان لعالمية الدعوة، ولم يبق إلا أن يهدي الله رسوله إلى الصراط المستقيم ويتم الله نعمته عليه وعلى العالمين، فيدعوهم بدعوة الإسلام ليبشر بالدين الجديد، وينذرهم ليؤمنوا بالله الواحد القهار فينقي العقائد الفاسدة والمفسدة، وأولئك الذين دعاهم رسول الله فكان منهم من آمن ففاز، ومنهم من تشكك ومن لم يعبأ بالدعوة، ومنهم من غضب وتحدى من دعاه ومنهم من بادر بحربة، وكل قد خسر، فإن الله بالغ أمره وقد جعل لكل شيء قدرا.

وقبل أن نخوض في دعوة رسول الله محمد للناس بدعوة الحق، لنا أن نتأمل ماذا فعل نبي الله سليمان وهو يدعو بلقيس ملكة سبأ إلى دين الله، وما كان محتوى الرسالة، فهو عليه السلام لم يرسل رجلا بالرسالة وإنما أرسل طيرا - وهي واحدة من معجزات الله لنبيه سليمان – فطير لا يتكلم ووظيفته أن يلق بالكتاب ويتولى عنهم، وقد نصت الرسالة على أنه (بسم الله الرحمن الرحيم) وبدعوة وتحذير وأمرُ بألا يعلون على نبي الله سليمان وبإنذار وأمر أن يأتونه مسلمين، فاستشارت بلقيس الملأ من حولها، فأبدوا استعدادهم للقتال دفاعا عن مملكتهم، وكانت بلقيس على يقين من إفساد الملوك وبأنهم يجعلون أعزة أهل البلاد أذلة، فأرادت أن ترسل إليه بهدايا فترى ردة فعله.

(ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ * قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ * قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ

شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ* قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ * وإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ (١) [٢]

كانت بلقيس حكيمة، ولكن صدها عن الإسلام كان وراءه أنها من قوم كافرين يعبدون آلهة من دون الله، فلما أتاها اليقين بالمعجزات الحسية أسلمت مع سليمان لله رب العالمين،

(وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ * قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٢) [٣]

وكان أن آمنت بعدما رأت من معجزة حسية، وقد سبق أن ذكرنا الطفولة الإيمانية (أو الطفولة الحضارية) التي احتاجت إلى معجزات حسية لدفع الناس للإيمان، أما وقد نضجت البشرية في مرحلة النضج الإيماني فلا معجزات إلا ما حبانا به الله من عقل،

١- بلاغ رسول الله إلي الملوك

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ)

اختار رسول الله رسله لذلك الأمر الإلهي بالإبلاغ بعناية فائقة، فكان الاختيار من التجار المسلمين الذين سبق لهم أن خبروا تلك البلاد التي يريد إرسالهم إليها لدعوة ملوكها إلى الإسلام، وممن يعرفون عاداتهم ولغتهم وقصورهم وطريقة حكمهم فقيل لرسول الله عندما أراد إرسال كتبه إلى الملوك أنهم لا يقرءون الكتاب إلا إن كان مختوما، فاتخذ صلى الله عليه وسلم خاتما من فضة وكان نقشه ثلاثة أسطر محمد (في السطر الأسفل احتراما لجلال الله) ثم تأتي كلمة رسول (في السطر الذي يعلوه) ثم لفظ الجلالة الله (في السطر الأعلى) وكانت دعوة رسول الله دعوة سلمية إلى دين الله، فخرج يوما على الصحابة يقول لهم

(أيها الناس، إن الله قد بعثني رحمة للناس كافة فلا تختلفوا علي كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم)

فقالوا: وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله

قال: (دعاهم إلى ما دعوتكم إليه، فأما من بعثه مبعثا قريبا فرضي وسلم، وأما من بعثه مبعثا بعيدا فكره وجهه وتثاقل)

لم ترسل الرسائل في وقت واحد، ولكن على مدى عام أو أكثر ما بين نهاية عامي ٦٢٨ إلى ٦٢٩ م للميلاد أي ما بين سنة ٧-٨ هجريا، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سبق أن أرسل رسالة الدعوة من قبل إلى النجاشي (أصحمة بن الأبجر) وأسلم كما ذكرنا آنفا بالجزء الثالث من هذا الكتاب قبل خيبر، إلا أن النجاشي أصحمة بن الأبجر كان قد توفي في رجب من العام التاسع للهجرة بعد أن

[٢] (١) سورة سبأ من ٢٨ – ٣٥

[٣] (٢) سورة سبأ من ٤٣– ٤٤

ثار عليه رجال الدين المسيحي تعصبا، وأثاروا عليه الشعب بسبب إسلامه فنشبت حربا أهلية راح ضحيتها أصحمة بن الأبجر، فصلى عليه رسول الله وأرسل رسالة أخرى لمن تولى من بعده عام ٩ للهجرة.

وهكذا تغلب الجمود الفكري والتعصب في الحبشة على التجديد والهداية لاكتمال دين الله، في تناقص روحاني وفكري وحضاري مستمر وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وأي مجتمع أكثر احتياجا لعنصر خارجي لتجديده وتخليصه من الخرافات المشوهة لدين الله، لإكمال منظومة الإيمان بعد اختلالها ولكي تبلغ بالمجتمع الإنساني حد الكمال المراد من الله عز وجل.

لما كلف الله رسوله وألقى عليه تبعات التكليف قال له (وما أنت عليهم بجبار) وقال (إنما أنت منذر) وقال (ليس عليك هداهم) وقال (إنما أنت مذكر) وقال (إن عليك إلا البلاغ)

كتاب رسول الله إلى هرقل عظيم الروم (Heraculius)

اختار رسول الله لحمل هذا الكتاب د حية بن خليفة الكلبي وقد أمره رسول الله أن يدفع الرسالة إلى الحارث بن عمير الأزدي عظيم بصرى بجنوب الشام ليدفعه إلي هرقل قيصر الروم، إذ كان قيصر لا يزال في سفره، فسلم الحارث الرسالة لهرقل، وهذا نصها

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك إلى دعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون)

الله
رسول
محمد

هي رسالة مختصرة للإسلام وللسلام لمن يتبع هدى الله، فيها دعوة للدين وبشارة بالأجر من الله مرتين مرة بأجره ومرة بأجر من اتبعه وإلا النذير بأن إثمه وإثم من هم في ملكه من رعاياه يقع عليه.

أغلب الظن أن دحية قد أتى الحارث بن عمير الأزدي عظيم بصرى قبل أن تصل إلى الحارث الرسالة التي تخصه، ولما اطلع هرقل قيصر الروم على الأمر، أرسل إلى ركب من قريش وفيهم أبي سفيان بن حرب الذين كانوا في تجارة بالشام، فيجئ بهم على عجل من غزة إلى إيليا (القدس الآن) فدعاهم إلى مجلسه وحوله عظماء الروم ودعا ترجمانه

فقال لهم: أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟

قال أبو سفيان: أنا أقرب إليه نسبا

فقال هرقل: أدنوه مني، وقربوا إليه أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال: إني سائل هذا الرجل، فإن كَذِبني فكَذّبوه

تمنى أبو سفيان أن يكذب لولا من كانوا على ظهره فأراد أن يزهد شأنه لقيصر ثم سأله



قال قيصر: كيف نسبه فيكم؟

فقال أبو سفيان: هو فينا ذو نسب (أو قال: محض أوسطنا نسبا) في قول آخر

ثم سأله هرقل: هل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟

قال أبو سفيان: لا

فقال هرقل: فهل كان من آبائه ملك؟

قال أبو سفيان: لا

فقال هرقل: فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟

قال أبو سفيان: بل ضعفاؤهم

فسأله هرقل: أيزيدون أم ينقصون؟

قال أبو سفيان: بل يزيدون

قال هرقل: فهل يرتد أحد منهم سخطه على دينه بعد أن يدخل فيه؟

قال أبو سفيان: لا

فقال هرقل: فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قال أبو سفيان: لا

قال هرقل: فهل يغدر؟

قال أبو سفيان: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها.

لم يتمكن أبو سفيان بن حرب من الكذب، ربما لشر بقي عنده، أو خشية رده ممن ورائه، فأراد أن يدخل الشك في قلب هرقل بمقولته الأخيرة

سأله قيصر الروم: فهل قاتلتموه؟

قال أبو سفيان: نعم

قال هرقل: فكيف كان قتالكم إياه؟

قال أبو سفيان: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه

قال هرقل: ماذا يأمركم؟

قال أبو سفيان: يقول أعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف وصلة الرحم..

قال هرقل للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فقلت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب من قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله، فذكرت أن لا.. فلو كان أحد قال هذا القول من قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا، فلو كان من آبائه ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله، وسألتك أأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان إلى أن يسود، وسألتك أيرتد أحد سخطه لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حينما يدخل بشاشة القلوب، وسألتك هل يغدر، فذكرت أن لا وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بماذا يأمر فقلت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف وصلة الرحم،

هنا قال هرقل مقولته الشهيرة

فإن كان ما تقوله حقا فسيملك موضع قدمي هاتين وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عند قد ميه.

ثم دعا برسالة رسول الله فقرأه عليه الترجمان فكثر اللغط عند قيصر فأمر بخروج العرب من المجلس (١)

كان انطباع أبي سفيان بن حرب أن هرقل قيصر الروم يخاف من رسول الله، وأن أمر الرسول سيسود فارتعب أبو سفيان بن حرب.

أجاز هرقل قيصر الروم دحية بن خليفة الكلبي حامل كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمال وكسوة، وعاد دحية وفي طريقه، وعندما بلغ حسمي، أغار عليه رجال من جذام، فقطعوا عليه وسلبوه هدايا قيصر الروم هرقل، وأتى رسول الله يقص عليه كل ما حدث، فبعث رسول الله زيد بن حارثة إلى حسمي، وهي وراء وادي القرى في خمسمائة رجل، فشن عليهم غارة واستلب ألف بعير وخمسة آلاف من الشاء وسبى منهم نساء وصبيان، وكان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قبيلة جذام موادعة فرد الغنائم والسبي لما احتج زيد بن رفاعة الجذامي الذي كان قد أسلم من قبل هو ومجموعة من رجاله.

ترك قيصر الروم إيليا وتحرك إلى حمص، وكان محتوى الرسالة التي تلقاها من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ملكته، فرأى أن يعرض الأمر على رجاله، فأذن لعظماء الروم الذين قد صحبوه في رحلة القتال المريرة التي خاضوها معه لاستخلاص الصليب المقدس من الفرس، فقال لهم:

يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتتابعوا هذا النبي.

لما قال هرقل هذا، ثاروا عليه فتراجع هرقل خشية أن يثور رجاله عليه فيثور الشعب ضده كما حدث مع أصحمة الأبجر نجاشي الحبشة فيلقى نفس مصيره بخروج رجاله ورجال الدين ومن ثم الشعب عليه حينما أسلم، فقال لهم:

إنما كنت قد قلت مقالتي أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت

فسجدوا له ورضوا عنه.

كتاب رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر الغساني

اختار رسول الله لحمل هذا الكتاب شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني وكان أميرا بدمشق من قبل قيصر، وكان الحارث مشغولا بتهيئة الضيافة لقيصر الروم هرقل وكان في طريقه إلى دمشق آتيا من حمص، وكان الحارث بن أبي شمر الغساني قد بلغه ما استقر عليه الأمر مع هرقل في حمص بخصوص رسالة رسول الله إليه، فطلب الكتاب ليقرأه وكان نصه

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر. سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله فإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبق ملكك.

الله
رسول
محمد

رمى الحارث بالكتاب، وأراد أن يرضي سيده، فقال: من ينزع مني ملكي؟

الكتاب الذي وصله من رسول الله لم يلمح إلى ضياع ملكه ولكن الحارث إنما أراد افتعال موقف فيسمع به هرقل، فقال: أنا سائر إليه ولو كان باليمن جئته، علي بالناس،

كان كتاب رسول الله دعوة لهدايته وتبشير بالجنة وببقاء الملك، لا لحربه.

فلم يزل الملك الحارث جالسا ولم يصرف شجاع الأسدي حتى جاء الليل وأمر بالخيل أن تنعل ثم قال: أخبر صاحبك بما ترى! وصرف شجاع

لما كتب الحارث إلى هرقل يخبره بما فعل رد عليه هرقل قيصر الروم بألا يسير إليه.

رسل رسول الله إلى الحارث بن عمير الأزدي عظيم بصرى:

لما أرسل رسول الله خمسة عشر رجلا إلى ذات الطلح على حدود الشام لعظيم بصرى كان جزاؤهم القتل جميعا ولم ينج منهم إلا رئيسهم، فعاد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فغضب وأقسم أن يقتص منهم، ولكنه أكمل الرسائل للملوك فيتفرغ للقصاص فيما بعد، فالرسل لا يقتلون، فإن كانت إهانة للرسول ولرسله أو استهانة بالإسلام، فالرد يجب أن يكون مساويا، وأرجأ رسول الله رد الفعل إلى أن يتفرغ له.

كتاب رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس (*Cboroes Eparw`z*)

كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى أبرويز بن هرمز وبعث بالكتاب مع عبد الله بن حذافة السهمي لأنه كان يتردد على كسرى كثيرا وهذا نص الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول لله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمد عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين. فأسلم تسلم فإن أبيت فإن عليك إثم المجوس.

الله

رسول

محمد

ومرة أخرى كانت الرسالة دعوة وبشارة وإنذار بوقوع الإثم عليه، بعيدة عن الحرب والقتال

فلما قُرئ الكتاب على كسرى مزقه وقال في غرور وغطرسة المهزوم للتو من هرقل:

عبد حقير من رعيتي يكتب اسمه قبل اسمي**!**

ربما كان كسرى مهدور الكرامة من أثر هزائمه المتتالية من هرقل ولم يكن ينقصه أن يرسل إليه عربي برسالة لهدايته لدين الله فأساء فهم كل كلمة، فأراد أن يثبت جدارة في غير موضعها واستنشاط غضبا ومزق الكتاب، ولما علم رسول الله من عبد الله بن حذافة أن كسرى قد مزق الرسالة قال صلى الله عليه وسلم: مزق الله ملكه

أما كسرى فلم يكفه هذا، وإنما كتب إلى عامله باليمن (باذان) (١) [٤] أن ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني بهِ، ثم بعث باذان بقهرمانه (كاتبه وحاسبه) واسمهُ (بابويه) (٢) [٥] ورجلا جلدا آخر من الفرس يقال له (خرخسرة) أن ائت بلد هذا الرجل وكلمه وأتني بخبره، وأرسل باذان معهما كتابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره فيه أن ينصرف معهما إلى كسرى فخرجا حتى قدما إلى الطائف فوجدا رجالا من قريش هناك بنخب من أرض الطائف فسألاهم عن محمد فقالوا هو بالمدينة واستبشروا بهما فرحا قال بعضهم لبعض أبشروا فقد نصب له كسرى ملك الملوك، وكفيتم هذا الرجل (يقصدون رسول الله)

خرج الرجلان حتى قدما رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فكلمه بابويه ينصحه وقال:

إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيك به وقد بعثني إليك لتنطلق معي فإن فعلت كتب فيك إلى ملك الملوك ينفعك ويكفه عنك وإن أبيت فهو من قد علمت، فهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك.

قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: ارجعا حتى تأتياني غدا

---

١) يقال له بادام) [4]

٢) ويقال اسمه أبانوه) [5]

إسلام باذان:

لما دعاهما رسول الله فأخبرهما بأن شيرويه كفادة الثاني قد قتل أباه كسرى أبرويز وبأن ملك فارس سيمزق، بهت الرجلان فسألا رسول الله أفنكتب هذا عنك ونخبر الملك؟ قال: نعم أخبراه عني ذلك وقولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى وينتهي إلى منتهى الخف والحافر وقولا له إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك وملكتك على قومك ولما رجعا لباذان بعد شهر من السفر وذكرا له نبوءة رسول الله، بقتل كفادة ابن أبرويز لأبيه، وصلت لباذان رسالة من شيرويه يقول فيها (أما بعد فإني قد قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضبا لفارس لما كان قد استحل من قتل أشرافهم وتجميرهم في ثغورهم فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه) كان ذلك دليل دامغ لباذان على نبوة رسول الله، فآمن على الفور ومن معه من أهل الفرس باليمن (١) [٦] إذ بعد هزائم كسرى أبرويز بن هرمز، استمرت القلاقل حتى خلعه قواد جيشه، ولما يأسوا من النصر حبسوه وقتلوا جميع أبناءه أمام عينيه، وقُتل كسرى أبرويز على يد ابنه الأخير كفادة الثاني (شيرويه) ثم تأتي المعجزة الثانية إذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال (مزق الله ملكه) فقد أتاه الخبر من السماء، ومزق الله ملكه بتولي الابن القاتل العرش بدلا من أبوه ثم كان وباء في البلاد أودى بحياة الآلاف ومنهم الملك كفادة الثاني فنودي بابنه أردشير الذي لم يتجاوز السابعة ملكا وبعد أيام قتل (شهر براز) القائد العسكري الغلام وأعلن نفسه إمبراطورا فقتله جنوده بعدها أتم الله تمزيق ملكه إذ قام تسعة من الحكام يمزقون الإمبراطورية وأعلنت بعض الولايات استقلالها.

كانت حمير تقول لخرخسرة ذو المعجزة وبنوه حتى اليوم ينسبون إليها خرخسرة ذو المعجزة وكان بابويه قد قال لباذان (ما كلمت رجلا قط أهيب عندي منه)

لما أسلم باذان ولاه النبي صلى الله عليه وسلم على مخاليف اليمن وكان منزله بصنعاء دار مملكة التبابعة وبقي ملكا حتى مات بعد حجة الوداع، فولى رسول الله صلى اله عليه وسلم إبنه (شهر) بن باذان على صنعاء وولى على كل جهة واحدا من الصحابة.

كتاب رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط

في شهر المحرم سنة ٨ هجريا مايو ٦٢٩ م كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جريج بن متى أو جريج بن مينا ولقبه باكوكيوس (٢) [٧] المعرب بالمقوقس ملك مصر والإسكندرية وبعث بالكتاب مع حاطب بن أبي بلتعة وهذا نص الكتاب:

---

١) محاضرات تاريخ الأمم للخضري ١٤٧/١، فتح الباري ١٢٧/٨، ١٢٨_ رحمة العالمين) [6]

[٧] (٢) لقبه بالقبطية (أ Pkauchios) ومعناه مطول البناء وهو لقب كل من يملك مصر من قبل الروم وحسب العلامة المنصورفوري (رحمة العالمين) ١٧٨/١ أو بنيامين حسب كتاب أكرم كي سياسي زندكي للدكتور حميد الله ص ١٤١١

بسم الله الرحمن الرحيم
من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط. سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط. (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون) (٣)[8]
الله
رسول
محمد

هي رسالة بدعوة سلمية ومختصرة أيضا وكما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم لهرقل بآية من القرآن أرسلها للمقوقس، وكما بشر عليه الصلاة والسلام هرقل بأن الله يؤته أجره مرتين أبلغ ذلك المقوقس أيضا فهما أهل الكتاب وأنذر بوقوع الإثم.

سار حاطب بالكتاب إلى مصر وسلمه للمقوقس بالإسكندرية قائلا:

إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر غيرك بك.

قرأ المقوقس الرسالة فضمه إلى صدره وجعله في حق عاج وقال:

إن لنا دينا لن ندعه إلا لما هو خير منه،

قال حاطب: ندعوك إلى دين الإسلام الكافي به الله فقد ما سواه، إن هذا النبي دعا الناس مكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، فكل نبي أدرك قوما فهم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدركه هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، وإنما نأمرك به.

قال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبي (١) [٩] فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء، والإخبار بالنجوى وسأنظر.

ودعا كاتبا يكتب العربية فكتب

(بسم الله الرحمن الرحيم)
لمحمد بن عبد الله (٢) من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيا بقي، وكنت أظن أن يظهر بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة تركبها، والسلام عليك.

---

[8] (٣) هذا الكتاب محفوظ بدار الآثار بإسطنبول وقد عثر عليه عالم فرنسي في دير بمصر زمن سعيد باشا
[9] ١) (ومن هنا يبدو أن أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تصله سواء عن طريق النجاشي أو عن طريق نصارى الحجاز أو التجار)
(٢) لم يذكر كلمة (رسول الله) بل ذكر الاسم كاملا فقط مع ذكر البسملة في صدر الرسالة

الجاريتان هما مارية بنت شمعون (المعروفة بمارية القبطية)*[١٠] وأختها سيرين بنت شمعون، أما الكسوة فكانت عشرين ثوبا من قباطي مصر، والبغلة هي دلدل.

كتاب رسول الله إلى هوذة بن علي الحنفي صاحب اليمامة

كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هوذة بن علي الحنفي صاحب اليمامة وكان قد تعدى المائة سنة وبعث بالكتاب مع سليط بن عمرو العامري فاستقبله هوذة أحسن استقبال وأنزله وحياه فقرأ الكتاب وهذا نصه

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي، سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فاسلم تسلم وأجعل لك ما تحت يديك

الله

رسول

محمد

رد هوذة على سليط ردا لطيفا، وكتب لرسول الله: (ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك) كان هوذة قد أضله المقصود فحسب أن رسول الله شاعرا مهابا فرأى أن عنده ما عند محمد فلماذا يتبعه دون أن يشاركه! ثم أجاز سليطا بجائزة وكساه أثوابا من نسج هجر، ولما عاد سليطا وقرأ على رسول الله الكتاب فقال رسول الله: باد وباد ملكه ولما عاد رسول الله بعد عام من الفتح بلغه موت هوذة فتنبأ صلى الله عليه وسلم بما سيحدث فقال: إن اليمامة سيظهر بها كذب يدعي النبوة فيُقتل بعدي.

كتاب رسول الله إلى المنذر بن ساوي التميمي بالبحرين

كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الرسالة إلى المنذر بن ساوي التميمي ملك البحرين وبعث بالكتاب مع العلاء بن الحضرمي فأسلم المنذر من فوره وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (أما بعد يا رسول الله فإني قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه، ومنهم من كرهه، وبأرضي مجوس ويهود، فأحدث لي في ذلك أمرك)

فرد عليه رسول الله برسالة هذا نصها

(بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوي، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن محمد عبده ورسوله، أما بعد فإني أذكرك الله عز وجل، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيرا وإني قد شفعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا إليه، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلم نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيه فعليه الجزية)

يظهر جليا من تلك الرسالة أن رسول الله لا يريد سلب ملك أحد ويظهر أن لا إكراه في الدين

[١٠] * مارية القبطية بنت شمعون عاد حاطب بهدايا المقوقس في شهر صفر سنة ٨ هجريا – يوليه ٦٢٩ وكانت فتاة تبلغ من العمر ١٧ سنة، بيضاء جعدة جميلة فأنزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أختها سيرين بنت شمعون في منزل سليم بنت ملحان، فوهب رسول الله سيرين إلى حسان بن ثابت فولدت له عبد الرحمن، وكانت مارية جارية رسول الله وما ملكت يمينه فوطئها في بيت من أملاكه من بيوت بني النضير التي آلت إليه صلى الله عليه وسلم.

كتاب رسول الله إلى ملكي عمان

كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الرسالة متأخرا إذ أرسلها مع عمرو بن العاص الذي أسلم على يد النجاشي في العام الثامن من الهجرة ٦٢٩ م فكانت إلى ملكي عمان جيفر وعبد وهما إبني الجلندي وهذا نصها

(بسم الله الرحمن الرحيم)
من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد ابني الجلني، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوكما بدعاية الإسلام أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، فإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل، وخيل تحل بساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما.

إنها دعوة وبشارة وإنه النذير بأمر الله له في القرآن، وهو يعلم أنهما إن لم يقرا بالإسلام لسوف يزول ملكهما، وينبئهما بخيل تحل بساحتهما وتظهر النبوة على ملكهما حسب قول الله

(وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ)

كان عمرو بن العاص كما سيأتي ذكره قد آمن في صفر من عام ثماني للهجرة قبل فتح مكة بستة أشهر أثناء وجوده بالحبشة على يد النجاشي، وهو في الثانية والأربعين من عمره، وكان عمرو قد لجأ إلى النجاشي خوفا من تمكن الإسلام بعد عمرة القضاء، وإذ هو بالحبشة جاءه إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري وعمرو بن العاص هو الصحابي الوحيد الذي أسلم على يد تابعي ولا يعرف مثله، ولما قدم عمرو بن العاص إلى عُمان، قدم الرسالة إلى عبد – الأخ الأصغر – وكان سهلا حليما وسأل عمرو عن الإسلام وأعجبه، ففض الرسالة وقرأها وكذلك قرأها أخوه الأكبر جيفر وبعد مماطلة أسلما خشية زوال الملك.

كتاب رسول الله الثاني إلى النجاشي الجديد

كتب رسول الله كتابا إلى النجاشي الجديد بعد موت أصحمة رضي الله عنه أرضاه وكان نصها يختلف عن نص كتاب أصحمة وفيه

(بسم الله الرحمن الرحيم)
من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته القاها إلى مريم البتول الطيبة الصينة فحملت بعيسى من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده، وإني أدعو إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وإن تتبعني، وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، ولقد بلغت ونصحت، فاقبل نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى)

٢- لماذا كان على الرسول إرسال رسائله دَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا:

لكي يذكر (فالنصوص القرآنية تلزمه بالتذكير)

(نحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ)

(فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾

(فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ، سيذكر من يخشى)

ويبلغ (فالنصوص القرآنية تلزمه بالإبلاغ)

(إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ*فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ) (١)

(وَأَطِيعُوا۟ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ) (٢)

(مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) (٣)

(وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ) (٤)

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ) (٥)

(فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ) (٦)

(قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ) (٧)

(وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (٨)

(وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ) (٩)

(وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ) (١٠)

فيبين (فالنصوص القرآنية تلزمه بالتبيان)

(هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ) (١١)

(عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ) (١٢)

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ) (١٣) [١١]

---

١) آل عمران١٩- ٢٠ (٢) المائدة ٩٢ (٣) المائدة ٩٩ (٤) الرعد ٤٠ (٥) النحل ٣٥ (٦) النحل ٨٢ (٧) النور ٥٤ (٨)) العنكبوت ١٨ (٩) يس ١٧ (١٠) التغابن ١٢ (١١) آل عمران ١٣٨ (١٢) الرحمن ٤ (١٣) النحل ٨٩
11

ولينذر (فالنصوص القرآنية تلزمه بالإنذار)
(أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) (١)

(وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ) (٢)

(إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ*إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) (٣)

(وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا) (٤)

(تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نذير * قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ) (٥)

(أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ) (٦)

ثم يبشر وينذر (ثم تلزمه بالتبشير والإنذار)

(قل لا أملك لنفسي نفعا َولا ضرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (٧)

(إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ) (٨)

(يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٩)

(أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ) (١٠)

(فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ) (١١)

(وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) (١٢)

(إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) (١٣)

(تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا) (١٤)

(وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) (١٥)

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) (١٦)

(وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (١٧) [12]

فخاتم الأنبياء والرسل عليه أن يكون - كما كل الرسل والأنبياء - النذير المبين فلا إكراه.

---

١) السجدة ٣ (٢) سبأ ٣٤ (٣) فاطر٢٣- ٢٤ (٤) فاطر ٤٢ (٥) الملك ٨-٩ (٦) الملك ١٧ (٧) الأعراف ١٨٨ (٨)) البقرة ١١٩ (٩) المائدة ١٩ (١٠) سورة هود ٢ (١١) هود ١٢ (١٢) الإسراء ١٠٥ (١٣) الفتح ٨ (١٤) الفرقان ١ (١٥) الفرقان ٥٦ (١٦) الأحزاب ٤٥ (١٧) سبا ٢٨
12

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) (١)

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ * لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ *وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (٢)

(قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) (٣)

(إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) (٤)

(وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) (٥)

(إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) (٦)

(فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ* وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) (٧)

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) (٨) [١٣]

كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يذكر العالمين كافة بوحدانية الله عن طريق الرسالة التي كلفه الله عز وجل بها، ولا سلطة له إلا التذكير فلا سيطرة له عليهم ولا إجبار وما كان عليه إلا البلاغ المبين، فلا إكراه في الدين، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فيبلغ الذين أوتوا الكتاب ما اختلفوا فيه بعدما جاءهم العلم بغيا بينهم، فعليه البلاغ وعلى الله الحساب فهو الخالق الذي يعلم ما يبدون وما يكتمون، وليس للبلاغ أن يقف عند هذا الحد، بل تبيان ما جاء في البلاغ، ومن الطبيعي أن يؤمن قوم ويكفر قوم، وعلى الله حساب البشر أجمعين يوم يقوم الحساب وعليه فلا يحق لبشر ما كان أن يكره قوما على الإيمان كما لا يحق لبشر أن يمنع الهداية لمن خلق الخالق، فنشر الرسالة واجب على رسول الله وعلى المؤمنين من بعده دون إكراه في اعتناق عقيدة بعينها.وكانت أغلب الردود غير رافضة للدعوة أو ناقمة على من أرسلها، اللهم إلا من هوذة بن علي الحنفي صاحب اليمامة الذي حركه الحسد فحسب أن الأمر لا يعدو أن يكون شعرا يستطيع أن يجاري رسول الله فيه، أو سلطة وهيبة يطلب ثمنها، وكذلك كسرى عظيم الفرس الذي استشعر الأمر وكأنه جرأة من أعرابي فكان من أمره ما كان، أما الحارث بن أبي شمر الغساني فإنما أراد أن يزايد فيظهر لسيده قيصر حرصه على دينه، أما مقتل الرسل ببصرى فله تصرف آخر كما سنرى من تجهيز جيش من ثلاثة آلاف مقاتل في غزوة مؤتة ولم تكن أي رسالة أرسلها الرسول قد احتوت على تحد وإنما إبلاغ بالرسالة، ونحن إن طالعنا ما أرسله نبي الله سليمان إلى بلقيس يدعوها إلى الإسلام لوجدنا أن رسائل رسول الله صلى الله عليه وسلم للملوك كانت على نفس النحو ولكن أقل تعاليا وأكثر سلمية فعلام القتل والقتال إذن؟

كان نهج رسول الله في الدعوة للعالمين كنهج كل النبيين (مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) كان معه الكتاب بالحق يهدي به الناس كافة، ليحكم الله وحده بالكتاب المرسل فيما اختلفوا فيه، فلا يكون للناس على الله حجة بعد دعوته صلى الله عليه وسلم، فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم، أما الذين يجادلون بالباطل بعد ما جاءتهم البينات فلسوف يمسهم العذاب منه سبحانه وتعالى.

---

١) هود ٢٥ (٢) الحجر٨٧-٨٩ (٣) الحج ٤٩ (٤) الشعراء ١١٥)
٥) العنكبوت ٥٠ (٦) ص ٧٠ (٧) الذاريات ٥٠ -٥١ (٨) الأعراف ١٨٤)
13

(كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا اختلفواْ فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (١)

(رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا) (٢)

(وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ (٣)

فالله سبحانه وتعالى يرسل المرسلين مبشرين ومنذرين ومعهم رسالات الله فيجادل الذين يكفرون بالباطل ليدحضوا به الحق بل ويتخذوا آيات الله وما أنذروا هزوا ويعرضون عما أنزل الله فيجعل الله على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وجعل في آذانهم وقرا فلن يهتدوا أبدا..

(وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَـٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا) (٤) [١٤]

وهنا يخترق القرآن حاجز الزمان فيبلغنا بما سيحدث يوم الحساب فلسوف يأتي أمر الله ويحشر الناس وما يعبدون من دون الله، فيسأل الله عز وجل المرسلين هل أَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ؟ فيقول المرسلون لله: سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِنك يارب العالمين قد مَّتَّعْتَهُمْ هم وَآبَآءَهُمْ حَتَّىٰ أنهم نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورا

يبلغنا الله تعالى ما سيقال لرسله ويبلغنا بما سيقول الرسل لله جل وعلا:

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ * قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ (٥) [١٥]

وإن كان الناس قد كذبوا الرسل فلم يستطيعوا هدايتهم، فلا ينبغي على الرسل أن يقصروا فيما كلفوا به وإلا فسيذقهم الله عذابا كبيرا.

(فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ (٦)

فجميع الرسل - بما فيهم محمد صلى الله عليه وسلم - قد عانوا مرارا من مظاهر الطفولة البشرية والإيمانية، فكان أن يُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءايَـٰتِ الله وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا فطلبوا من الرسل من المعجزات ما ليس لهم أن يأتوها إلا بإذن الله، وكانوا يواجهون تساؤلا، فلئن كانوا رسلا من الله حقا، فلم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق.

---

١) البقرة ٢١٣ (٢) النساء ١٦٥ - ١٦٦ (٣) الأنعام ٤٨-٤٩ (٤) الكهف ٥٦-٥٧)
٥[14]) الفرقان ١٧- ١٨)
٦[15]) الفرقان ١٩)

صحيح أن الله جلت حكمته قد أيد بعض الرسل عليهم الصلاة والسلام بمعجزات داحضة كنجاة إبراهيم من النار الموقدة وبكونه خليل الله، وكعصا لموسى يفعل بها الأعاجيب وأيضا بكونه كليم الله، وقدرة لعيسى على شفاء الأعمى والأبرص والأكمه وإيقاظ الموتى ومعجزة وجوده على الأرض دون أب، إلا أن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم كانت معجزاته عقلية صرفة كأخلاق الرسول وهدي القرآن، وحينما يتساءل معاصروه صلى الله عليه وسلم عما أيده الله به، فلا يفتن رسول الله من هذه المقارنة إذ لا يسعه إلا الصبر، وكان الله به بصيرا،

(وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ (١) [16]

استكثر المشركون منذ بدء الرسالات أن تأت الرسالات إلى رجل من دونهم، ومارسوا الاستكبار على رسول الله، وعجب معاصرو رسول الله من المشركين أن اصطفى الله منهم محمدا، وتمنوا أن يكون واحد منهم هو المختار، واشترطوا أن يكون واحدا عظيما من مكة أو الطائف، ثُم تحدوا محمدا صلى الله عليه وسلم كما تحدى اليهود موسى صلى الله عليه سلم، فقالوا لولا أنزل الله علينا الملائكة أو نرى ربنا، وظلموا وعتوا عتوا كبيرا، ففي اليوم الذي يرون فيه الملائكة، لن تكون بشرى لهم، فهذا يوم تشقق فيه السماء، وهو اليوم الذي يحكم الله فيه فينعم أصحاب الجنة، أما الكافرين فهذا اليوم لهم يوما عسيرا، ولسوف يندم الظالمون أن لم يتخذوا مع الرسول سبيلا، فيلعنون من ضللهم عن ذكر الله من الأخلاء،

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا* وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَاعَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا*أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا*وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا*ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا * وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَاوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا* لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا*وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا * وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾

لم يقف الضلال على عدو من المجرمين ممن كفر برسول الله سواء من المشركين، أو من أهل الكتاب، بل تعداه إلى أن يضل الشيطان من أسلم بدوره بنفس الضلال، ولكن كيف يضل المسلم عن الذكر بعد إذ جاءته البينات؟ يضله عدوا من المجرمين، سواء كان هذا العدو من شياطين الإنس أو الجن، فيضل من آمن ويخذله بعدها، فيجعله يهجر القرآن بأحد أمرين:

فإما أن يبعده عن القرآن تماما

فلا يقرأه ولا يسمعه وهو يُقرأ، وإن سمعه لا يتعظ بما يُقرأ أو بمن يُذَكّره به ويصم أذنيه، ولا يجله فيهجره هجرا واضحا،

وإما أن يغويه في قراءة القرآن أو بقراءة القرآن

---

١) الفرقان ٢٠)
16

والإغواء في القراءة أو بالقراءة هو في أحد أمرين:

أولهما أن يقرأ القرآن قليلا أو كثيرا دون تدبر، فيدعي أنه يقرأ وفي الحقيقة هو لا ولم ولن يتدبر ما يقرأه، فيشتري نفاق المجتمع بادعاء القراءة، فيقال عنه أنه يقرأ القرآن، وبالتالي لا يغير القرآن من سلوكه ومن مساوئه، ويصبح ادعاؤه بقراءة القرآن وبالا عليه عند الله، وخزيا ظالما للقرآن لمن يعرف فضله، فيصبح عقابه عند الله عظيما، وهو يمارس النفاق بكل أنواعه الظاهر والباطن كأوضح ما يكون، وهو مرتاح البال أما إن قرأ القرآن وتدبر معناه ولم يغير القرآن من سلوكه ومن مساوئه أيضا رغم علمه وفهمه ولم يعمل بما أمره الله به فذلك أشد عقبا من الله. وثانيهما أن يستخدم القرآن إنفاذا للمصالح الدنيوية، فأسوأ الأمثلة هو في استخدام آيات القرآن من أجل الدجل الاجتماعي أو التجاري أو السياسي وهو النفاق المنتشر منذ حقبة في بلاد المسلمين، فيشترون به ثمنا قليلا

- بإطلاق أسماء السور ومفردات الآيات على منتجات تجارية ترويجا للبضائع.
- أو بإذاعة القرآن في إذاعة داخلية بالمنازل والمتاجر أو حتى المصالح الحكومية للادعاء والرياء والناس يتلهون عما يُقرأ من آيات لمجرد البركة ببساطة المرائين**!**.
- أو أن تكتب آيات القرآن على الممتلكات كالسيارات والمحلات التجارية فتتعرض المعاني للإساءة وكأنه إعلان عن التدين أو استعراضا للهوية الدينية وما هو في الحقيقة إلا رياء وتفريقا للمجتمع واستغلالا لسذاجة الناس.
- أو بوضع لافتة كبيرة عليها شهادة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وأسفلها سيف ولا ندري ما علاقة السيف بالشهادة إلا لو كنا نؤكد أن دين الله هو دين القتل**!**
- وأهونها هو في تلاوة آيات القرآن لكسب العيش والتكسب من الدعوة لله عبر الإعلام.

يمارس المنافق هذا وهو مرتاح البال أيضا، ظانا أنه قد خدع الله كما خدع الناس، بعدما خدع نفسه وهذا هو هجر القرآن، ومن يروج لفعل ذلك فهو من أعداء الأنبياء من المجرمين وفي هذا يكشف الله لنا عن أفعالنا جلت حكمته، بما سيحدث يوم تشقق السماء، فيقول المسلم الذي يهجر القرآن، أن الشيطان الذي خذله قد دفعه لهذا الهجر، ويشكونا رسول الله لرب العالمين قائلا يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا، فالمجرمين من أعداء الأنبياء قد جعلهم الله للناس فتنة فهل يعقلون.

ويصف الله لنا - جلت قدرته - هذا الأمر بوضوح مخترقا حاجز الزمان محذرا من الشيطان:

﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا * وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا* وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (١) [17]

(1) سورة الفرقان من ٢٩- ٣١
17

الفصل الثاني

عمرة القضاء

عمرة القضاء

أقام المسلمون آمنين بالمدينة المنورة لا يفكرون إلا في موعدهم لزيارة مكة التي حرموا منها، فالمهاجرون قد حرموا من وطنهم - والوطنية لا تتعارض مع الإيمان - لأكثر من سبع سنين وكذلك الأنصار الذين كانت لهم مع مكة تجارة وبهم شديد الهوى لزيارة البيت العتيق، تلك الزيارة التي انتظروها جميعا لأداء عمرة القضاء حسب هدنة الحديبية، كانوا آمنين اللهم إلا حينما اضطرتهم الظروف إلى إرسال سرايا لمعاقبة من يفكر في الاعتداء عليهم مع الوضع في الاعتبار أن هذا هو الإجراء الذي يجب أن يتخذ بعد مقتل رسل النبي، فاستمتعوا بالعيش، ناعمين بفضل الله ورضوانه وصارت الدعوة عالمية، وحرمت الخمر تحريما تاما خلالها فكادت أعمدة الدين أن تكتمل، ولما استدار العام استعد رسول الله لنفاذ عهد الحديبية.

١ـ التجهز للخروج للعمرة

كانت عمرة القضاء هي في الأساس دعوة لإثبات حسن النية وللتقرب من قريش تمهيدا لاعتناقها دين الله عز وجل، وقد كانت هذه هي السياسة العامة لرسول الله كما رأينا منذ بداية الدعوة سواء لقريش أو للقبائل أو للملوك.

نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس في شهر ذي القعدة من العام السابع هجريا فبراير٦٢٩م بأن يتجهزوا لأداء عمرة القضاء وأمر ألا يتخلف من شهد الحديبية، فأقبل المسلمون يلبون النداء فرحين، واستعمل على المدينة عويف بن الأضبط الديلي، وكان المسلمون قد وعوا بأن ما جاء بسورة الفتح قد تحقق كاملا ولم يتبق سوى أن تتحقق رؤيا رسول الله فيدخلوا المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين دون خوف (١) زاد الركب على الألفين هذه المرة سوى النساء والأطفال وساق النبي ستين بدنة، وتنفيذا للعهد لم يحمل أحد من هؤلاء إلا السيف في قربه، لكن رسول الله رغم نص القرآن أن يدخلوا آمين، قد جهز مائة فارس بالدروع والرماح والسلاح في طليعة للمعتمرين وعلى رأسهم محمد بن مسلمة الأنصاري على ألا يتخطوا حدود مكة إلا بإشارة منه تحسبا للغدر وأن ينحدروا إذا هم بلغوا مر الظهران إلى واد قريب، وساق المسلمون الهدي معهم، وتقدم رسول الله على ناقته القصواء التي اشتراها من أبي بكر من سبع سنين خارجة به صلى الله عليه وسلم من مكة فرارا بدينه.

(لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّؤْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا) (٢) [١٨]

كان الشغف بزيارة البيت العتيق يتملكهم جميعا دون استثناء، ويزيد على الشغف ما كان يحمله المهاجرون حنينهم إلى وطنهم ومنازلهم يرقبون البقعة التي ولدوا بها، والبيت الذي شبوا فيه وبين جدرانه، وذكريات الطفولة والصبا، يكادون يرقصون طربا وفرحا فيكدون في المسير لبلوغ المراد الموعود من الله بالطواف محلقين ومقصرين وآمنين، تطفر من عيونهم دموع الحنين والإجلال، وإذا أناخوا الإبل في الطريق، جعل كل واحد منهم يقص لمن يزامل ذكرياته بمكة، ويذكر المال الذي ضحى به في سبيل الهجرة للمدينة، فاستبد بهم الطرب الوقور وهم يرون مكة عن بعد، ثم عن قرب.

---

١) وتحققت رؤيا رسول الله، فقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرؤيَا بِٱلْحَقِّ بأن َدْخُلُ رسول الله والمسلمون ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بمشيئةَ ٱللَّهُ وهم آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا يخَافُونَ فَعَلِمَ الله مَا لَمْ يعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا

[18]٢) الفتح ٢٧

٢ ـ أداء العمرة

تقدم رسول الله ذلك الحشد على القصواء، يمسك بخطامها عبد الله بن رواحة، وأحاط كبار الصحابة بها وبالنبي، وكان كفار قريش قد أخلوا مكة وجلوا عنها كما نصت بنود هدنة الحديبية، فصعدت قريش في التلال المجاورة لها حيث ضربت الخيام، وحيث آوى منهم من آوى إلى فئ الشجر وعلى جبل قيقعان في شمال مكة، ومنهم من اصطفوا عند دار الندوة يرقبون، وأطل المكيون على الطريد وأصحابه (مُّحَمَّدٌ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ) ينظرون بعجب وإعجاب بعد احتقار، وإكبار بعد تكبر، لقد كانوا يمنون أنفسهم أن يروهم غلاظ الأكباد فوضويون هزيلو الأجساد من شظف العيش وكثرة النضال، وكانت الشائعات قد سرت بأن الحمى قد أصابت المسلمين في خيبر، فما رأوا منهم إلا رجالا أشداء، وما أن دخل المسلمون من الثنية التي تطلعهم على الحجون، فاضطبع رسول الله صلى الله عليه وسلم بردائه وأخرج عضده اليمنى ولما رأى المسلمون الكعبة صاحوا بصوت واحد ينبعث من القلوب فهز صوتهم قلوب الكفار هزا (لبيك اللهم لبيك) وصاح عبد الله بن رواحة بأبيات من شعر بالتحدي للكفار بصيحة الحرب فنهاه عمر، فقال له رسول الله:

(مهلا يا بن رواحة وقل لا إله إلا الله وحده، نصر عبده وأعز جنده، وخذل الأحزاب وحده)

فنادى بها عبد الله بن رواحة والصحابة من بعده.

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة.

واستلم الركن اليماني مشيا ثم أكمل المسير حتى استلم الركن الأسود ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف، وفعل مثله المسلمون، والألفان من المسلمين يهرولون كما هرول ويمشون كما مشى، وقريش تنظر فتنبهر بهذا النظام وهذه التبعية والألفة، ولما انتهى المسلمون من الطواف بالكعبة انتقل رسول الله صلى الله عليه سلم إلى الصفا والمروة فركب بينهما سبعا، كما كان يفعل العرب من قبل، ثم نحر الهدي عند المروة وحلق رأسه وأتم بذلك فرائض العمرة وأحل إحرامه والمسلمون يفعلون ما يفعل، ثم أمر صلى الله عليه وسلم بأن يتولى عدد ممن اعتمروا أمر السلاح بمر الظهران والذي كان عليه الصلاة والسلام قد جهزهم من قبل تحسبا لغدر قريش بمائة فارس بالدروع والرماح والسلاح في طليعة للمعتمرين وعلى رأسهم محمد بن مسلمة الأنصاري على ألا يتخطوا حدود مكة إلا بإشارة فكان استبدالهم بآخرين هي الإشارة منه.

لما كان الغد، دخل رسول الله إلى الكعبة وبقي بها حتى صلاة الظهر، وكانت الأصنام لا تزال تعمرها، ومع ذلك علا بلال سقف الكعبة وأذن في الناس لصلاة الظهر عندها، واصطف المسلمون خلف رسول الله يومئذ بألفين غير النساء والأطفال عند البيت الذي كانوا يصدون عنه منذ سبع سنين،

أقام المسلمون ثلاثة أيام بمكة كما هي مفروضة في هدنة الحديبية فمكث المسلمون خلالها لا يصيبهم أذى ولا يعترضهم أحد بسوء، يزور المهاجرون دورهم ويدعون الأنصار إليها وكأنهم جميعا أصحاب البلد الأمين يسيرون سير الإسلام فيؤدون الصلاة ويعينون بعضهم بعضا ويبر غنيهم الفقير منهم.

ينتقل رسول الله بينهم أبا محبا حبوبا، يتبسم لهذا ويمزح مع ذاك، لا يقولون إلا الحق ولا يشربون الخمر، وكأن المسلمين في عزلة شعورية تامة بين ماضيهم الجاهلي وحاضرهم الإسلامي، فانفصالهم الشعوري واللاشعوري التام بين البيئة الجاهلية التي كانوا فيها، والاتصال المتلاحم مع بيئتهم

الإسلامية قد لفت الأنظار، وأهل مكة يرقبونهم في إعجاب، فهؤلاء أَشِدَّاءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ فكان هذا الحال الفذ قد بدأ يأخذ بقلوب المكيين، فأراد رسول الله أن يجد طريقا آخر لهداية قريش لدين الله عز وجل.

٣- زواج رسول الله من ميمونة (دعوة سلام)

كانت برة (ميمونة) بنت الحارث العامرية الهلالية سليلة أحد بطون قريش، أخت أم المؤمنين زينب بنت خزيمة من الأم التي كانت قد ماتت بعد شهرين من زواجها من رسول الله. وكانت أخت أم الفضل بنت الحارث من الأم (زوج العباس بن عبد المطلب عم رسول الله) وأخت أسماء بنت عميس زوج جعفر بن أبي طالب من الأم وأخت سلمى بنت عميس أرملة حمزة بن عبد المطلب وأخت لبابة الصغرى أم خالد بن الوليد فهي خاله خالد بن الوليد، القائد الفذ الباقي على قيد الحياة لجيش قريش

لم يتبق لقريش من القادة العسكريين الأفذاذ إلا خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وعثمان بن طلحة الحجبي، وعمرو بن العاص وكلهم قد قتل آباءهم في نضالهم ضد الإسلام.

كان رسول الله قد بعث قبل الدخول لمكة بجعفر بن أبي طالب إلى ميمونة يسألها الزواج من رسول الله، وقد وكلت العباس في تزويجها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت امرأة ثيب وقد سبق لها الزواج، فزوج العباس بن عبد المطلب ميمونة لرسول الله صلى لله عليه وسلم.

أراد رسول الله بهذه الزيجة الشهامة مع أهله باستمالة قريش في أن يمتد به المقام بمكة ثلاثة أيام أخرى، حتى تلين قلوب قريش لهذا الدين الجديد بمصاهرة بيت من بيوت قريش،

شعر سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى بالخطر من هذه القوة الناعمة لدى المسلمين فاتفقا على أن يأتيا رسول الله وقالا: انقضى أجلك فاخرج عنا

قال رسول الله: ما عليكم لو تركتموني فأعرس بين أظهركم وصنعنا لكم طعاما فحضرتموه.

قالا: ليست لنا حاجة إلى طعامك فاخرج عنا!

أراد رسول الله في بادرة سلام إضافية أن يترك في نفوس قريش أثرا قد يأسرهم ويسكن خصومتهم، وهي تعد أكثر زيجة من زيجاته تتسم بشهامة تسع الجميع، فلئن لبوا دعوته وتحدثوا إليه، فلعل مكة تتقارب وتفتح قلبها وأبوابها أمام دعوته طائعة، وكان هذا هو عين ما تخشاه قريش،

لم يتردد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل فورا على رأيهما فخرج من مكة وخرج المسلمون من ورائه، وأعرس بميمونة خارج مكة بمنطقة تسمى سرف،

لما أراد رسول الله الخروج من مكة تبعتهم عمارة إبنة حمزة بن عبد المطلب تنادي (عمي، عمي) فتناولها علي بن أبي طالب فاختصم فيها مع جعفر بن أبي طالب وزيد، فقضى النبي صلى الله عليه وسلم لجعفر لأن خالتها أسماء بنت عميس تحته.

٤- إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة

عمرو بن العاص بن وائل بن هشام بن سعيد القرشي وأمه النابغة (سلمى) بنت حرملة وكان عمرة يوم إسلامه ٤٢ سنة

بعد انتصار المسلمين بخيبر وعلو شأنهم، علم عمرو بن العاص بقرب مقدم الرسول والمسلمين تنفيذا لهدنة الحديبية، وتنبأ بدخول الإسلام مكة عاجلا أو آجلا، فآثر ألا يبق في مكة، وشد الرحال إلي الحبشة عند صديقه أصحمة بن الأبجر نجاشي الحبشة، جالبا معه الهدايا، لم يكن عمرو بن العاص يعلم بإسلام النجاشي ولا بأمر الرسالة التي أرسلها له رسول الله يدعوه فيها إلى الإسلام، ولما التقى بالنجاشي عاتبه في أمر عمرو بن أمية الضمري وإرساله جعفر والمسلمين لرسول الله، فأبلغه النجاشي بأمر إسلامه قائلا عن رسول الله:

(ويحك يا عمرو! أطعه واتبعه، فإنه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنده) . ثم أردف (فبايعني له على الإسلام) فمد عمرو يده للنجاشي وبايعه على الإسلام، فكان عمرو الوحيد من الصحابة الذي بايع تابعي على الإسلام، وخرج عائدا للمدينة.

خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم وأمه لبابة الصغرى بنت الحارث بن حزن الهلالية أخت ميمونة زوج النبي وأخت لبابة الكبرى (أم الفضل) زوج العباس بن عبد المطلب وكان عمره يوم إسلامه ٢٩سنة

*****

صدق حدس رسول الله في بادرة السلام التي انتهجها تقربا من قريش، فما كان من أثر عمرة القضاء قد جعل بعض القلوب المغلقة تتفتح، وزاد من الأمر بالنسبة لخالد بن الوليد أن خالته برة (ميمونة) التي صارت أم المؤمنين قد قربته كثيرا من الإسلام، وكان أخوه الوليد بن الوليد بن المغيرة قد أسلم فلما طلب أن يرى خالدا كان قد ترك مكة تجنبا لرؤية محمد وصحبه فكتب إليه كتابا وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد فإني لم أر عجبا من ذهاب رأيك عن الإسلام وعلك ومثل الإسلام لا يجهله أحد، قد سألني رسول الله عنك فقال أين خالد، فقلت الله يأتي به فقال: ما مثله يجهل الإسلام ولو كان يجعل نكايته مع المسلمين على المشركين كان خيرا له ولقدمناه على غيره، فاستدرك يا أخي ما قد فاتك من مواطن صالحة)

فلما جاءه الكتاب سره ما قال رسول الله وزاده رغبة في الإسلام فأبلغ عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وعثمان بن طلحة ودعاهم إلى الإسلام فأبى عكرمة وصفوان ووافقه عثمان بن طلحة، فلم يطلع الفجر حتى التقيا وسارا حتى انتهيا إلى مكان اسمه الهدة في الطري إلى المدينة المنورة فوجدا عمرو بن العاص، فقال عمرو لخالد: يا أبا سليمان أين تريد؟ قال خالد: والله لقد استقام الميسم وإن هذا الرجل لنبي فأسلم، فحتى متى يا عمرو؟ فقال عمرو: وأنا والله ما جئت إلا لأسلم، ..

قدم الثلاثة للمدينة في محرم سنة ٨ هـ مايو ٦٢٩ م، وسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدومهم ولما رآهم تبسم لهم فتقدم خالد وسلم على رسول الله فرد عليه صلى الله عليه وسلم بوجه طلق فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فقال له: (الحمد لله الذي هداك، قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك إلا للخير)

فقال خالد: أدعو لي الله يا رسول الله أن يغفر لي تلك المواطن التي كنت أشهدها عليك.

فقال رسول الله (الإسلام يجب ما قبله) وتقدم عثمان وعمرو وأسلما وبإسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة نضبت قريش من قادة القتال إلا من عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، خاصة بعد زواج رسول الله من رملة بنت أبي سفيان لتحييد بن حرب

٥ ـ وصار أمر مكة أمرا محتوما

بإسلام قادة قريش العسكريين، صار أمر مكة أمرا محتوما من الناحية الاستراتيجية لولا هدنة الحديبية، إذ نزلت الآيتان التاليتان فكان اليقين بأن الإسلام سيظهر على الدين كله:

(هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا* مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) (١) [١٩]

وقد أمست قريش منذ موقعة بدر تعاني من الفراغ القيادي لا يملأه إلا رجل كرسول الله وكان وعد الله مفعولا.

٦ـ وفاة زينب بنت محمد رسول الله

موعود رسول الله صلى الله عليه وسلم بألا تصفو حياته الشخصية أبدا، فنلحظ بعد نصر بدر أن ماتت ابنته رقية، ثم ماتت زينب ابنته الكبرى عن ٣١ عاما بعد عهد الحديبية وعمرة القضاء وكانت أكبر بناته زينب بنت محمد رضي الله عنها قد هاجرت لرسول الله بصحبة زيد بن الحارثة ورجلا من الأنصار بعد شهر من بدر بعدما طلقها أبو العاص بن الربيع الذي كان من ضمن أسري بدر فاشترط رسول الله عليه إطلاق زينب ففعل على أن أبا العاص ما لبث أن عاد لرسول الله مسلما ورد رسول الله زينب إليه وقد أنجب من زينب (إمامة) حفيدة رسول الله بعد إسلامه،

كانت لهجرة زينب قصة مؤلمة إذ نخس كل من هبار بن الأسود والحويرث بن نقيذ الجمل الذي كان يقلها أثناء هجرتها للمدينة، وقد عفي النبي عن الحويرث بعد أن أهدر دماءهما لقتلهما جنينا كان في أحشاء زينب ابنة رسول الله (ظلت زينب مهدمة العافية تعاني من أثر ما فعل هبار والحويرث خاصة بعد حملها الثاني وإنجابها إمامة فماتت سنة ٩ هـ) وحزن رسول الله لفقدها، وكان الموت قد أصاب أختها قبلها كما أصاب أخويها قبل الرسالة، ولم يبق لرسول الله من أبنائه سوى أم كلثوم وفاطمة فلا جرم أن يحزن ويشتد به الجوى.

---

[19] (1) سورة الفتح ٢٨ـ ٢٩

الفصل الثالث

فتح مكة

فتح مكة

كان عهد الحديبية مقدمة لعمرة القضاء، وكانت عمرة القضاء مقدمة لتفريغ مكة من قياداتها وعناصرها المؤثرة، وكان ذلك التفريغ توطئة لفتح مكة دون قتال. فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرسخ مفهوم الإيمان في قلوب المسلمين، فشرعت زكاة المال وغيرها من التكليفات الشرعية وأراد رسول الله أن يكمل هداية من بقي على شركه من أهل المدينة، وإخراج المنافقين مما هم فيه من ضلال، وأراد كذلك إكمال هداية الأعراب

سرايا الدعوة

أرسل صلى الله عليه وسلم خمسين رجلا في ذي الحجة سنة سبع للهجرة -إبريل سنة٦٣١م إلى بني سليم ليدعوهم إلى الإسلام، ولكن حدث أن غدرت بني سليم بهم وقتلوهم أجمعين، حتى لم ينج إلا رئيسهم الأخرم بمحض المصادفة، وعاد للمدينة فأتى الرسول صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر. وأرسل الرسول خمسة عشر رجلا وعلى رأسهم كعب بن عُمير الغفاري إلى ذات الطلح (أو ذات أطلاح) في ربيع أول سنة ثمان للهجرة أغسطس من سنة ٦٣١ للميلاد، وهي على حدود الشام ومن أرضها يدعوهم إلى الإسلام دعوة كان جزاؤهم عنها القتل، ونجا أميرهم إذ جرح وفقد الوعي بين الجرحى فحسبوه ميتا، ولما كان الصبح تحامل على نفسه وعاد للمدينة وأتى الرسول صلى الله عليه وسلم فأخبره فشق عليه ذلك، وهنا كان لابد من مواصلة الجهاد فأرسل إلى فروة بن عامر الجذامي وكان عاملا للروم على من يليهم من العرب بمعان فأسلم وأهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم بغلة بيضاء ورسالة بإسلامه مع الرسول

سرايا التأديب

عاقب جماعة من بني ليث تأديبا لهم على غدر قد سبق منهم بسرية شنتهم بها. وكذلك لبني مرة ففي شعبان سنة ٧ هـ كان قد بعث ببشيربن سعد الأنصاري ومعه ثلاثون رجلا لهدايتهم فقتلوا جميعا وعاد بشير للمدينة بصعوبة، فأرسل رسول الله في صفر ٨ هـ يونيو ٦٣١ م غالب بن عبد الله الليثي في ٢٠٠ رجل إلى موضع مصاب أصحاب بشير ونجحت هذه السرية نجاحا تاما فأتت بأسرى ممن قتلوا أصحاب بشير وقتلوا من قتلوا وأصابوا نعما وشاة، ثم أعد رسول الله العدة لغزوة مؤتة

٢- غزوة مؤتة (سرية مؤتة) (١) [20]

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ذكرنا قد أرسل الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى الحارث ابن أبي شمر الغساني أمير بصرى من جهة هرقل، فلما نزل بن عمير مؤتة تعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني، وهو من أمراء قيصر على إمارة صغيرة بالشام، فقال: أين تريد؟ لعلك من رسل محمد أليس كذلك؟، قال الحارث بن عمير الأزدي: نعم، فأوثقه وضرب عنقه،

وكان رسول الله قد أرسل خمسة عشر رجلا إلى ذات الطلح وهي على حدود الشام يدعوهم إلى الإسلام دعوة كان جزاؤهم عنها القتل ففاض الكيل.

وفي جمادي الأولى سنة ثمان هجريا (أكتوبر ٦٣١ م) أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان مولاه وفي منزلة الابن زيد بن حارثة رضي الله عنه وأرضاه على رأس ثلاثة آلاف رجل وكان زيد

---

١) هي أول سرية خارج حدود الجزيرة العربية، وأول سرية يحارب فيها المسلمون جيشا مسيحيا، ولم تكن تلك الغزوة) موجهة للمسيحية كديانة بل لغادرين منهم قد غدروا، فقتل الرسل لا يجوز لا شرعا ولا عدلا، وقتال المعتدين واجب
20

قد شارك في أغلب المعارك السابقة ولكن لم يسبق له تولي قيادة جيش بهذا الحجم من قبل، وعقد رسول الله لواءا أبيضا ودفعه لزيد، وأمره أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، وكانت هذه السرية هي الأضخم من حيث عدد من تطوع فيها، تطوع الرجال وكان من بين من تطوع جعفر بن أبي طالب، وخالد بن الوليد، ويهودي كان اسمه النعمان.

وجد جعفر في نفسه فكيف لقرشي أن يؤمر بمن كان عبدا، فجعفر لم يكن قد خالط رسول الله بما يكفيه من الهدى وقال: يا رسول الله ما كنت أذهب أن تستعمل علي زيدا!

فأفهمه رسول الله فضائل الإسلام وقال موصيا الجيش:

إن أصيب زيد، فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس فإن أصيب فليرتض المسلمون رجلا من بينهم يجعلونه عليهم أميرا،

ثم وجه كلامه لزيد وجيشه قائلا: (فادعوا الناس إلى الإسلام فإن أجابوا وإلا فاستعينوا عليهم بالله وقاتلوهم. وأوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا. أغزوا باسم الله وفي سبيل الله من كفر بالله. لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا كبيرا فانيا ولا منعزلا بصومعة. ولا تقربوا نخلا ولا تقطعوا شجرات ولا تهدموا بناء)

كان كما ذكرنا من بين المتطوعين نعمان اليهودي الذي قال لرسول الله: يا محمد إن كنت قد سميت من سميت أصيبوا جميعا فإن أنبياء بني إسرائيل كانوا إذا استعملوا الرجل على قوم ثم قالوا إن أصيب فلان ففلان، ولو سموا مئة أصيبوا جميعا، كرر نعمان كلماته لزيد قائلا: إنك لا ترجع إن كان محمد نبيا! قال زيد راضيا: أشهد أنه رسول صادق بار،

مهمة انتحارية

تجهز الناس وأسرعوا في مهمة انتحارية وعسكروا بالجرف (١) [٢١] ودعهم الناس، وأتى رسول الله مودعا أكبر جيش أرسله، وأول جيش يخرج من الجزيرة العربية لحرب الروم وكان دأب رسول الله أن يحمل أقرب الناس إليه المهام الخطرة فلا يضن بأهله عن الأخطار، وودع عليه الصلاة والسلام قادة الجيش

أتى رسول الله زيد بن الحارثة وكان في الثلاثين من العمر فتذكر ذلك الطفل الأسمر الذي وهبته خديجة لرسول الله وهو بن ثمان سنين وأعتقه رسول الله وتبناه، وهو ثاني من أسلم من الذكور بعد علي بن أبي طالب ولم يكن صبيا بل في الرابعة عشر من عمره، وكان قد أرسله رسول الله في سرايا عدة إلى الجموم أصحاب بئر معونة ثم إلى العيص في حملة على أموال لعير قريش وإزاء هذا النجاح أرسله رسول الله إلى بني ثعلبة فأصاب منهم عشرين بعيرا وعاد لرسول الله ثم وللمرة الرابعة أرسله صلى الله عليه وسلم إلى وادي القرى

أما جعفر بن أبي طالب بن عم رسول الله فقد كان في السادسة والثلاثين وتذكر كل شيء جمعهما معا، كان أيضا حبه، ومن أوائل من آمنوا، هاجر هو وزوجه أسماء بنت عميس وكان سفيرا لرسول الله لدى النجاشي، ولما التقى صلى الله عليه وسلم بجعفر بن أبي طالب ومعه ستة عشر رجلا ففرح وقبله

---

[21] (موضع على ثلاثة أميال من المدينة باتجاه الشام (١

قائلا: والله ما أدري بأيهما أفرح؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر، ثم أضاف قائلا لجعفر: أشبهت خلقي وخلقتي، فرح جعفر بهذه المقولة فرقص جعفر.

فلما جاء دور عبد الله بن رواحة* لوداع الرسول صلى الله عليه وسلم بكى عبد الله، فسأله الناس: ما يبكيك؟ قال: ما بي حب الدنيا ولا صبابة بكم ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ: (وإن منكم إلا واردها، كان على ربك حتما مقضيا) (٢) [22] فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود، فقالوا له: صحبكم الله وردكم إلينا صالحين فأنشد لرسول الله:

أنت الرسول فمن يحرم نوافله (٣) [23] والوجـــه منه فقد أزرى (٤) [24] به القدر

فثبت الله ما آتاك مـــــن حسن في المرسلين ونصرا كالذي نصروا

إني تفرست فيك الخير نافلـــــه فراسة خالفت فيها الذي نظـــــروا

وخرج الجيش وسار حتى بلغ معان (جنوب الأردن) من أرض الشام

على الجانب الآخر، كان قد بلغ هرقل ما فعله شرحبيل بن عمرو الغساني، الذي استنفر نصارى العرب ونصارى الروم، كان هرقل قد علم بردود فعل رسول الله من جراء الغدر به فأنزل ثيودور أخيه إلى موآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم والإغريق، ومائة ألف من العرب المتنصرة من لخم وجذام والقين وبهراء وبلى كان على العرب المتنصرة مالك بن زافلة، ومن قادة جيش الروم فروة بن عمرو الجذامي وكان عاملا لهرقل على إحدى المقاطعات وبلغت أنباء هذه الحشود جيش زيد.

أقام المسلمون بمعان ليلتين ينظرون في أمر هذا الحشد الرهيب، فارتعبوا وقالوا نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نخبره الخبر، وننتظر أمره، وكادوا أن يفعلوه لولا أن شعر الشاعر الحالم عبد الله بن رواحة بأن في هذا التردد ضعفا فقال بروح حماسة الشاعر

(يا قوم، والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون، إنها الشهادة، وما نقاتل بعدد ولا قوة، ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين، فانطلقوا فما هي إلا إحدى الحسنيين)

كانت الكلمات صادقة وكذلك مشاعر الإيمان ولكن على الجانب الآخر كانت النتائج وخيمة وتشجع الناس وقالوا: صدق والله، وامتدت الحماسة إلى الجيش كله

والحقيقة تفرض نفسها على هذا الموقف، فالميتافيزيقية والروحانية لا ينبغي أن تتجاهل الواقعية والحذر، فلم نر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا محتاطا، فلا يرسل زيدا بن الحارثة قبل أن يختبره، وكلنا نعلم أن الله جل وعلا لما أنزل في سورة الأنفال:

---

[22] ٢) مريم - ٧١)

[23] ٣) عطاياه)

[24] قصر به (4)

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ، إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ، وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ (١)

ولما شق على المسلمين أن يتصوروا أن أمام الرجل عشرة رجال أنزل سبحانه وتعالى:

(ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا، فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ، وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ، وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ) (٢) [٢٥]

فقد كان عدد جنود العدو يفوق ستين مثلا للمسلمين في مؤتة وهناك حدود إذن قد وضعها المولى ولا يصح دفع المسلمين للانتحار العسكري والمعنوي، كما أن الاقتراح بطلب المدد من رسول الله كان اقتراحا تحتمه الاستراتيجية العسكرية والمنطق الإنساني ويتماشى مع أمر الله (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون بها عدو الله وعدوكم) وفي اليوم الأول من القتال استشهد قادة الجيش قطبة بن قتادة العذري وزيد بن الحارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة

حينما ساروا، تلقتهم جموع الروم بقرية بالبلقاء يقال لها مشارف، فانحاز المسلمون إلى قرية مؤتة، وبدأ القتال وكان على ميمنة المسلمين قطبة بن قتادة العذري، وعلى الميسرة عبادة بن مالك وفي القلب زيد بن الحارثة يحمل راية رسول الله فاقتتلوا قتالا شديدا واستمر القتال فقتل مالك بن زلافة قائد العرب المتنصرة قطبة بن قتادة العذري، واستمر القتال فجاهد زيد جهادا مريرا فأصابته رماح العدو فمات شهيدا، فاستلم جعفر بن أبي طالب الراية وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقتــرابها طيبة وباردا شـــرابها ، الروم روم قد دنا عذابها علي إذ لاقيتها ضرابها.

قاتل جعفر وهو على فرسه الشقراء فأحاط به العدو فخاف إن هو استشهد في القتال تأخذها الروم وتحارب المسلمين بها فعقرها (وهو أول من عقر فرسه في الإسلام) وقاتل قتالا شديدا فقطعت يمينه فأخذ اللواء بيساره فقطعت، فاحتضنه حتى قتل. فاستلم اللواء عبد الله بن رواحة وتقدم به على فرسه فتردد قليلا ثم خاطب نفسه قائلا:

أقسمت يا نفس لتنزلنــــــــــه طـــــائعة أو لتكرهنــــة

إذ أجلب الناس وشدوا الرنـــة ما لي أراك تكرهين الجنة

قد طال ما كنت مطمئنــــه هل أنت إلا نطفة في شنة

ثم نزل من على فرسه فقاتل حتى قتل،

وهكذا قاتل الأمراء الثلاثة على أرجلهم واستشهدوا مع من استشهد من القادة والجنود. وبعد استشهاد عبد الله بن رواحة انهزم المسلمون حتى لم ير اثنان جميعا.

[25] ١) الانفال ٦٥ (٢) الأنفال ٦٦)

خالد بن الوليد وخطة الانسحاب

اشتد على المسلمين الأمر وأخذ الراية ثابت بن أرقم العجلاني البلوي وكان من أهل بدر فقال يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، فقالوا: أنت، قال ما أنا بفاعل، فاصطلح المسلمون على خالد بن الوليد.

لم يكن قد مضى على إسلام خالد بن الوليد ثلاثة أشهر فأخذ الراية، ودار بالجند الذين معه حول جموع المسلمين المتناثرة وجمع شمل الجنود فحارب بشراسة وتحطمت في يده تسعة أسياف وقتل من الروم مقتلة كثيرة، حتى أن جند الروم والقادة منهم تحاشوا الاقتراب منه، واستلهم الجند مهارة خالد فقتلوا من العدو عددا كبيرا، فتحاشى الروم قتالهم وكان خالد بن الوليد معروفا بالدهاء الحربي من القبائل العربية المتنصرة، ولاحظ في الأيام الأربعة الأولى أنه يواجه نفس الجند من العدو في كل لقاء وأنهم يواجهون نفس وجوه جند المسلمين فأراد أن يعط انطباعا بورود مدد للمسلمين، وقد كانت تلك أول مرة يحارب فيها هذا القائد الفذ مع المسلمين وليس ضدهم، واستغل القائد الفذ هذا الخوف في إنقاذ جنده.

كان القتال في ذلك الزمان يدور نهارا ويتوقف ليلا، فكر خالد في يومه الخامس لقيادته والسادس لتلك الغزوة أن يضع خطة للانسحاب، فأمر أن يثير بعض من الفرسان - الغير أكفاء في القتال - الغبار خلف خطوط المسلمين ووزعهم في خط طويل فيثيرون جلبة وضجيجا وغبارا فيظن الروم أن مددا قد أتى المسلمين.

في اليوم السابع من معركة مؤتة انتظر خالد حتى نزل الليل، فاستبدل خالد بن الوليد الميمنة بالميسرة واستبدل المقدمة بالمؤخرة من جيشه، ولم يقدم على قتال طوال اليوم فظن الروم أن المدد أمامهم، وأن تروي خالد في القتال كان يخفي خطة، فصبروا حتى اليوم التالي، وخلال ذلك دفن المسلمون قتلاهم، فدفن القادة الثلاثة زيد وجعفر وبن رواحة في قبر واحد، وقد كان مجموع من استشهد اثني عشر شهيدا ماتوا في اليوم الأول وكانت مدة القتال سبعة أيام.

استمر جند المؤخرة في إثارة الرمال بحوافر الجند على أن يعطوا انطباعا بتعديل تمركز القوات، ودفع خالد الجيش وحاشى بهم ثم انحاز، فانحيز عنه خوفا منه، وتقاعسوا عنه وسروا بعدم مهاجمته إياهم، فإن كان ثلاثة آلاف قد فعلوا بالروم في ستة أيام الأفاعيل فكيف سيفعلون بهم بعد هذا المدد، ومن هم المدد الذي قد أتاه، وما عدد جند المدد وما هي الخطة التي قد يكون خالد أعدها،

في حقيقة الأمر كان انحياز رجاله انسحبا لم يدركه العدو، ولما جاء صباح اليوم التالي إذ بجيش المسلمين قد ابتعد أميالا منسحبا، وعاد بهم للمدينة المنورة، ففرح جند العدو بانسحاب خالد وعادوا يحمدون ربهم.

في غمرة فرحة الروم بانسحاب المسلمين تمكن الإعجاب بالمسلمين من أحد قادة جيش الروم وهو فروة بن عمرو الجذامي وكان عاملا لهرقل على إحدى المقاطعات، وكان قد أسلم من قبل ولكنه أشهر إسلامه للروم بعد انسحاب المسلمين، فقبض عليه هرقل وأنبه على إسلامه طالبا منه العودة للمسيحية، ولما رفض واستمسك بالإسلام صلبوه على ماء لهم، فازداد الإسلام انتشارا في تخوم الشام.

في اليوم الأول من القتال، أخبر جبريل محمدا بما حدث لقادة الجيش ولجعفر حينما قتل شهيدا فذهب إلى زوج جعفر بن أبي طالب واسمها أسماء بنت عميس فأخذ أولاد جعفر (عبد الله ومحمد وعون)

وشمهم، ودمعت عيناه فقالت أسماء: يا رسول الله أبلغك عن جعفر شيء؟ قال (نعم أصيب هذا اليوم) وازدادت عيناه بالدمع تهتانا، فقامت أسماء تصيح..

عاد رسول الله إلى أهله فأمرهم أن يصنعوا لأهل جعفر طعاما وهو أصل طعام التعزية ويسمى (الوضيمة)

ذهب رسول الله للمسجد فنادى في الناس الصلاة جامعة ثم صعد عليه الصلاة والسلام للمنبر وقال:

(أيها الناس، باب خير، باب خير، أخبركم عن جيشكم هذا الغازي أنهم انطلقوا فلقوا العدو فقتل زيد شهيدا فاستغفروا له، ثم أخذ الراية جعفر فشد على القوم حتى قتل شهيدا فاستغفروا له، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة وأثبت قدميه حتى قتل شهيدا فاستغفروا له، ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء وهو أمر نفسه ولكنه سيف من سيوف الله فآب بنصره)

كيف اعتبرت مؤتة باب خير وإياب خالد نصرا

تكمن أبواب الخير في عدة أوجه، فإن انسحاب خالد (هزيمته) بجيش المسلمين البالغ عدده ٣,٠٠٠ مقاتل وبهذا العدد القليل من الخسائر - ١٢ شهيدا فقط - يمثلون (أي ٠,٤%) أربعة في الألف - من عدد المقاتلين وبعد ٧ أيام من القتال أمام جنود الإمبراطورية الرومانية والذي يبلغ تعداد جنودها في المعركة أكثر من ٢٠٠,٠٠٠جندي (أي ٧٠ ضعفا) خاضوا حروبا ضارية أمام جبروت الفرس هي شهادة كفاءة وهو باب خير.

- باب الخير يكمن في كسر الحاجز النفسي الراسخ في قلوب العرب وجند المسلمين من قتال جيوش منظمة عالية الكفاءة والتسليح والخبرة، والخروج من نطاق جيوش القبائل الهمجية والبدائية، كمن أيضا في أهمية تلك الغزوة في موازين القوه والرهبة.
- اكتشاف المسلمين لقدرات خالد بن الوليد كقائد عسكري فذ في الميزان العسكري كباب من أبواب الخير
- اكتشاف خالد بن الوليد لقدراته مع جيوش إمبراطورية هو أيضا باب من أبواب الخير وكذلك عودة أغلب المقاتلين بعد اكتسابهم الخبرات القتالية مع جيوش الإمبراطورية الرومانية أكثر أبواب الخير
- ومن أبواب الخير أن دخل الإسلام بعد مؤتة وبعد صلب فروة بن عمرو الجذامي القبائل التي تاخمت مؤتة مثل قبيلة سليم وعلى رأسهم العباس بن مرداس وقوم من أشجع وغطفان وعبس وذبيان وفزارة التي ساندت جيش المسلمين في فتح مكة بعدها بأشهر، وكذلك القبائل النجدية المتاخمة للعراق والشام وقت أن كان نفوذ روما في ذروته.

الحقائق السالفة لم يفطن إليها إلا رسول الله، ولذلك فرغم الألم لفقدان أحباؤه زيد وأسامة وابن رواحة، فقد كسب الإسلام تلك الحقائق. ومن لم يفهم أن الهزيمة قد فتحت أبواب الخير ونصرة كانوا:

- أهل المدينة.
- القبائل.
- قريش

أ- أهل المدينة

لما عاد الجيش إلى المدينة صار أهل المدينة يلقون عليهم الشتائم لفرارهم من القتال يحثون عليهم التراب ويصيحون بهم (أنتم الفرارون) ورسول الله صلى الله عليه سلم يقول (بل هم الكرارون بإذن الله) فلم يكن رسول الله يترك حق الله أبدا، وكانت بعثة أسامة بن زيد - وكان في الخامسة عشر من عمره - قد اختمرت، ولا ينتظر إلا أن يكبر ويقود جيش المسلمين انتقاما.

لقي جند زيد رغم قول رسول الله شرا حتى أن الرجل كان يجيء إلى أهل بيته فيدق عليهم الباب فيأبون أن يفتحوا له ويقولون: هلا تقدمت في الحرب مع أصحابك فقتلت، فجعل رسول الله يرسل إليهم رجلا رجلا حتى سامحهم الناس.

ب- القبائل

لم يكن ذلك الفهم القاصر محصورا في المدينة المنورة بل امتد إلى قبيلة بلي من قضاعة التي تجرأت على المسلمين فلاقت عقابا رادعا.

ج- قريش

قريش نفسها قد حسبت أن هزيمة جيش المسلمين في مؤتة قد قضت على سلطان المسلمين حتى لم يعد يبق إنسان يأبه لهم أو يقيم لعهودهم وزنا فعلام احترام العهد معهم إذا! ولتعد الأمور كما كانت قبل عمرة القضاء، بل وقبل عهد الحديبية، ولماذا لا تعد قريش حربا جديدة تشنها على المسلمين ومن هم في عهدهم، دون أن تخشى من محمد ومن جيشه.

كانت خزاعة حليفة المسلمين هي المرشحة للغدر بها، وبدأ الموتورون من مكة مثل عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وحويطب بن عبد العزى، وشيبة بن عثمان، وسهيل بن عمرو يبحثون عن فرصة.

٣- سرية ذات السُلاسل

كانت غزوة مؤتة في جمادي الأولى ٨ هـ، وكان منها ما كان، وأسماها رسول الله باب خير إذ قد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قضاعة وكانت على تخوم الشام قد تجمعت للإغارة على المسلمين منتهزين فرصة انهزامهم في مؤتة، وبعد شهر واحد في جمادي الآخرة ٨ هـ - أكتوبر ٦٢٩ م جاء دور عمرو بن العاص فأرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بلاد بلي وهي من قضاعة - وهي أيضا إحدى القبائل المشتركة في مؤتة - في ٣٠٠ جندي من المهاجرين والأنصار ومعهم ٣٠ فارسا.

سار عمرو ومن معه ليلا وكمن نهارا فلما دنا من مكانهم ويقع قريبا من ماء يسمي السُلسل وراء وادي القرى، بلغه أن جموع العدو كثيرة، فأرسل رافع بن مكيث الجهني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمده، فبعث إليه بخيرة الرجال من ٢٠٠ رجل فيهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وجعل على رأسهم أبا عبيدة بن الجراح وعقد له لواء وأمره أن يلحق بعمرو بن العاص وأن يكونوا جميعا وأوصاه ألا يختلفا، فأراد أبو عبيدة بن الجراح أن يتول القيادة، فقال عمرو بن العاص: إنما أنت قدمت علي مددا وأنا الأمير

قال أبو عبيدة: لا ولكن أنا على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه

خشي أبو عبيدة بن الجراح أن تصيب قيادة عمرو بن العاص لكبار الصحابة كأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب مرارة فقال ما قال ولكنه راجع نفسه لما رأى من عمرو إصرارا واستعدادا للخلاف وكان بن الجراح سهلا لينا عليه أمر الدنيا فقال:

يا عمرو إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي لا تختلفا، وإنك إن عصيتني أطعتك.

كان عمرو بن العاص الداهية يريد أن يثبت لرسول الله أنه أهل للقيادة، وأنه يقل كفاءة عن خالد الذي جاءته الفرصة في مؤتة، وشعر بالفخار أن أمره رسول الله ليس على سرية كبيرة فحسب وإنما على أبي عبيدة وأبي بكر وعمر، فأحس أن رسول الله قد فضله عليهم، فأجاد في عمله وسار حتى وصل للعدو وحمل عليهم ففروا وتفرقوا مذعورين وغنم المسلمون الغنائم، وأرسل عمرو بن العاص رسولا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ينبئه بانتصاره في أول غزوة له معززا نفوذ الإسلام على تخوم الشام.

من فوره أتى عمرو بن العاص لرسول الله فسأله: أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة

قال: ومن الرجال، قال رسول الله: أبوها قال: ثم من، قال: عمر بن الخطاب. ثم عد رسول الله رجالا، فسكت عمرو بن العاص مخافة أن يجعله رسول الله آخرهم!

٤ ـ نقض هدنة الحديبية

لم تتعظ قريش وظنت أن ذات السلاسل لا تدل على شيء، فتطوعت وأعطت بابا للخير بل هو أعظم الأبواب قاطبة وأعطت النصر، إذ بعد أشهر قليلة من سرية عمرو بن العاص ذات السُلاسل وفي شعبان ٨ هـ ديسمبر ٦٢٩ م اغتنم بنو بكر الفرصة.

كان عهد الحديبية يقضي بأنه من أحب أن يدخل في عهد رسول الله فليدخل، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش فليدخل، كانت خزاعة حليفة لجد رسول الله عبد المطلب وكان فيهم إسلاما فجاءت خزاعة يوم الحديبية بكتاب جده عبد المطلب وأقرهم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كان بين بني بكر وبين خزاعة حروب وقتلى وثارات في الجاهلية، فلما دخلت خزاعة عهد رسول الله دخلت بنو بكر من فورها في عهد قريش، وبعد هزيمة مؤتة وبإيعاز من الحاقدين الموتورين (عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية، وحويطب بن عبد العزى، وشيبة بن عثمان، وسهيل بن عمرو) استعادت بنو نفاثة (وهم بطن من بطون بني بكر) الثقة في أخذ ثأرا كان لها من خزاعة في الجاهلية، فطلبت من أشراف قريش أن يعينوهم بالرجال والسلاح على خزاعة فأمدهم الموتورون من قريش بالسلاح والرجال.

في يوم جاء بنو نفاثة (من بني الديل من بني بكربن عبد مناة) على ماء لخزاعة ليلا يقال له الوتير وبعض من خزاعة نائمون وآخرون ساجدون في الصلاة وقتلوا منهم ثلاثة وعشرين رجلا وقاتل معهم محرضوهم من قريش، ففر الرجال من خزاعة فطاردوهم بمكة حتى لاذوا بالكعبة فلما حدث ذلك قالت بنو بكر لبنو نفاثة يناشدون قائدهم نوفل بن معاوية الديلي:

يا نوفل، إنا قد دخلنا الحرم، إلهك، إلهك

قال نوفل: لا إله اليوم يا بني بكر، أصيبوا ثأركم، فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم. أفلا تصيبون ثأركم؟

واستمرت المطاردة حتى لجأت خزاعة إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعي بمكة، وإلى دار مولى لهم يقال له رافع. وجاء الحارث بن هشام إلى أبي سفيان بن حرب فأخبره بما فعل القوم فقال متنصلا:

(هذا أمر لم أشهده ولم أغب عنه، وإنه لشر، والله ليغزونا محمد، ولقد حدثتني هند بنت عتبة أنها رأت رؤيا كرهتها إذ رأت دما أقبل من الحجون يسيل حتى وقف بالخندمة)

فتطير القوم من كلمات بن حرب،

النصرة، النصرة

استعد بديل للخروج إلى رسول الله للنصرة، ولكن عمرو بن سالم الخزاعي (سيد خزاعة) قد سبقه فقدم على رسول الله من فوره في وفد قبلي من خزاعة من أربعين راكبا، وكان الرسول جالسا في المسجد بين ظهراني الناس،

وقف عمرو بن سالم الخزاعي فأنشد

يا رب إني أنــاشـــد محــمدا حــلف أبينـا وأبيـــه الأتـــلدا

قد كــنــت ولــدا وكنــا والـــدا ثمــت أسـلمنـا فلم نــنــزع يدا

فانصــرهداك الله نــصرا أعتدا وادع عبـــاد الله يـــأتــوا مـــددا

فيهـم رســـــول الله قد تــجردا إن ســـيم خســفا وجــهه تربدا

في فيــلق كالبحر يجري مزبدا إن قريشــــا أخـــلفوك الموعدا

نــقـضــوا ميثاقـك المـــؤكـدا وجـــعلـوا لـــي فـــي كداء رصدا

وزعموا أن لست أدعوا أحـدا وهـــــم أذل وأقـــــــل عـــــددا

هم بـــيتـــونا بالوتيـــر هجـــدا وقتـــــلونا ركـــــعا وســـــــجدا

قام رسول الله غاضبا من مجلسه رغم أن الأنباء كانت قد أتته من قبل وقد دمعت عيناه صلى الله عليه وسلم وهو يجر رداءه فقال في حسم وحزم:

نصرت يا عمرو بن سالم، لا نصرت إن لم أنصركم بما أنصر به نفسي وأهل بيتي، ارجعوا وتفرقوا في الأودية

قال رسول الله مقولته الأخيرة بعدما علم تفاصيل ما حدث، وقال ذلك قاله حتى يخفي مجيء خزاعة بغية مفاجأة قريش بالحشد، فخرجوا متفرقين في الأودية عملا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي هذه الأثناء خرج بديل بن ورقاء في نفر آخر من خزاعة فقدموا رسول الله فقال لهم: يا لبيكم

وعلموا بما ما قال للوفد الذي سبقه، فعادوا أدراجهم لمكة،

في طريق عودة بديل بن ورقاء، التقى بأبي سفيان بن حرب بعسفان فقال له أبو سفيان مستفسرا: من أين أقبلت يا بديل؟ قال ديل: ذهبت لخزاعة في هذا الساحل (ساحل البحر الأحمر) في بطن الوادي

لكن أبا سفيان شك في أن يكون قد أتى من عند رسول الله فأبرك راحلته وأخ بعرها ففته فرأى فيه النوى فقال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمدا،

قبل ورود عمرو بن سالم وبديل بن ورقاء بثلاثة أيام، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر عائشة أن تجهزه، ولا يعلم أحد، فقد بلغ رسول الله الخبر من السماء (١) [٢٦]

وعلى الفور بعد ورود الأنباء من عمرو وبديل بن ورقاء أعد رسول الله صلى الله عليه وسلم عدته لنصرة خزاعة بأن تكتم أمر خروجه

سرية أبي قتادة بن ربعي للتمويه

وعلى الفور أيضا أرسل رسول الله سرية قوامها ثمانية رجال تحت قيادة أبي قتادة بن ربعي إلى بطن أضم فيما بين ذي خشب وذي المروة على ثلاثة برد من المدينة ليظن الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم متوجه إلى تلك الناحية، ولتذهب الأخبار بذلك، وواصلت هذه السرية سيرها وما أن وصلت حيثما أمرت بلغها أن رسول الله قد خرج لمكة فسارت إليه حتى لحقته (٢) [٢٧]

تشاور رسول الله مع أبي بكر وعمر فأشار أبو بكر إلى عدم السير قائلا: هم قومك يا رسول الله، أما عمر فقال: نعم سر فهم رأس الكفر زعموا أنك ساحر وأنك كذاب، وأيم الله لا تذل العرب حتى تذل أهل مكة، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القبائل التي دخلت الإسلام (سليم، وتميم، غفار، أسلم، أسد، قيس، كعب، مزينة، جهينة، أشجع، جماعة من بكر قد أسلموا) وأمرهم بالتواجد في المدينة في رمضان وقال (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة)

وفي طريقهم للحاق به كان رسول الله قد انتهى من حشد الحشود لفتح مكة. وكان يخشى العيون فقال:

اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها

أمر رسول الله بأن يوقف المسلمون بكل طريق جماعة ليعرف من يمر بها وقال لهم: لا تدعوا أحدا يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه

التخابر مع العدو والخيانة العظمى وفضل أهل بدر

لما علم الناس بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم، كتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش كتابا، يخبرهم فيه بمسيرة رسول الله وجيش المسلمين ودفعه إلى سارة – مولاة لبني عبد المطلب وهي إحدى سبايا اليهود أو كانت امرأة من مزينة اسمها كنود – استأجرها بعشرة دنانير وكساها بردا وقال لها اخفيه ما استطعت ولا تمري على الطريق فإن عليه حراسا، فجعلت الكتب في ضفائر رأسها ثم

[26] ١) الطبري)
هذه السرية لقيت عامر بن الأضبط، فسلم عامر عليهم بتحية الإسلام، فقتله ملحم بن جثامة لشيء كان بينهما، وأخذ بعيره ومتاعه، فأنزل الله جل وعلا الآية ٩٤ من سورة النساء (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) فلما قدم محلم بين يدي رسول الله قال لمحلم: اللهم لا تغفر لمحلم وقالها ثلاثا – زاد العاد
[27] ١٥٠\٢& اب هشام ٢ظ ٦٢٦، ٧٢٧، ٧٢٨

خرجت وسلكت طريق غير الطريق، فأتى رسول الله الخبر من السماء استجابة من الله تعالى لدعوة نبيه فبعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ودله على الطريق الذي سلكته سارة، وأمرهم بأخذ الخطاب منها وإخلاء سبيلها.

خرج علي والزبير وأدركا المرأة بالحليفة فأنزلاها، وفتشا رحلها فلم يجدا شيئا فقال علي:

ما كذب رسول الله ولا كذبنا ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك

لما رأت المرأة الجد في نبرة علي كرم الله وجهه قالت: أعرض، فأعرض وأتت بالكتاب من ضفائر شعرها ودفعته لعلي فأتى به رسول الله وقرأه له فكان في كتابه:

(من حاطب بن أبي بلتعة إلى سهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية، أما بعد يا معشر قريش فإن رسول الله جاءكم بجيش يسير كالسيل فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله عليكم وأنجز له وعده فانظروا لأنفسكم والسلام)

أحضر رسول الله حاطبا وسأله (ما حملك على هذا) قال حاطب: والله إني لمؤمن بالله ورسوله، ما بدلت وما غيرت، ولكن لي بين أظهرهم أهل وولد وليس لي عشيرة فصنعتهم عليهم! ما كان هذا عذرا مقبولا لأحد، فلو أن الأمر كذلك لخان الأمانة كل ذي أهل بمكة وما انتصر أحد لله، غضب عمر وقال: دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فإنه قد نافق، فقال رسول الله (ما يدريك يا عمر، لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)

كان حاطب بن أبي بلتعة من المجاهدين الأولين، حضر بدر وكان موضع ثقة رسول الله إلى الحد أنه كان رسول نبي الله إلى المقوقس! فكيف له هذه السقطة؟

إنها النفس الأمارة بالسوء قد زينت له أن تكون له يد بيضاء على أهل مكة وكان قد أنزل الله تعالى

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ) (١) [٢٨]

سفارة أبو سفيان بن حرب لرسول الله

أبو سفيان بن حرب بن أمية آخر عقلاء المشركين في مكة الباقي على قيد الحياة، كان يدرك حجم الكارثة التي وقعت فيها قريش، فلا شك أن ما فعلت قريش وحلفاؤها كان غدرا محضا ورسول الله لا يغدر ولا يقبل الغدر، وكان نقضا صريحا لعهد هدنة الحديبية لم يكن له ما يبرره، وقريش قد عدمت أو كادت أن تعدم القوة والقيادة العسكرية، وعدمت أيضا بفعلتها المصداقية أمام العرب وأمام نفسها، وقدروا ما عرضهم له عكرمة ومن معه من الشبان من خطر فسلطان محمد في العرب يزداد قوة وبأسا وانتقامه لما حدث لخزاعة يعرض مكة لأشد الخطر، وفي هذا الخضم كان حكماء قريش قد أوفدوا أبا سفيان بن حرب لرسول الله وهو الذي أرسل لرسول الله خطابا بالتهديد منذ السنة الأولى للهجرة يقول فيها (نريد منك نصف نخل المدينة، فإن أجبتنا إلى ذلك وإلا فأبشر بخراب الديار وقلع

---

[28] الممتحنة الآية١ (1)

الآثار) جاء أبو سفيان ليجدد العهد ويزيد في المدة وقد خافوا نتاج ما صنعوا، وقبل وصوله المدينة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كأني بأبي سفيان قد جاء ليجدد الهدنة خوفا ويزيد المدة

وصدقت فراسة رسول الله إذ وصل أبو سفيان المدينة فآثر أن يدخل على ابنته أم حبيبة (رملة بنت أبي سفيان) زوج النبي صلى الله عليه وسلم ليجس نبض الأحوال قبل لقاء النبي، فلما أراد أن يجلس على الفراش طوته عنه، فقال: أرغبت به عني أم رغبت بي عنه؟

قالت: بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت رجل مشرك نجس..

فقال: والله لقد أصابك بعدي شر.

قالت: بل هداني الله تعالى للإسلام وأنت تعبد حجرا لا يسمع ولا يبصر، وا عجبا منك يا أبت وأنت سيد قريش وكبيرها

ثار أبو سفيان فقال غاضبا: أنا أترك ما كان يعبد آبائي وأتبع دين محمد، وخرج من بيت ابنته غاضبا

توجه أبو سفيان لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه في العهد وإطالة المدة، فلم يرد عليه وأشاح وجهه عنه صلى الله عليه وسلم. فكلم أبا بكر ليتوسط له عند رسول الله فقال له أبو بكر ينهره (ما أنا بفاعل)

ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال له ينهره (أنا أشفع لكم إلى رسول الله؟ فوالله لو لم آخذ إلا الذر لجاهدتكم)

فخرج ودخل على علي بن أبي طالب وعنده فاطمة ابنة رسول الله والحسن بين يديها غلام في الخامسة من عمره فقال: يا علي إنك أمس القوم بي رحما وأقربهم مني قرابة، وقد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا، اشفع لنا إلى محمد.

قال علي رضي الله عنه ينهره: ويحك يا أبا سفيان والله لقد عزم رسول الله على أمر لا نستطيع أن نكلمه فيه

فالتفت إلى فاطمة فقال: يا ابنة محمد هل لك أن تأمري بُنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟

قالت: والله ما بلغ بني ذلك أن يجير بين الناس وما يجير على رسول الله أحد

فقال لعلي بن أبي طالب: يا أبا الحسن إني أرى الأمر قد اشتد علي فانصحني،

فقال رضي الله عنه: والله ما أعلم شيئا يغني عنك شيئا، لكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك وما أظن ذلك مغنيا عنك، ولكن لا أجد لك غيره،

في صباح اليوم التالي (١٠ رمضان) ذهب أبو سفيان إلى المسجد وهنا أعلن أنه أجار بين الناس بمكة ثم ركب سيد بني كنانة واعتلى راحلته وانطلق ذاهبا إلى مكة وقلبه يفيض أسى مما لاقاه من هوان على يد كل الناس وعلى رأسهم ابنته، وكلهم كانوا منذ عشرة أعوام يرتجون نظرة عطف منه أو

رضا، ولما وصل مكة اجتمع بالقوم وقص عليهم ما لاقاه، فقال لهم أنه أتى محمدا فكلمه وما رد عليه، ثم جاء ابن أبي قحافة فلم يجد فيه خيرا، ثم جاء عمر فوجده أدنى العدو، ثم جاء عليا فأشار عليه وأبلغهم بأنه قد أجار أهل مكة وأن محمدا لم يجز جواره.

قال قومه: (ويلك! والله ما إن زاد الرجل على أن لعب بك) وعادوا يتشاورون

٥- فتـــح مـكـــة

في طريق ذهاب بن حرب لمكة، رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يترك لقريش الفرصة حتى يتجهزوا، فبعث بمن يشيع في الناس أنه يريد قريشا، وقائل يقول أن رسول الله يريد هوازن وقائل يقول بل يريد ثقيفا (١) ذلك على الرغم من ثقته بقدرته القتالية، لكنه صلى الله عليه وسلم أراد أن يبغت القوم في غرة منهم فلا يجدون له دفعا فيسلموا دون أن تراق الدماء فيصبح فتحا لا قتال فيه بدلا من الغزو، ولا تكون له ضحايا يأمل في إسلامهم فهم الأهل والعشيرة. ولعشر خلون من رمضان سنة ٨ هـ (أول يناير سنة ٦٣٠ م) عصرا، بعد سويعات من خروج بن حرب غادر رسول الله مع الجيش وهو صائم متجها لمكة واستخلف على المدينة أبا رهم الغفاري، وأمر الرسول بالإسراع في التجهز وكان قد دخل الإسلام ألوفا من سُليم وعلى رأسهم العباس بن مرداس ومن مزينة وأشجع وغطفان الذين كانوا حلفاء اليهود وقريش في مؤامرة الخندق، وكانت كذلك ألوف أخرى، ثم من عبس وذبيان ومن فزارة الألوف أيضا فتحركوا، وأغد هؤلاء السير حتى كانوا إذا ضربوا خيامهم بالكديد، واكتست رمال الصحراء بهم فما يكاد يبدو منها للناظر شيء، وكلما تقدموا انضم إليهم من سائر القبائل وكلهم ممتلئ النفس بالإيمان، وكانت قريش لا تزال في نقاشها ومشاوراتها حينما بلغ هذا الحشد الذي زاد على العشرة آلاف رجل بمر الظهران على مقربة من مكة. في أثناء مشاورات قريش قرر العباس بن عبد المطلب الذي يخفي إسلامه أن يتركهم في جدلهم وينضم للمسلمين الذين آمن بدينهم، فخرج مع بعض من أهله حتى لقي رسول الله ابن أخيه بمنطقة تسمى الجحفة، وقد استنتج أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن عم النبي وأخوه من الرضاع من حليمة السعدية، وكان مع أبي سفيان ولداه جعفر وعبد الله، وجاء أيضا عبد الله بن أمية بن المغيرة بن عمته عاتكة بنت عبد المطلب وهو أخو أم سلمة لأبيها فرافقاه حتى اتصلا بالجيش بنيق العقاب، واستأذنا على النبي صلى الله عليه وسلم، فرفض أن يأذن لهما، تدخلت أم المؤمنين أم سلمة تستعطفه (لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك) فرفض رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا: لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فقد أصابني منه سوء (٢) أما ابن عمتي وصهري فقد قال بمكة ما قال (٣) [29] قال أبو سفيان: والله ليؤذنن لي أو لآخذن بيد بني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشا وجوعا، فرق الرسول ف أذن لهما فدخلا عليه فأسلما.. ولما نزل الجيش بمر الظهران (بوادي فاطمة) وقت صلاة العشاء، كانت القبائل قد لحقت به فنزل الجيش في عشرة آلاف مقاتل من المسلمين (ألفان منهم من المهاجرين والأنصار) وأمر رسول الله فأوقدوا النيران، وقد أفطر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفطر المسلمون معه وكان آخر يوم يصومون فيه هذا الشهر بأمر رسول الله، وكان معه من زوجاته أم سلمة وميمونة رضي الله عنهما، ولايزال رسول الله والمسلمون معه على إفطارهم حتى انسلخ الشهر

---

[29] (١) الواقدي (٢) كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم الرسول شاعرا هاجم الرسول بشعره وهو في مكة وكان شديد الشبه برسول الله، وبعد إسلامه أحبه رسول الله إذ حسن إسلامه وما رفع وجهه لرسول الله حياء مما فعله، بشره رسول الله بالجنة وكان يقول: أرجو أن يكون خلفا من حمزة وحينما مات قال: لا تبكوا علي، فو الله ما نطقت بخطيئة منذ أسلمت (زاد المعاد ٢\١٦٢، ١٦٣) (٣) هو الذي قال لرسول الله والله (لا آمنت بك حتى تتخذ سلما إلى السماء فتعرج فيه وأنا أنظر إليك ثم تأتي بصك وأربعة من الملائكة يشهدون أن الله أرسلك ولئن فعلت لا أصدقك) – عد للجزء الثاني

وعميت الأخبار عن قريش حتى هذه اللحظة فلا يأتيهم خبر عن رسول الله ولا يدرون ما هو بفاعل، فأدركه عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مسلمين *[٣٠]

العباس بن عبد المطلب يلحق برسول الله

كان العباس بن عبد الطلب ممن نأوا عن رسول الله ونهوا عنه بشهامة آل هاشم، شأنه شأن كل آل هاشم ومنهم الشهيد حمزة بن عبد المطلب قبل إسلامه، ومن شهامة العباس أن حضر بيعة العقبة الثانية وأصر على أن يأمن على حياة بن أخيه دون أن يؤمن به، ولما شارك أعمامه وأبناء أعمامه في حرب رسول الله ببدر آمن وهو في الأسر كما ذكرنا آنفا وأخفى إسلامه عن قريش، وهو الذي كان قد حذر رسول الله قبل غزوة الخندق، فكان لا يزال نائيا عن رسول الله جغرافيا، وناهيا عنه في أوقات الخطر عمليا، كان قد آمن ولكنه كان لا يزال مستمسكا بأهداب قريش ولم يكن قد تعلم شيئا من هذا الدين بعد، ولما وصل العباس رأى من جيش المسلمين ما أزعجه وأخافه على أهل مكة من هذا الجيش، فأهله وخلانه والأصدقاء من المشركين في خطر لم يقطع الإسلام الذي آمن به من حبه لهم وخوفه عليهم ؛ فأفضى بمخاوفه هذه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله عما سيصنع إن طلبت منه قريش الأمان؟

سر رسول الله من هذا السؤال، فهو أيضا لا يرضى أن تسفك الدماء بمكة وحريص على أن تظل مكة حراما كما كانت وكما يجب أن تظل، وأراد أن يتخذ من العباس سفيرا فيدخل مكة من غير أن يسفك فيها الدماء، فأركبه على بغلتة البيضاء، حتى لا يعترضه جيش المسلمين لعله يجد حطابا أو أي إنسان ذاهبا إلى مكة يحمله إلى أهلها رسالة بقوة لمسلمين فيخرجوا إليه يستأمنوه قبل أن يدخل عليهم عنوة. كان الليل قد أرخى بسدله، وكان رسول الله قد أمر بإشعال النار، وكانت قريش قد شعرت بدنو الخطر، فأرسلت أبا سفيان بن حرب صهر الرسول، وبديل بن ورقاء الخزاعي حليفه، وحكيم بن خزام قريب خديجة حبيبته وزوجه، للوساطة والتنطس، فسمع العباس حديثا عرف منه صوت بن حرب وكان يجري كالتالي:

قال أبو سفيان: ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا..

رد بديل بن ورقاء الخزاعي مفاخرا: هذه والله خزاعة حمشتها الحرب

فاحتج أبو سفيان وسخر فقال: خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها،

فعرف العباس صوته فناداه متسائلا وكان جهوري الصوت: أبا حنظلة؟

فعرف أبو سفيان بن حرب صوت صديقة فقال: أبا الفضل؟

قال العباس: نعم

قال أبو سفيان: مالك؟ فداك أبي وأمي

قال العباس كاشفا عن إسلامه لأول مرة على العلن: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس، وا صباح قريش والله،

---

*[٣٠] أسلما طمعا في الغنيمة. فمارسا النفاق الباطن وهما أكثر من خرجوا على الإسلام في عهد الرسول وبعد وفاته

قال أبو سفيان: فما الحيلة فداك أبي وأمي؟

قال العباس بالشهامة المعروفة عنه: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة، حتى آتي بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمنه لك.

***

عاد بديل بن ورقاء، وحكيم بن خزام أدراجهما إلى مكة مع الأنباء والأمل لقريش وفي يوم الثلاثاء ١٦ من رمضان سنة ٨ هـ ركب معاوية بن أبي سفيان خلف العباس، معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية المشرك، سليل أمية بن عبد شمس أصحاب الثأر من آل هاشم، وأصحاب المال والثروة والصولجان وأحلام الملك والسلطة والسيطرة، داهية قريش وكبيرها الباقي على قيد الحياة، غريم رسول الله في كل موقف وفي كل حرب، ومن تربطه برسول الله وشيجة الصهر، كانت أخلاقه غاية في الانتهازية والدهاء والرغبة في الملك والاستئثار به وهي ملامح الدولة التي قامت بعد نصف قرن وتحمل اسمه جده ويتولاها نسله وهي (دولة الخلافة الأموية) وقد ركب خلف العباس بن عبد المطلب بن هاشم ـ المسلم في الخفاء ـ صاحب المال والربا عم رسول الله وحبيبه والمشهور بالنأي والنهي عنه والشهامة والانحياز للأهل بملامح الدولة التي قامت بعد قرن وتحمل اسمه ويتولاها نسله (دولة الخلافة العباسية)

بعدما ركب معاوية بن أبي سفيان خلف العباس على بغلة رسول الله وتوجها إلى معسكر المسلمين، فكانا كلما مرا على نار من نيران الجيش قال الناس: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: هذا عم رسول الله على بغلته، واستمر هذا حتى بلغا نارا وعليها عمر بن الخطاب، فصاح عمر: من هذا، وقام بنفسه يستطلع فرأى العباس ومعه أبا سفيان بن حرب على عجز الدابة فقال: أبو سفيان، عدو الله؟ الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، فتردد العباس قليلا ثم ركض يشتد نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم. ركضت البغلة دلدل فسبقت عمر، واقتحمت قرب خيمة رسول الله فنزل العباس منها ومعه بن حرب بسرعة إلى أن دخلا على رسول الله، وما هي إلا لحظات حتى دخل عمر عليه وقال:

يا رسول الله هذا أبو سفيان بن حرب فدعني أضرب عنقه

قال العباس منفعلا: يا رسول الله، إني قد أجرته.

ثم جلس العباس إلى رسول الله فأخذ برأسه وقال: والله لا يناجيه الليلة أحد دوني،

أكثر عمر وزاد غضبه فقال العباس بحدة: مهلا يا عمر، فو الله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت مثل هذا،

أطرق عمر بن الخطاب ورد بصوت حزين: مهلا يا عباس، فو الله لإسلامك كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول اله من إسلام الخطاب.

أنهى رسول الله هذا الجدل وقال: اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به.

لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي

في صباح اليوم التالي الأربعاء (يوم فتح مكة في ١٧ رمضان سنة ٨ هـ) أتى العباس بن عبد المطلب الهاشمي بأبي سفيان بن حرب الأموي، فلما رآه رسول الله قال له بمودة وحلم:

ويحك يا أبا سفيان، ألم يئن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟

قال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئا بعد

قال رسول الله بنفس النبرة: ويحك يا أبا سفيان، ألم يئن لكَ أن تعلم أني رسول الله؟

قال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه فإن في النفس حتى الآن منها شيئا.

ارتعب العباس الذي لم يكن يعلم أن لا إكراه في الدين فقال لابن حرب: ويحك، أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك.

والعباس وإن كان قد أسلم منذ ست سنوات إلا أن خلق الإسلام لم يكن قد تعلمه بعد مثل باقي الصحابة الذين رباهم رسول الله على نهج القرآن. فأسلم أبو سفيان بن حرب مكرها بكلمة العباس، وبكلمات عمر قبله، لكن رسول الله ضحك من الموقف ورغب في إسلام بن حرب حقنا للدماء فيتبعه أهل مكة، وثقة في أن حلاوة الدين ستصله وتصلهم يوما ما.

قال العباس الذي يعرف أخلاق أبي سفيان بن حرب: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئا.

كان رسول الله يعلم ضعف إيمان بن حرب، فعمد إلى تحييده وردعه بالتودد إليه حتى ينعم بحلاوة الإيمان يوما ما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان التحييد:

نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن.

وكان أول حظر تجوال في الإسلام، وهذا الحظر هو دليل على عدم فرض الإسلام على الناس فرضا، فدين الله جلت حكمته سيصل للناس إن استتب الأمن بمكة فيرون ويلمسون حسن الخلق الذي يجب أن يعامل به رسول الله المشركين، فلا الفظاظة ولا غلظة القلب ولا الإكراه والتعالي يمكن الناس من دين الله، ولكن أكثر الناس في عصرنا لا يعلمون، وبقي الردع

فرح أبو سفيان بن حرب بهذا الشرف وطلب رسول الله من العباس أن يحجز أبا سفيان بمضيق الوادي عند خطم الجبل (١) [٣١] حتى تمر به جنود المسلمين فيراها

[٣١] (١) الخطم: الأنف، شيء يخرج من الجبل يضيق به الطريق

عقد رسول الله الألوية والرايات

- فأعطى لبني سليم لواءً وأعطاها راية في يد خالد بن الوليد على الجناح الأيمن
- ولبني غفار راية في يد أبا ذر الغفاري
- ولأسلم لواءين واحد منهم لزعيمهم والثاني في يد الزبير بن العوام على الميسرة
- ولبني كعب راية
- ولمزينة ثلاثة ألوية
- ولجهينة أربعة ألوية
- ولجماعة أسلموا من بكر لواء
- ولأشجع لواءين
- وللأنصار لواء بيد سعد بن عبادة
- وعلى لمهاجرين أبو عبيدة بن الجراح على الحسر (الذين لا درع لهم)

كلما مرت قبيلة رآها أبو سفيان بن حرب سأل عنها فيخبره العباس ويرد عليه (مالي وقبيلة كذا، حتى مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبته الخضراء، وفيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد فقال: سبحان الله يا عباس من هؤلاء؟

قال: هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار.. فقال بن حرب: سبحان الله ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك بن أخيك اليوم عظيما!

قال العباس: يا أبا سفيان، إنها النبوة

حرص الرسول على السلام

سبقت كتيبة الأنصار بقيادة سعد بن عبادة رسول الله فلما مرت الكتيبة بأبي سفيان بن حرب وصار سعد بن عبادة في محاذاته قال له: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشا!

ارتعب أبو سفيان بن حرب فلما دنا منه رسول الله على رأس المهاجرين قال: يا رسول الله ألم تسمع ما قال سعد بن عبادة؟

قال: وما قال؟

فذكر له ما قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل اليوم تعظم فيه الكعبة، اليوم أعز الله فيه قريشا.

أرسل رسول الله علي بن أبي طالب كرد فوري لحقن الدماء ليدرك سعدا ويأخذ الراية منه ويسلمها لابنه قيس بن سعد بن عبادة. ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تركز رايته بالحجون (بني مكان الراية مسجد الراية بعدها) ودخل عليه الصلاة والسلام من الثنية العليا وأمر خالد بن الوليد ومن معه من سليم أن يدخلوا من الثنية السفلى وأمر رسول الله كل القادة بما فيهم خالد وقال: لا تقاتلوا إلا من قاتلكم انطلق أبو سفيان إلى قومه يصيح: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه داره فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن.

قامت زوجته هند بنت عتبة فقالت: اقتلوا هذا الحميت الدسم الأخمش الساقين، قبح الله من طليعة القوم، واستجاب الأوباش لها.

اندفع خالد حتى دخل من أسفل مكة ولكن تجمع بها ناس من بني بكر وبني الحارث بن عبد مناف وهذيل الذين استنصرت بهم قريش، فقاتلوا خالد ورموه بالنبال ليمنعوه من الدخول قائلين: لا تدخلها علينا عنوة، وقتل من جنوده رجلان (كرز بن جابر الفهري وخالد الأشقر الخزاعي) فقاتلهم خالد وهزمهم وقتل من بني بكر ٢٤ رجلا، ومن هذيل أربعة، ففروا إلى سوق بمكة اسمه الحزورة وهرب الباقون للجبال وتبعهم المسلمون فصاح حكيم بن حزام (ياقوم علام تقتلون أنفسكم) وواصل أبو سفيان بن حرب دعوته قائلا: (من دخل داري فهو آمن ومن وضع السلاح فهو آمن)

في هذه الأثناء كان رسول الله يرتقي في مرتفع جبل ينزل منه على مكة مطمئنا إلى فتح مكة دون قتال فلما رأى من أعلى الجبل جيش خالد يطارد الناس أسف وصاح مغضبا يذكر أمرة بألا يكون قتال، واستدعى خالدا فقال له: قاتلت وقد نهيتك عن القتال.

قال خالد: يا رسول الله هم بدأونا بالقتال ورمونا بالنبال وقد كففت يدي ما استطعت

قال رسول الله: قضاء الله خير

كان خالد لا يزال على أخلاق الجاهلية ونخوتها ككل من لم ينعم بتربية رسول الله.

دخول رسول الله مكة:

مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرين والأنصار حتى انتهى إلى ذي طوى وهو لا يحمل سلاحا، وكان يضع رأسه تواضعا لله جل وعلا حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، وسار رسول الله بناقته القصواء حتى بلغ الكعبة وكان المهاجرون والأنصار بين يديه ومن خلفه حتى بلغ المسجد فأقبل إلى الحجر فاستلمه وقبله ثم طاف بالبيت سبعا على راحلته (ولم يكن الطواف على الراحلة قد حرم بعد فاقتصر على الطواف) وفي يده محجن (قوس) وحول البيت ثلاثمائة وستون صنما فجعل يطعنها بالمحجن (القوس) وهو يتلو قول الله والأصنام تتساقط على وجوهها،

(جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) (١) [٣٢]

(جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد) (٢) [٣٣]

أثناء الطواف جاء أحد كفار مكة وكان جريئا واسمه فضالة بن عُمير ليقتل رسول الله، فأخبره رسول الله بما في نفسه فأسلم الرجل، ولما أكمل رسول الله الطواف دعا عثمان بن طلحة وأمر بمفاتيح الكعبة ففتحت، ولما دخل رسول الله الكعبة رأى فيها من الصور ما أغضبه فرأى صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يستقسمان بالأزلام! فقال: قاتلهم الله، والله ما استقسما بالأزلام قط، ورأى داخل الكعبة تمثالا لحمامة مصنوعة من عيدان فكسرها بيده ورسومات لملائكة إناثا جميلة فأنكر صورهم أن ليست الملائكة ذكورا ولا إناثا فأمر بكل الصور فمحيت وكان هبل داخل الكعبة فأمر بإخراجه وهدمه.

---

[٣٢] (١) الإسراء ٨١
[٣٣] (٢) سبأ ٤٩

نفي عنصرية الإيمان والتأكيد على عالمية الدعوة

ثم أغلق عليه باب الكعبة ومعه أسامة بن زيد وبلال بن رباح، فاستقبل الجدار الذي يقابل الباب حتى إذا كان بينه وبين الجدار ثلاثة أذرع وقف وصلى هناك، ثم دار بالبيت، وكبر في نواحيه، ووحد الله ثم فتح الباب، فوجد قريشا قد ملأت المسجد صفوفا ينظرون ما هو فاعل بهم فأخذ بعضادتي الباب، وهم تحته فقال وهو على باب الكعبة:

(لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده – ألا كل مأثرة أو مال أو دم، فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، إلا وقتل الخطأ شبه العمد – السوط والعصا – ففيه الدية مغلظة، مائة من الإبل، أربعون منها في بطون أولادها، يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب) ثم تلا الآية الثالثة عشر من سورة الأحزاب (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ)

لا تثريب عليكم اليوم

جلس رسول الله في المسجد ثم قال (يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم)

قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم

قال (فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء) (١) [٣٤]

مفتاح البيت لأهله

وكان مفتاح الكعبة في يده، فقام إلية علي بن أبي طالب رضي الله عنه طامعا في الحجابة لآل عبد المطلب بن هاشم فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية.

كانت السقاية لآل هاشم وفي يد العباس بن عبد المطلب) . تدارك رسول الله الأمر على الفور فقال عليه الصلاة والسلام: (أين عثمان بن طلحة؟)

فدعي بن طلحة فقال له رسول الله: (هاك مفتاحك يا عثمان لا ينزعه منكم إلا غاصب. اليوم يوم بر ووفاء)

أمر رسول الله بلالا أن يصعد على الكعبة فيؤذن،

العفو عند المقدرة

ما أن قال رسول الله لقريش (اذهبوا فأنتم الطلقاء) حتى جلس بعيدا عنه بفناء الكعبة أبو سفيان بن حرب، وعتاب بن أسيد، والحارث بن هشام (أخو أبا جهل) وكان بعض أشراف قريش جلوس بالقرب منهم يشعرون بالمرارة والهزيمة، فهمس عتاب بن أسيد في أسى:

لقد أكرم الله أسيدا أن لا يكون سمع هذا (يقصد ما قبله)

---

[٣٤] (١) أخرجه أبو داوود رقم ٤٥٤٧ -٤٥٤٩

قال الحارث بن هشام هامسا حتى لا يسمعه باقي أشراف قريش: أما والله لو أعلم أنه الحق لاتبعته، فرد عليهما أبو سفيان الذي أكرمه رسول الله وأعلى من شأنه في همس قد سمعاه بصعوبة: لا أقول شيئا، لو تكلمت لأخبرت هذه الحصباء عني!

رآهم رسول الله يتناجون وكان قد قام ليتوجه لدار أم هانئ بنت أبي طالب (ابنة عم رسول الله) ليصلى في بيتها فمر عليهم النبي وقال لهم: قد علمت الذي قلتم

ثم ذكر لهم حرفيا ما قالوا وما كانت الردود، فبهتوا فقال الحارث بن هشام والحارث بن أسيد: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول قد أخبرك،

وكسب الإسلام رجلين جديدين، سواء بإخبار الله لرسوله أو بأخلاق النبوة في العفو، أما بن حرب فلا تزال أحلامه في الرياسة تبعده عن جادة الصواب

دخل رسول الله دار أم هانئ وتوضأ فصلى ثمان ركعات في بيتها وهي صلاة الفتح.

العفو عن أغلب المحكوم عليهم بالإعدام

صحيح أن فتح مكة لم يكن غزوا، وصحيح أن القتال الذي تم كان سببه غدر من هاجموا جيش خالد، وصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى عن القتال وغضب حينما علم به، وصحيح أن رسول الله قد أصدر العفو العام، إلا أن رسول الله كان قد استثنى أناسا من الدخول في الأمان، وأمر بقتلهم ولو تعلقوا بأستار الكعبة وهم أحد عشر رجلا (عفا رسول الله عن ثمانية منهم) وأربع نسوة (عفا رسول الله عن ثلاثة منهم) والثمانية لم يكن إسلامهم شرطا للعفو عنهم فمنهم من بقى على شركه ومنهم من آمن وهم:

١- عبد الله بن أبي السرح (أخو عثمان بن عفان من الرضاعة) كان قد أسلم وكان يكتب الوحي لرسول الله، فلما أملي عليه (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) إلى قوله تعالى (ثم أنشأناه خلقا آخر) للآيات من ١٢- ١٤ من سورة المؤمنون أعجب بالتفصيل القرآني فتمتم (فتبارك الله أحسن الخالقين) قبل إملائه فقال رسول صلى الله عليه وسلم (أكتب هذه،) فظن أن الوحي يمكن أن ينزل عليه، فإذا أملى الرسول (سميعا عليما) كتبها (عليما حكيما) وإذا أملى عليه (عليما حكيما) كتبها (غفورا رحيما) واستمر في هذه الخيانات، ولما كشف جبريل أمره لم يستطع أن يبق بالمدينة ففر إلى مكة مرتدا، وجعل يقول لقريش أنه كان يصرف محمدا كيف شاء وأنه قد تنزل الوحي عليه!، فأهدر رسول الله دمه يوم الفتح لخيانة الأمانة فلجأ إلى عثمان بن عفان فغيبه عثمان حتى هدأ الناس ولما اطمأن الناس أتى عثمان بن عفان به لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأمنه وطلب له العفو والرسول لا يجيب ويشيح بوجهه عنهما أملا في أن يقطع رقبته أحد الحاضرين، خاصة عمر لكن أحدا لم يتحرك، فألح عثمان بن عفان على رسول الله مرات وكان الرسول يستحي منه، حتى عفا عنه النبي، وهذا الرجل لم يحسن إسلامه بشهادة التاريخ.
٢- عكرمة بن أبي جهل وكان شديدا على المسلمين، وهو ابن أبي جهل عمرو بن هشام، وكان ابن عم خالد بن الوليد، فلما علم بإهدار دمه فر، وكانت امرأته بنت عمه أم حكيم بنت الحارث بن هشام فأمنته فأمنه رسول الله فعاد وآمن وحسن إسلامه.
٣- الحارث بن هشام
٤- زهير بن أميه

وهما حينما عرفا بإهدار دمهما فرا إلى بيت أم هانئ بنت أبي طالب أخت علي وابنة عم رسول الله فأجارتهما فأجاز رسول الله جوارها وأسلما وحسن إسلامهما، علما بأن الحارث كما ذكرنا قد نطق بالشهادتين كما أسلفنا..

٥- صفوان بن أمية وهو أعتى أعداء رسول الله الباقي على قيد الحياة وابن أمية بن خلف وصاحب عير قريش ومن ساهم بتجهيز الجيش لغزوة أحد، وقاتل زيد بن الدثنة - أحد أسرى يوم الرجيع - وصفوان هذا تم العفو عنه دون أن يسلم فلا إكراه في الدين، وكان رسول الله يتمنى إسلامه ليعز به الإسلام، ولقد فر صفوان لما علم بإهدار دمه، فجاء ابن عمه عمير بن وهب الجمحي رضي الله عنه وقال: يا رسول الله إن صفوان سيد قومه وقد هرب ليقذف نفسه في البحر فأمنه فإنك قد أمنت الأحمر والأسود، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أدرك بن عمك فأمنه فهو آمن، فقال أعطني آية يعرف بها أمانك، فأعطاه رسول الله عمامته التي دخل بها مكة، فأتاه قبل أن يركب البحر وعاد به على شركه ولما وقف أمام رسول الله قال له: يا محمد إن هذا يزعم أنك قد أمنتني، قال رسول الله: صدق، فقال لرسول الله فاعطني بالخيار شهرين، فقال له رسول الله: بل أنت بالخيار أربعة أشهر.

لما أراد رسول الله بعدها أن يخرج لحرب هوازن (حنين) استقرض منه رسول الله أربعين ألف درهم ودروعا كانت عنده فقال صفوان: أهو غصب يا محمد؟ قال: لا ولكن عارية مرجوحة أو مضمونة، ثم خرج مع رسول الله في حرب هوازن على شركه، فلما قسم رسول الله غنائم هوازن بحنين أعطاه مائة من الإبل، ثم مائة، ثم مائة أخرى، ثم رآه رسول الله ينظر إلى شعب مملوءة نعما وشاء فسأله: أيعجبك هذا، قال: نعم. قال رسول الله: فهو لك وما فيه، لما قبض صفوان ما في الشعب قال: إن الملوك لا تطيب نفوسها بمثل هذا، ما طابت نفس أحد قط بمثل هذا إلا نبي، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فأسلم وحسن إسلامه قبل أن تنقضي المدة التي طلبها

٦- كعب بن زهير كان شاعرا يهجو النبي صلى الله عليه وسلم بشعره بل يعير أخاه بجيرا لإسلامه ولما عرف بإهدار دمه خاف وخرج حتى قدم المدينة بعد رجوع النبي من فتح مكة وأسلم فأهداه رسول الله بردة كانت عليه، وقد حاول معاوية بن أبي سفيان بن حرب بعشرة آلاف درهم فرفض قائلا: ما كنت لأؤثر بثوب رسول الله أحدا، فلما مات كعب أشتراه معاوية بعشرين ألفا من الورثة، وهي بردة كانت عند السلاطين ويلبسها الخلفاء الأمويين في الأعياد.

٧- وحشي بن حرب قاتل حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت الصحابة أحرص شيء على قتله، ففر إلى الطائف، ولما خرج وفد الطائف إلى رسول الله ليسلموا ضاقت عليه الأرض فخرج حتى بلغ المدينة وقدم على رسول الله وأسلم فأشاح رسول الله وجهه عنه، وطلب منه ألا يراه وقبل توبته، وقد حسن إسلامه وخرج لقتال الردة فقتل مسيلمة الكذاب بنفس الحربة التي قتل بها حمزة وقال: أرجو أن تكون هذه بتلك.

٨- هباربن الأسود أهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه لقتله جنينا كان في أحشاء زينب ابنة رسول الله (ظلت زينب تعاني من أثر ما فعل هبار سنوات حتى ماتت سنة ٩ هـ بعد فتح مكة) حينما نخس الجمل الذي كان يقلها أثناء هجرتها للمدينة، وظلت زينب متأثرة بإجهاضها إذ بقيت تعاني من إثرها بعد وصولها للمدينة حتى ماتت، فهو قاتل للجنين، فهرب واختفى، ثم اعترف بذنبه وأسلم فعفا عنه رسول الله ومنع من سبه رغم أنه كان سببا في وفاة جنين ابنته وحفيده.

أما الثلاثة الذين نفذ فيهم الإعدام فكانوا:

١- عبد الله بن خطل وهو قاتل وخائن للأمانة، فقد قدم المدينة المنورة قبل فتح مكة، وأسلم فبعثه رسول الله لأخذ الصدقة، فبعث رسول الله معه رجلا مسلما من الأنصار يخدمه فنزلا منزلا وأمره أن يذبح له تيسا فيصنع به طعاما ونام، فلما استيقظ لم يجد الأنصاري قد فعل له ما أمره به ونام، فعدا عليه وقتله، ولما فطن إلى الجرم الذي اقترفه وأن حد القتل سيطبق عليه، ارتد مشركا لمكة، وجعل يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعره، وكان قد استعمل قينتان استغل حاجتهما للمال وهما (فرتنا وقريبة) تغنيان شعره بهجاء النبي (فجلب لهما إهدار الدم) فلما كان يوم فتح مكة ركب فرسه ولبس درعه وأخذ بيده قناة وأقسم ألا يدخلها محمد عنوة، فلما رأى خيل المسلمين خاف وذهب إلى الكعبة متعلقا بأستارها، فوجده رسول الله وهو بهذه الحالة فأمر بقتله قائلا: اقتلوه فإن الكعبة لا تعيذ عاصيا ولا تمنع من إقامة حد واجب

٢- الحويرث بن نقيذ أهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه مع هبار بن الأسود لاشتراكهما في إيذاء زينب ابنة رسول الله وقتل جنينها حينما نخس الجمل الذي كان يقلها أثناء هجرتها للمدينة، وماتت زينب متأثرة بإجهاضها بعد وصولها للمدينة، فهو قاتل إذن للنساء وللأجنة وهي جرائم يحكم عليها بالموت، وكان قدره أن رآه على فانقض عليه قبل أن يختفي مثل هبار الذي استأمن فأجهز عليه بدم زينب بنت محمد.

٣- مقيس بن صبابة وهو قاتل هارب بن القصاص إذ كان قد هاجر وأسلم، ثم أتى على أنصاري فقتله وكان الأنصاري قد قتل أخاه هشام بن صبابة بطريق الخطأ في غزوة ذي قرد ظنا أنه من العدو، فحكم رسول الله له بالدية فأخذها حتى يعطي الأمان للأنصاري، ثم ذهب إليه على غرة فقتله ورجع إلى قريش مرتدا، فما أن رآه نميلة بن عبد الله الليثي حتى قتله وهو رجل من قومه.

والثلاث نساء اللائي صفح الرسول عنهن ولم يكن إسلامهن شرطا للعفو هن:

هند بنت عقبة زوج أبي سفيان بن حرب، سارة مولاة لبني المطلب بن عبد مناف، وواحدة من القينتان اللائي كن عند عبد الله بن خطل واسمها فرتنا

١- أما هند بنت عتبة فقد أهدر دمها رسول الله صلى الله عليه وسلم لتمثيلها بجثة حمزة بن عبد المطلب يوم أحد ولاكت كبده، فلما كان يوم الفتح بقيت في بيت زوجها بأمان رسول الله الذي أعلنه بن حرب دون أن تسلم وعفا عنها رسول الله ثم بايعت رسول الله كما سنرى وأسلمت، وحسن إسلامها فقد كانت ذات عقل وأنفة.

٢- وسارة مولاة بني المطلب هي الأمة اليهودية التي كان معها كتاب حاطب بن أبي بلتعة وكان رسول الله قد أهدر دمها لذلك السبب، وما أن استؤمن لها رسول الله أمنها ثم جاءت وأسلمت وحسن إسلامها.

٣- وبالنسبة لفرتنا فما أن استؤمن لها رسول الله أمنها، ثم جاءت هي بدورها وأسلمت وحسن إسلامها.

كانت قريبة هي المرأة الوحيدة التي قتلت بمجرد رؤيتها قبل أن يسأمن لها، وأحسب أن لو كانت قد اختفت حتى يستأمن لها لنجت.

وبهذا فقد عفا رسول الله عن ثلاثة أرباع من أهدر رسول الله دماءهم (١١ من ١٥) وقتل أربعة أفراد فقط - ثلاث رجال وامرأة واحدة - ممن كانوا من ذوي الجرائم الخاصة.

٦- بيعة أهل مكة

كان دخول رسول الله إلى مكة فتحا وصلحا، فلم يحارب، ولم يأمر بقتال، لم ينتقم ممن آذوه واضطهدوه وأخرجوه من بلده وتآمروا على قتله، فقد كان يعلم يقينا بأن الله قد حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض. وضرب رسول الله لهم المثل الأعلى في التسامح والعفو عند المقدرة، لم يكن الإيمان بدين الله شرطا للعفو، فلا إكراه في الدين إذ قد تبين بالفعل الرشد من الغي أمام أعين الجميع فبايع أغلب كبراء مكة رهبا، وجموع عديدة من عامة الناس كأمر واقع، والقلة إيمانا

في صباح اليوم التالي (الخميس ١٨ رمضان سنة ٨ هـ) لفتح مكة قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إن الله قد حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله وباليوم الآخر أن يسفك فيها دما، أو يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله فقولوا: إن الله أذن لرسول الله ولم يأذن لكم، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب.

بعثت تلك الكلمة الطمأنينة في قلوب المكيين وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على جبل الصفا ووقف الصحابة من أسفل مجلسه وفيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه رسول الله يرفع يديه لله شكرا له سبحانه وتعالى، فقال الأنصار: أترون رسول الله وقد فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها، فلما فرغ رسول الله من دعائه قال لهم: ماذا قلتم

قالوا: لا شيء يا رسول الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه

فقال لهم: معاذ الله بل المحيا محياكم والممات مماتكم

فاجتمع الناس لبيعة رسول الله على الإسلام، وعلى طاعة لله ورسوله ما استطاعوا، وبينما كان الناس يبايعون رسول الله جاءه رجل يرتعد من الخوف فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: هون عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد

بايعه معاوية بن أبي سفيان بن حرب فرحب به رسول الله وجعله من كتاب الوحي

ذهب أبو بكر الصديق عن رسول الله وجاء بأبيه عثمان ويكنى بأبي قحافة وهو يقوده فقد كان فاقد البصر، فلما رآه رسول اله قال لأبي بكر: هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه؟

فقال أبو بكر: هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت يا رسول الله، فأجلسه رسول الله بين يديه ومسح على صدره فأسلم وهو في التسعين من عمره.

لما انتهى رسول الله من بيعة الرجال، تلقى بيعة النساء، وكان عمر قاعد أسفل منه، يبايعهن بأمره، ويبلغهن عنه فقد كان رسول الله لا يصافح النساء، فاجتمع لديه من نساء قريش فيهن هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان بن حرب وكانت منتقبة متنكرة لحدثها وما كان من صنيعها مع حمزة، وكانت ممن أهدر رسول الله دمهن، فلما دنون منه ليبايعنه قال رسول الله: تبايعنني على ألا تشركن بالله شيئا.

فقالت هند: إنك لتأخذ علينا أمرا ما تأخذه على الرجال وسنؤتيكه.

قال: ولا تسرقن.

قالت: والله إني كنت لأصيب من مال أبي سفيان الهنة والهنة، وما أدري أكان حراما أم حلالا؟

وهنا قد كشفت عن نفسها ونالت العفو ضمنا!

فقال رسول الله: وإنك لهند بنت عقبة.

قالت: أنا هند بنت عقبة فاعف عما سلف، عفا الله عنك.

فقال رسول الله: ولا تزنين.

قالت: يا رسول الله وهل تزني الحرة!

قال رسول الله: ولا تقتلن أولادكن.

قالت: قد ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا يوم بدر، فأنت وهم أعلم. فضحك عمر بن الخطاب

قال رسول الله: ولا تأتين ببهتان بين أيديكن وأرجلكن.

قالت: والله إن إتيان البهتان لقبيح ولبعض التجاوز أمثل.

قال رسول الله: ولا تعصينني في معروف.

قالت: ما جلسنا هنا إلا ونحن لا نريد معصيتك في معروف.

فقال رسول الله لعمر: بايعهن.

واستغفر لهن رسول الله.

إسلام أبو محذورة

كان بلالا كلما أذن في الناس بالصلاة، لا يرق آذانه أسماع الناس من الغير مؤمنين من أهل مكة لكونه أسودا فمن قائل (أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا) وقال الحكم بن العاص الأموي (والله إن هذا لحدث عظيم، عبد بني جمح يصيح على بنية أبي طلحة!) وصار الشباب يستهزئون من بلال ويقلدونه غيظا، ومنهم (أوس بن معبر بن لوذان بن ربيعة) وقد غلبت عليه كنيته أبو محذورة، وكان أحلاهم صوتا، ولكنه غير مؤمن بالله، ويدور أمام المسلمين وأمام رسول الله مستهزئا ببلال فأعجب صوته رسول الله وكان أبو محذورة فتى في السادسة عشر من عمره، فطلب منه رسول الله أن يؤذن فأذن، فوضع رسول الله يده على صدره ودعا له بالخير، فاستحالت كراهيته للإسلام حبا ولدين الله وللرسول إيمانا، فأسلم، فأمره رسول الله أن يصير مؤذنا لأهل مكة، وبقي كذلك ٤١ سنة حتى مات على إيمانه.

٧- سرايــا هدم الأصنــام

آن الأوان للقضاء على الشرك قضاء مبرما حسب قول الله تعالى:

(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا*إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا *لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا *وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا *أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ (١) [٣٥]

١. سرية خالد بن الوليد إلى العزى:

بعث رسول الله يوم ٢٤ رمضان سنة ٨ للهجرة خالدا لهدم صنم العزى وكانت على بعد ليله من مكة وكانت لقريش وبني كنانة وكلمة العزى تأنيث الأعز (على وزن الكبرى) فهدمه

٢. سرية سعد بن زيد الأشهلي إلى مناه:

ومناة صنم للأوس والخزرج وغسان ومن أقدم الأصنام لدى العرب أرسل رسول الله سعدا ليهدمه يوم ٢٥ رمضان فهدمه

٣. سرية عمرو بن العاص إلى سواع:

في نفس هذ الشهر المعظم أرسل رسول الله عمرو بن العاص إلى صنم لهذيل ولما هدمه أسلم سادن الصنم

سرية خالد بن الوليد إلى جذيمة

في شوال وبعد العودة للمدينة المنورة أرسل رسول الله خالدا إلى جذيمة من كنانة لدعوتهم للإسلام فقتل خالد منهم أسراهم انتقاما لثأر في الجاهلية قتلت فيه جذيمة الفاكهة بن المغيرة عم خالد وعوف بن عبد عوف أبا عبد الرحمن بن عوف فغضب رسول الله من خالد ودفع الدية واستاء مما فعل خالد وأدانه ومرة أخرى كان خالد لا يزال على أخلاق الجاهلية ونخوتها ككل من لم ينعم بتربية رسول الله،

كانت تلك السرايا إيذانا بهدم كل أصنام الجزيرة العربية، فاستعدت هوازن وثقيف لغزو رسول الله وقتاله دفاعا عن صنم اللات!

---

[٣٥] (١) النساء ١١٦-١٢١

الفصل الرابع

حنين والطائف

حنين والطائف

١ـ غزوة حنين

كانت العرب - كل العرب - تابعين لقريش، وكان خضوع قريش يبشر بخضوع كل العرب. وبات القضاء على وثنية مكة نذيرا بالقضاء على وثنية الجزيرة العربية. وظلت قريش قرونا في نظر العرب حامية للوثنية والمتحدثة الوحيدة باسم أديان العرب، وأصبح فتح مكة علامة على سقوط راية الشرك، وأن كانت رايات الشرك ستتساقط واحدة تلو الأخرى في نهاية المطاف بأمر الله في حال إيمان قريش. فمازال تحطيم الأصنام بمكة، والسرايا المرسلة لمختلف البقاع حول مكة بأمر محمد من داخلها وقبول القبائل بالأمر الواقع لا تدل إلا على تعميم السرايا والجيوش إيذانا بتحطيم اللات كأحد الآلهة ذات الصيت والمكانة فأضحى الإعداد لحرب محمد على قدم وساق أمرا محتما من قبل القبائل الشرسة القوية وعلى رأسها هوازن ببطونها والطائف التي طالما شعرت بأهميتها.

في ٦ شوال ٨سنة هـ - فبراير سنة ٦٣٠ م اجتمعت جميع بطون هوازن (وهم أفضل رماة العرب) وكان رسول الله قد أرسل عمر بن الخطاب منذ عام سبق على رأس سرية في شعبان من عام٧ للهجرة ديسمبر سنة ٦٢٩إلى هوازن، ولما علموا بقدوم المسلمين هربوا، لكن هوازن عزمت على قتال رسول الله وظلت تتحين الفرصة، فتحالفت هوازن مع ثقيف (أهل الطائف) انضمت إليهم قبائل بني نصر (وقائدهم مالك بن عوف) وبني جشم (وخرج معهم دريد بن الصمة رئيسهم وسيدهم وكان شجاعا ومجربا وكان شيخا ضريرا وقد تعدى ١٢٠عمره عاما) وسعد بن بكر (وهي القبيلة التي كان رسول الله مسترضعا فيها منذ أكثر من واحد وستين سنة) وخرجت أغلب بني هلال – وكلها من قيس وعيلان – فرفضت تلك القبائل الخضوع ولما سمعت العرب بخروج محمد من المدينة ظنوا أنه إنما يريدهم فاجتمعت القيادة إلى مالك بن عوف النصري وهو من قبيلة بني نصر وهو يومئذ ابن ثلاثين وقررت المسير إلى حرب المسلمين..

٢ـ خطة مالك بن عوف للمعركة

أراد مالك أن يقاتل بالناس إجبارا حتى النصر، فلا يلين أحد منهم أمام إصرار المسلمين، وكان جملة من اجتمع من بني سعد وثقيف ٤٠٠٠ رجل وانضم إليهم ١٦٠٠٠ رجل من مختلف القبائل ولم يتخلف من هوازن إلا قبيلتي كعب وكلاب، فكان المجموع ٢٠٠٠٠ مقاتل وكان قد أمرهم أن تساق أموالهم ونساءهم وذراريهم.

ولما نزل بأوطاس (وهو واد في ديار هوازن) اجتمعوا إليه وفيهم دريد بن الصمة الجشمي فقال: بأي واد أنتم؟، قالوا: بأوطاس،. قال: نعم مجال الخيل، لا حزن ضرس ولا سهل دهس، مالي أسمع رغاء بعير ويعار الشاء، ونهاق الحمير وبكاء الصغير؟

قالوا: ساق مالك مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم.

قال: أين مالك؟

فدعي له، فقال بن الصمة: إنك قد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم له ما بعده من الأيام، فلم فعلت هذا؟

قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم!

قال دريد بن الصمة: راعي ضأن والله، وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك.

أراد دريد بن الصمة أن ينزع عنه تهور وتصور الشباب الأغر، فحدثه بهذا العنف والتقريع كما يحدث شابا من أبنائه فأضاف يسرد له خبرات القتال متسائلا: ما فعلت كعب وكلاب؟ (يعني بذلك أنه قد أأتت تلك القبيلتان للمشاركة في القتال، وكانت كعب قد أسلمت)

قالوا: لم يشهدها منهم أحد.

قال: غاب الحد والجد، لو كان يوم علاء ورفعة لم يغيبوا، ولوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب، فمن شهدها؟

قالوا: عمرو بن عامر وعوف بن عامر (وهما رجلان من بطن عامر وهو بطن من بطون تلك القبيلتان)

قال: ذانك الجذعان من عامر! لا ينفعان ولا يضران، يا مالك، إنك إن لم تصنع بتقديم البيضة - بيضة هوازن – إلى نحور الخيل شيئا، فارفعهم إلى ممتنع بلادهم، وعليا قومهم، ثم ألق الصُباء على متون الخيل، فإن كانت لك، لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذاك وقد أحرزت أهلك ومالك.

قال مالك غاضبا يريد أن يرد لدريد الصاع صاعين فرماه بضعف الرأي:

والله لا أفعل، إنك كبرت وكبر علمك، والله لتُطيعنني يا معشر هوازن، أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري.

فقالوا: أطعناك.

قال دريد: هذا يوم لم أشهده ولم أغب عنه.

شعر مالك بخروج الأمر من يديه بدعوة دريد بن الصمة خروج القبائل عليه، والإحجام عن القتال معه مثلما فعلت كعب وكلاب، فكره مالك أن يكون له في هذا الأمر ذكر، وأنه أراد أن يثبت أنه أعلم من دريد فقال: إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم، ثم شدوا شدة رجل واحد، وأكمل مالك خطته بعزم ودقة، فوزع أغلب جيشه على قمم جبال حنين وأمر بأن يكمن الباقون للمسلمين، ففرق كمناءه في الطرق والمداخل والشعاب والأخباء والمضايق ليلا، وأمرهم بأن يرشقوا المسلمين أول ما يظهروا ويشدوا شدة رجل واحد

بعثة استكشاف مالك بن عوف لجيش المسلمين

أرسل مالك بن عوف ثلاثة نفر من الجواسيس ينظرون إلى جيش المسلمين، ولما جاءت إلى مالك عيونه للاستكشاف عن أحوال المسلمين تنصح بالعودة، إذ قد جاءت هذه العيون ترتعد فرقا، قال: ويلكم ما شأنكم؟

قالوا: رأينا رجالا بيضا على خيل بلق، والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى.

ولكن مالك كان شديد العزم فلم يعبأ بما قيل له وحسبهم جبناء واهمون فحبسهم عنده خوفا من أن يشيعوا الأمر ين جنوده فيثبطون الهمم.

بعثة استكشاف رسول الله لجيش هوازن
على الجانب الآخر أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابي عبد الله بن أبي حدر الأسلمي لاستطلاع حال هوازن، فدخل في جيش العدو ومكث يومين ثم أتى النبي، وأبلغه بعدد العدو وبجلبهم النساء والذرية والأموال، وأنهم مستهينون بأمر المسلمين إذ قال مالك لأصحابه أن محمدا لم يقاتل قوما من قبل قط، فهو كان يقاتل قوما أغمارا لا قدرة لهم على الحرب.

٣- جيش المسلمين والتوجه للقتال

سار المسلمون في اثني عشر ألفا من المقاتلين، منهم ألفان من المهاجرين والأنصار وثمانية آلاف من القبائل التي صحبتهم وشاركت في فتح مكة وألفان من قريش أغلبهم حاقدين، وعلى كبر هذا الجيش الذي لم يسبق لرسول الله أن أعد من قبل، فلم يكن هذا العدد يدعو إلى الغرور.

- فهذا الجيش مكون من مقاتلين أغلبهم حديثي العهد بالإسلام ومنهم من يحقد عليه.
- جيش العدو به رجال يقاتلون المعركة دفاعا عن إله يؤمنون به فهي لهم حياة أو موت.
- لم يشهد ٨٠% من الداخلين الجدد جيش المسلمين جلد القتال من أجل الفكرة والمبدأ.
- يواجه هذا الجيش جيشا من المشركين يفوقهم عددا وعدة وإصرارا.

كانت هذه المحاذير خافية عن أعين هذا الجيش، وكان التفاؤل بالنصر والثقة فيه إحدى عوامل تعثر هذا الجيش وهزيمته في أول الأمر، وتعالت تعبيرات الغرور إذ أعجبتهم كثرتهم، فقد قال أبو بكر الصديق (لن نهزم اليوم من قله) وكان المقصود بالقلة قلة نسبية، إذ يواجه هذا الجيش المكون من ١٢٠٠٠ مقاتل، جيشا مكونا من ٢٠٠٠٠ مقاتل (أي ٦٦% أكبر منه وليس ثلاثة أضعافه كما تعود المسلمون في أغلب الأحيان) وبدت مظاهر الهزيمة مبكرة بالغرور، وعلى الرغم من ذلك فقد نصر الله عباده في مواطن كثيرة، ولم يبق غير الدرس المنتظر، وسار المسلمون في هذا الجيش الذي لم يسيروا في جيش مثله من قبل، يتقدم كل قبيلة علمها، ويقود الجيوش أعتى القادة:

- علي بن أبي طالب
- سعد بن أبي وقاس
- عمر بن الخطاب
- الحباب بن المنذر
- أسيد بن خضير
- خالد بن الوليد
- عمرو بن العاص
- أبو سفيان بن حرب بن أمية
- عباس بن مرداس
- أبا ذر الغفاري
- الزبير بن العوام

وغيرهم من أشاوس العرب، وكلهم دروع تلمع، وفي مقدمتهم الفرسان والإبل تحمل الميرة والذخيرة وبلغوا حنينا والمساء يقبل في ٩ شوال ٨ هـ، فنزلوا على أبواب واديها وأقاموا بها حتى بكرة الفجر، وتحرك الجيش وخالد في المقدمة على رأس بني سليم، ورسول الله في المؤخرة على بغلته البيضاء

دلدل وانحدروا من مضيق حنين في واد من أودية تهامة وفي الطريق رأوا سدرة عظيمة خضراء، يقال لها ذات أنواط، كانت العرب تعلق عليها أسلحتهم ويذبحون عندها ويعكفون تبركا لجلب النصر في الحروب والغنم في الرزق، فقال بعض رجال الجيش من أهل مكة لرسول الله: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال:

الله أكبر، قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى، أن اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون، إنها السنن، لتركبن سنن من كان قبلكم (١) [٣٦]

٤ ـ هزيمة المسلمين في كمين رماة هوازن

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ)

في أثناء انحطاط الجيش إلى الوادي في عماية الصبح وعلى رأسه خالد بن الوليد القائد الفذ، شد الكمناء شدة رجل واحد على المسلمين وهم في الطرق والمداخل من الشعاب والأخباء والمضايق في ظلام الفجر، يرشقون المسلمين أول ما ظهروا، فما استطاع من في المقدمة الرجوع أو الفرار ولا من في المؤخرة استطاع إنقاذ الموقف، فأصلوهم وابلا من النبال، واختلط أمر المسلمين واضطرب لما رأوا خالد بن الوليد قد سقط على الأرض دون حراك غارقا في دمائه فعادوا منهزمين ومذعورين وقد أخذ الخوف منهم كل مأخذ من هول المفاجأة، وأطلق أغلب الجيش (من الأعراب) ساقيه للريح نجاة بأنفسهم، والنبي في المؤخرة تمر عليه القبائل مذعورة ومهزومة لا تلوي على شيء واحدة بعد الأخرى، وأطلت الهزيمة من مخبأها، وضاع كفاح المسلمين الذي دام أكثر من عشرين عاما وضاعت أحلام المدينة الفاضلة في دقائق معدودة ومشئومة.

وفي موطن الأخطار ثبت قدوة العالمين في مكانه وقد أحاطه جماعة من عشرات المهاجرين والأنصار وأهل بيته، فجعل محمد الحبيب ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينادي في الناس إذ يمرون به منهزمين: أين أيها الناس؟، أين أيها الناس؟، أين أيها الناس؟

شماتة المنافقين

في هذه الأثناء ظهر نفاق أبي سفيان بن حرب فقال وعلى شفته ابتسامة الشامت: (لا تنتهي هزيمتهم دون البحر) ودلت لفظة (هزيمتهم) على عدم إيمانه بما يؤمن به المنهزمون من المسلمين واقصاء نفسه عنهم. وظهرت أحقاد الآخرين إذ قال شيبة بن عثمان بن أبي طلحة في غل: (اليوم أدرك ثأري من محمد) وكان عثمان أباه وكذلك أعمامه طلحة وسعد أبناء طلحة قد قتلوا في بدر.

وقال كلدة بن حنبل (أخو صفوان بن أمية من الأم) : (ألا بطل السحر اليوم!) وكانوا من ضمن الجيش المحسوب على المسلمين، بل وكانوا من ضمن قواد هذا الجيش. ولكن بارقة أمل من مشرك مكي قرشي لا يزال على نعرة الجاهلية قد ظهرت حينما رد صفوان بن حنبل على كلدة أخيه قائلا:

اسكت فض الله فاك، فو الله لأن يَرُبَّني رجل من قريش أحب إلى من أن يَرُبَّني رجل من هوازن، في أثناء ذلك الفرار وتلك الأحاديث الشامتة والجيش يختلط حابله بنابله، إذ بباقي جيش العدو يرميهم بالنبال من فوق قمم جبال حنين، ثم تأتي هوازن وثقيف منحدرتين من معتصمها بقمم الجبال تطاردانهم حتى تأتيا على من بقي على قيد الحياة منهم، يتقدمهم رجل على جمل أحمر، بيده راية

---

[٣٦] (١) رواه الترمذي – وهو ما نراه اليوم بالفعل

سوداء في رأس رمح طويل، كلما أدرك واحد من المسلمين طعنه برمحه، وهوازن وثقيف وأنصارهما منحدرين من ورائه يطعنون، وقتلى المسلمين في تزايد بالمئات، فانفضت القبائل وانفض المهاجرون والأنصار!

٥- ثبات رسول الله وشهامة آل هاشم

(ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا)

كانت مزية قدوة العالمين قد أثمرت ثباتا نادرا عند مقياس البشر تماما كثباته يوم أحد وقرر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُقتل شهيدا في سبيل الله لعل في موته لدين الله نصرا، فأراد أن يندفع ببغلته البيضاء وهو يقول: أنا النبي لا كذب، أنا بن عبد المطلب

لكن ابن عمه أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أمسك بخطام بغلته وحال دون تقدمها، وهو الذي عفا عنه رسول الله، فظهرت نخوة آل هاشم مرة أخرى.

ثبت حول رسول الله نفر قليل في أول الأمر منهم علي وأبوبكر وعمر وعثمان والعباس وابنه الفضل واسامة بن زيد وعتبة ومعتب أبناء عمه أبي لهب، وأيمن بن أم أيمن وآخرون.

مرة أخرى تظهر نخوة العباس بن عبد المطلب بن هاشم وكان جسيما شديدا جهوري الصوت يستصرخ الناس:

(أين أصحاب السمرة) (يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا، يا أصحاب العقبة) (يا معشر المهاجرين، الذين بايعوا تحت الشجرة) (إن محمد حي فهلموا..)

وما أن سمع الأنصار أصحاب العقبة، اسم العقبة حتى عاد صوابهم فذكروا عهودهم وشرفهم فعادوا بالمئات ملبين وصائحين (لبيك، لبيك) وكان الرجل منهم إن لم يقدر على أن يثني بعيره ينزل عنه ويعدو للقتال بدونه حاملا سيفه ودرعه ويؤم الصوت حتى يبلغ رسول الله وما أن سمع المهاجرين اسم الشجرة، حتى تذكروا أيام البيعة والمجد فعادوا بالمئات يصيحون (لبيك، لبيك) . والعباس بن عبد المطلب يكرر نداءه مرات ومرات، وكان النداء يدوي في الآذان فتهتز له نياط القلوب، فاندفع المسلمون من المهاجرين والأنصار يلتفون حول رسول الله صلى الله عليه وسلم من جديد واكتمل انحدار هوازن من مكامنها وأصبحت وجها لوجه مع المسلمين، وأجساد شهداء المسلمين بالمئات على أرض المعركة، فلما أضاء النهار وطغى نوره على عماية الفجر، بدت ملامح البطولة تتشكل من جديد، وأنزل الله جنودا لم يروها وظهر خالد بن الوليد المضرج في دمائه على فرسه يقاتل ببسالة من جديد.

٦- انتصار المسلمين

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۢ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ)

وقد أخطأت هوازن التي تعجلت النصر وطفق جندها يجمعون الأسلاب، وتجالد الفريقان مجالدة شديدة، واستقبل رسول الله خالدا فتفل على جروحه وربت عليها يده فتوقفت الدماء وعاد خالد لساحة القتال، ثم نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ساحة القتال وقد احتدمت فقال مقالة لم يقلها أحد قبله

الآن احتدم الوطيس، .إن الله لا يخلف رسوله وعده، فتوجه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة يبر بقسمه فيسلط السيف عليه صلى الله عليه وسلم لما حمي الوطيس، فالتفت رسول الله إليه وناداه (يا شيب أدن مني)

فدنا فمسح رسول الله على صدره ثم قال (اللهم أعذه من الشيطان)

فتقدم للعدو يضرب بسيفه ويقي رسول الله بجسده فقال له رسول الله (يا شيب! الذي أراد الله لك، خير من الذي أردت لنفسك)

كان صياح المسلمين (يا للأنصار، يا للأنصار) فتفانى بنو الحارث فخلصت الدعوة للثناء عليهم (يا لبني الحارث بن الخزرج) واكتمل جيش العدو بوادي حنين وكان عشرون ألف مقاتل يواجهون بضع مئات لم تبلغ الألف من جند المسلمين، ثم لاحقت كتائب المسلمين واحدة تلو الأخرى بالوادي يتصايحون (لبيك. لبيك) واكتمل عدده دون المئات الذين استشهدوا، يطيحون برؤوس الكفار، وما لبثت أن رأت هوازن وثقيف أن القتال غير مجد وكان قد قتل منهم بضع عشرات، فرأوا أنه معرضون للفناء مع هؤلاء المسلمين، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حصيات من الأرض فرمى بها وجوه العدو ثم قال: (انهزموا ورب محمد)

فبدأ العدو يدبر تاركين نساءهم وأبناءهم وأموالهم فزعا. وانسحبت ثقيف إلى الطائف بعدما بلغ قتلاهم سبعين رجلا فقط، وانسحب الأحلاف إلى قبائلهم ولم يقتل من الأحلاف إلا رجلان وفر الجميع تاركين هوازن لمصيرها، وأنشدت امرأة مسلمة قصيدة فيما رأت كان من أبياتها

غُلبت خيل الله خيل اللات .. وخيل الله أحق بالثبات.

وطاردهم المسلمون قتلا وأسرا يتبعون آثارهم، فقتل بعض من جيش المسلمين أطفالا من ذرية العدو، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى بشدة عن هذا الفعل، وقال لهم: (من قتل قتيلا فله سلبه) واستمر جند الإسلام في مطاردة العدو، يقطعون الرقاب ويسلبون من يقتلون ويسبون النساء والذرية

(وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ)

ما كانت إلا ساعات قلائل بعدما رمى رسول الله قبضة الحصى حتى انهزم المتبقي من هوازن هزيمة منكرة، وكان الأسرى من الرجال من هوازن يبلغون الآلاف، وأسرت النساء والذراري، وحاز المسلمون المال السلاح الذي كان مع الأسرى، أما الناجون فقد انسحب معظمهم إلى الطائف كما ذكرنا، ومجموعة أخرى إلى نخلة، ومجموعة إلى أوطاس، أما المجموعة التي انسحبت إلى نخلة فطاردتها فرسان المسلمين فأدركتهم واستمروا في قتلهم وسلبهم حتى أتى أدرك ربيع بن رفيع السلمي راحلة ظن أن عليها امرأة فأراد أن يأسرها فسبيها، فأخذ بخطام الراحة وأناخها فإذ برجل كبير السن أعمى بها، فأراد أن يقتله فيسلب الناقة والمتاع والأموال، فسأل الشيخ ربيع بن الرفيع: من أنت؟ فقال: أنا ربيع بن رفيع السلمي فقال الشيخ: ماذا تريد مني؟ قال ربيع: أقتلك وأسلبك، فضربه بالسيف فلم يقتله فقال له: بئس ما سلحتك به أمك، خذ سيفي هذا من مؤخرة الرحل، ثم اضرب به، وارفع عن العظام، واخفض من الدماغ، فإني كنت كذلك أضرب الرجال، ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة، فرب والله يوم قد منعت فيه نساءك، لما عاد وأخبر أمه قالت له: أما والله لقد أعتق دريد بن الصمة أمهات لك ثلاثا، أنا وأمي وأم أبيك!

أما من انسحب من العدو إلى أوطاس، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم طائفة من المسلمين على رأسهم أبو عامر الأشعري، فطاردهم وتناوش الفريقان القتال طويلا، وثبت مالك بن عوف قليلا ثم انسحبوا ومعهم مالك إلى حصن لهم بالطائف ولكن القائد أبو عامر الأشعري كان قد استشهد في هذا القتال بسهم، فلما بلغ الخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (اللهم اغفر لأبي عامر وأهله واجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك) وأخذ الراية أبو موسى الأشعري - وهو ابن عمه – فأكمل النصر، وكان نصر حنين فادح الثمن.

٧- السبي والغنائم

في أثناء مطاردة العدو، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحصر شهداء المسلمين ودفنهم وصلى عليهم، وكان ثمن هذا النصر فادحا ولم تحص كتب السيرة كل القتلى والشهداء ولقد ذكرت أن قبيلتين من قبائل المسلمين قد فنيتا أو كادتا، لكنه النصر على أية حال، كذلك تم دفن الكفار، وأمر سول الله بحصر السبي والغنائم وأن تجمع فكانت أن بلغت يومئذ أربعة وعشرون ألفا من الإبل، ومن الغنم أربعين ألفا من الشاء، وأربعة آلاف أوقية من فضة، أما الأسرى فكان عددهم ستة آلاف وكان من بين النساء في السبي الشيماء بنت الحارث بن بد العزى السعدية أخت رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاعة فنقلوا إلى وادي الجعرانة وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفاري، ولم يقسمها حتى فرغ من تأمين النصر بغزوة الطائف الشيماء أخت الرسول، وكانت الشيماء بنت الحارث (ابنة حليمة السعدية) أخت رسول الله من الرضاعة من بين الأسرى، فلما عنف عليها الجند المسلمون وقد تخطت الخامسة والستين قالت: تعلمون والله إني لأخت صاحبكم من الرضاعة! فلم يصدقوها، ولما جيء بها إلى رسول الله عرفت له نفسها فعرفها ودمعت عيناه، فأكرمها وبسط لها رداءه وأجلسها عليه قائلا (سلي تعطي واشفعي تشفعي) وردها إلى قومها، فعرفوا الجميل وأسلموا، ولكن لم يدركوا رسول الله وانتظروا حتى عاد من الطائف حتى تشفع لهم الشيماء.

هو النصر إذن، ولكن رسول الله إنما أراد نصرا أكثر روعة وأعظم إجلالا، وانتظر المسلمون بغبطة ما جزاهم الله، يترقبون قسمة الفيء والعودة بالغنيمة، كل ثروة هوازن وذريتها ونساءها ببطونها ماعدا بطني كعب وكلاب، ولم يكن المال والسبايا هو المبتغى عند الله ورسوله، بل كان القصد هو الدعوة لدين الله الحق، فيهدي الله به الكافرين وبأي وسيلة، وتحت أي مسمى سواء بالعفو بعد المقدرة، أو بتأليف القلوب بالمال أما النصر فقد أتى، أنزل الله تعالى:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ *﴾ (١) [٣٧]

ولقد آمن بعد هذا النصر كل من حضر المعركة من أهل مكة، ولكن لا تزال الضغينة في القلوب.

٨ ـ غزوة الطائف

لم تتم قسمة الغنائم بالجعرانة لحين الانتهاء من هذه الغزوة، وكانت غزوة الطائف امتدادا لغزوة حنين، ولئن استعرضنا سنة رسول الله في الحروب، لوجدنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يبدأ قتالا حتى ينهيه، سواء كانت نتيجة القتال نصرا أم كانت هزيمة، فقد كان غزو بنو القينقاع تأمينا لنصر بدر بعد غدر يهودها، وكان غزو بنو النضير تأمينا للنصر بعد غدرهم لدرء مخاطر هزيمة أحد، وكان

---

[٣٧] (١) التوبة ٢٥-٢٧

غزو بنو قريظة تأمينا للمدينة بعد اشتراكهم في مؤامرة الأحزاب، وكان غزو خيبر بعدما ظهرت نوايا اليهود بالتحالف مع غطفان شركاء الأحزاب بعد عهد الحديبية تأمينا للمدينة من الشمال.

تأمين نصر حنين

بعد حنين أراد رسول الله تأمين النصر بضرب المتحالفين الفارين، فلا يقاوم الإسلام أحدا بعدها من العرب، فجعل رسول الله يضع حسابات لاحتمالات إعادة الكرة من ثقيف صاحبة اللات، وهي في شرق مكة، فثقيف لا يؤمن جوارها لمكة وهي على الشرك، خاصة وهو عائد لا محالة إلى المدينة المنورة، فعندهم مقدرة العودة لمكة في غيابه.

أرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمة غنائم هوازن بالجعرانة حتى ينتهي من ثقيف أكبر حلفاء هوازن، كان الرسول يعلم أن قسمة الغنائم هذه المرة لن تكون مرضية للمخلصين للرسالة في نظر المجاهدين سواء للمهاجرين أو للأنصار، فاعتمد على إيمانهم، وإن كانت القسمة عاقلة وهادفة في مجال نشر الدعوة والتأليف بين القلوب، ورسول الله يرغب في تأمين الطائف بالسلاح أو بالاستسلام ولا يزال في الاحتياج لكل من شارك في فتح مكة وغزوة حنين بقلوب مفعمة بالأمل، كما كان يأمل في هداية هوازن، فيمنحهم ما سلب منهم بعد القتال.

في ١١ شوال من سنة ٨ هـ بعث رسول الله الطفيل بن عمرو إلى صنم ذي الكفين لهدمه مع أربعمائة فارس فأتم المهمة بنجاح، ثم كان عليه أن يوافى رسول الله بالطائف حيث سار رسول الله للوطيس مع الجيش وارتفع إلى الحصون قريبا من حصن الطائف، فالحسم والمباغتة واستثمار الحشد عملية استراتيجية واحدة تؤمن الدعوة، وقدم خالد بن الوليد على مقدمة الجيش بطليعة من ألف رجل، وكان الجيش قد مر في طريقه على النخلة اليمانية، ثم على قرن المنازل، ومر على مكان يدعى لية - وكان فيه حصن لمالك بن عوف - فأمر بهدمه رغم أن مالكا لم يكن فيه، وحائطا لرجل من ثقيف فأمر بهدمه، وأمر بفرض الحصار وعسكر هناك، ودام الحصار عشرين يوما (١) [٣٨] وكانت الطائف مدينة محصنة، فقد كانت ذات ثروة طائلة فجعلوا الحصون أمنعها ولها أبواب تغلق عليها كأكثر مدن هذا العصر تحصينا، وكان أهلها ذوي دراية بالحرب وبالأخص حروب الحصار، جمع رسول الله أصحابه ليفكروا فيما يصنعون، وثقيف ترقب الموقف، فرشقوا المسلمين بالنبل وقتلت مجموعة منهم بلغت ثمانية عشر من المسلمين وجُرح العديد، فانسحب المسلمون بعيدا عن مرمى النبل إلى مكان آخر وضربت خيمتان لزوجتي رسول الله - أم سلمة وزينب - وكان رسول الله يقيم الصلاة بين الخيمتين (بني عليه مسجد الطائف بعدها)

لم يكن من اليسير اقتحام هذه الحصون المنيعة فهي أشبه بحصون خيبر، والحصار والتجويع لن يجد، وبعد حصار يوم آخر جاء أعرابي (نوفل بن معاوية الديلي) لرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له: إنما ثقيف في حصنها كالثعلب في جحره، لا سبيل إلى إخراجه إلا بطول المكث، فإن تركته لم يصيب منه ضر.

شق على رسول الله أن يعود أدراجه دون أن يخضع ثقيف، فالطائف الحصينة تشبه خيبر التي فتحت بالمنجنيق، وكان لبني دوس (إحدى القبائل المسلمة التي تقيم بأسفل مكة) علم بالرماية والمنجنيق، وكان مع رسول لله أحد خبراء المنجنيق وهو الطفيل الذي كان بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ غزا خيبر، فأوفده رسول الله إلى قومه يستنصرهم، فذهب وعاد بهم مع المنجنيق بعد يومين (أربعة أيام من حصار الطائف) وزحفوا بها لجدار حصون الطائف ليخرقوها وكان رجال الطائف من

---

[٣٨] (١) فتح الباري ٤٥/٨

المهارة بحيث أحموا قطعا من الحديد بالنار حتى إذا ما انصهرت صبوها على المنجنيق فاحترقت، ولما فر المسلمين من تحتها رمتهم ثقيف بالنبل فقتلت مجموعة أخرى منهم، وفشلت الجهود، ولكن رسول الله قد انتصر على بني النضير بإحراق نخيلها، وكانت للطائف مزارع من الكروم أكبر قيمة من نخيل بني النضير، فلها من الصيت في بلاد العرب ما تتباهي به الطائف، فبأمر رسول الله تم قطع وحرق الكروم، ورأت الطائف أن رسول الله جاد في الفتح، فبعثوا إليه أن يأخذ لنفسه ما يشاء ويدعهم له وللرحم لما بينه وبينهم من قرابة، فاستمهل رسول الله رجاله وبعث مناديا في ثقيف أنه معتق من جاء إليه من الطائف، ففر إليه ثلاثة وعشرون رجلا من أهلها (١) [٣٩] فقط!، لكن رسول الله قد استشف منهم أن بالحصون من الطعام والذخيرة ما يكفي أمدا طويلا، فرأى رسول الله أن الحصار سيطول أمده، وكان ذو القعدة قد هل فلا يجوز قتال فيه، فعزم عل رفع الحصار والرحيل، وأمر عمر بن الخطاب فأذن في الناس: إنا قافلون غدا إن شاء الله، وأسقط في يد الجنود فقالوا: نذهب ولا نفتحه؟ قال رسول الله: أغدوا على القتال، فأغدوا، ولما جرح منهم البعض قال: إنا قافلون غدا، ففرحوا وضحك رسول الله فقالوا: آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون، وطلبوا من رسول الله أن يدعو عليهم فقال رسول الله: اللهم اهد ثقيفا وات بهم. وكان هذا تأكيدا لتسامح النبي مع من آذوه، فدعائه عليهم لله كان سيخسف بهم خسفا.

٩ - قسمة الغنائم بالجعرانة

انصرف رسول الله إلى الجعرانة حيث تركوا الغنائم والأسرى في حراسة مسعود بن عمرو الغفاري، وهنالك نزلوا يستقسمون

(الزهد في الأسرى) العفو عن الأسرى جميعا

مكث رسول الله بالجعرانة بضع عشرة ليلة لا يقسم الغنائم، ويتأنى بها، حتى يترك مجالا لهوازن أن يبعث وفدا تائبا فيحرزوا ما فقدوا، فوقف النبي إلى جانب بعير فأخذ وبره من سنامه فجعلها بين أصبعيه ثم رفعها يلقنهم درسا في الزهد وقال:

(أيها الناس والله ما لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم) يقصد أن هذا الخمس سيوزع على فقراء المسلمين وفي سبيل الله ولا ينال بيته منه شيء.

وبالفعل جاء وفد من هوازن بعد أن عادت إليهم الشيماء فأسلموا، يرتجون أن يرد عليهم أموالهم ونساءهم وأبناءهم، ولقي رسول الله الوفد وهم أربعة عشر رجلا، على رأسهم زهير بن صرد وأبو برقان وقالوا: يا رسول الله، إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللواتي كن يكفلنك، ولو أنا أرضعنا للحارث بن أبي شمر أو للنعمان بن المنذر، ثم نزل بنا ما نزل، رجونا عطفه وعائدته علينا، وأنت خير المكفولين.

والحقيقة أن رسول الله صلى اله عليه وسلم لم يكن بحاجة إلى هذا التذكير فقد عرف عنه عرفانه بالجميل وصلة الرحم فسره أن آمن الناس، واستجابوا لدعوة الله فسألهم: أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟

قالوا: يا رسول الله خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا! بل ترد علينا نساءنا وأبناءنا فهم أحب إلينا.

[٣٩] (١) صحيح البخاري ٣/ ٦٢٠

فقال رسول الله: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا أنا صليت الظهر بالناس فقوموا وقولوا إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم.

نفذت هوازن قول النبي بعد صلاة الظهر. فقال رسول الله: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم.

قال المهاجرون والأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله، وهكذا فقد عاد أغلب الأسرى، أما من كان بيد غيرهم (قريش والقبائل) فكان أن رفض الأقرع بن حابس عن تميم، وعيينة بن حصن أيضا، وجاء العباس بن مرداس عن بني سليم رافضا أيضا، ولكن بني سليم التي هي رهطه لم يقروا العباس بن مرداس على رفضه وأعلنوا أن ما كان لهم فهو لرسول الله فقال لهم: وهنتموني، (وجدير بالذكر أن هؤلاء الثلاثة قد خرجوا على الإسلام بالردة بعد هذه الغزوة كما سنرى)

فقال رسول الله قاصدا الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن ورهطهما والعباس بن مرداس وأمثالهم: أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي فله بكل إنسان ست فرائض من أول سبي أصيبه.

فرضوا، وسأل رسول الله وفد هوازن عن مالك بن عوف النصري، فلما علم رسول الله أنه ما يزال بالطائف طلب إليهم أن يبلغوه أنه إن أتاه مسلما رد عليه أهله وأعطاه مائة من الإبل (يعطيه رسول الله من الخمس ليأتلف قلبه) فعاد مالك مسرعا وأعلن إسلامه وهكذا تم تحرير الأسرى جميعا، لكن البعض لما رأى إبل مالك بن عوف تخرج عائدة إليه خشي أن تتناقص قسمتهم من الفيء، وتهامسوا بذلك وطلبوا أنصبتهم!

(والزهد في الغنائم)
لم يكن زهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في السبي جديدا عليه لمن وعى أهداف النبي الكريم، رسول الله كان إمام الزاهدين، لا يرغب إلا في نشر الرسالة التي كلفه الله بها، وكان يدعو أتباعه إلى الزهد، أما الطبيعة البشرية فلئن زهدت في الامتلاك خرجت عن غريزة من غرائزها، وتستطيع المجتمعات البشرية أن تمارس هذا الزهد بالتدريب والاعتياد، وليس بإطلاق صفة الزهد على الزاهدين وغير الزاهدين، وكان ذلك هو مرام رسول الله، وكان السابقون هم من راهن رسول الله عليهم من المهاجرين والأنصار عشما فيهم.

خاض المسلمون تجربة إنسانية شاقة في أمر قسمة الغنائم برمتها.

صحيح أن من يتطوع للقتال في سبيل إعلاء كلمة الله لا ينتظر ولا ينبغي عليه أن ينتظر الغنيمة أو يشترطها، فالغنيمة عند الله أكبر، بدليل أن الشهيد لا يحصل إلا على الجنة فيفقد حياته وربما ضاع من يعول من أم وأب وزوجة وأبناء إلا أن الحرب حينما تضع أوزارها لا يشغل بال المنتصر إلا الغنيمة - خاصة في ثقافة أهل ذلك العصر سواء في الجزيرة العربية أو في غيرها - ومع ذلك أراد رسول الله من المسلمين (خاصة أهل المدينة من مهاجرين وأنصار) أن يمارسوا الزهد والترفع على أعلى ما يكون هذا الزهد والترفع، ربما ثقة فيهم، أو رهانا عليهم، ولكن كانت هناك إشارة للأنصار، خاصة وقد حدث عقب بيعة أهل مكة أن قالوا عن رسول الله: أترون رسول الله وقد فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها، فقال لهم رسول الله وفاء بالعهد معهم: معاذ الله بل المحيا محياكم والممات مماتكم

لقي والله رسول الله قومه
كان ذلك الوعد كاف لهم بوفاء رسول الله لهم بالنفيس وليس بالزائل، ولكن، لما بلغ همس الصحابة لرسول الله بخشيتهم أن تنقص أنصبتهم من الفيء بسبب الأعطيات بدأ في حسم هذا الأمر بإعطائهم الدرس الأهم في الإيمان والزهد.

لم يفهم المهاجرون والأنصار كعادتهم أفعال رسول الله ولا أقواله والحكمة من وراء تلك الكلمات والأفعال، بدليل ما كان لهم من ردة فعل في هذا الموقف كما سنرى، وما قد سبقه من مواقف، فالصحابة جميعهم حينما أعلن رسول الله أن عهد الحديبية كانت فتحا مبينا لم يصدقوا ولم يفهموا حتى أكد التنزيل ما ذهب إليه الرسول ثم أتت الأحداث بالنصر المبين.

شرع رسول الله في تقسيم الغنائم على من لم ينالوا أو ينهلوا من عطاء الرسول الروحي من قريش والقبائل فبدأ بـهم ليتألف قلوبهم:

أهل مكة، فكل الدلائل أثناء فتح مكة كانت تشير إلى أن قلوب قريش مليئة بالضغينة والحقد على الإسلام خاصة محاولة قتل الرسول أثناء المعارك مع هوازن، وشماتتهم بهزيمة المسلمين أول الأمر، فليؤلف الرسول بين قلوبهم وبين الدعوة التي تمنى أن يعتنقوها ذخرا للإسلام وتجميعا للعرب كخطوة أولى نحو نشرها في مشارق الأرض ومغاربها فقريش هي مفتاح قبول الإسلام بين العرب دون قتال لمكانتها التاريخية.

ثم قبائل الأعراب التي لا تعرف غير النهب طريقا لكسب الرزق، وكانت تلك القبائل هي أغلب الجيش الذي حارب وأغلب العرب، وهم الذين كانوا أشد المرتدين فيما بعد في الدنيا أقواما كثيرين يقادون إلى الحق من بطونهم، لا من عقولهم ووجدانهم، ولقد تعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم سياسة الرعاة منذ طفولته، فكما تهدي الدواب إلى طريقها بحزمة من البرسيم فتظل تمد إليها حتى تهديها إلى حظيرتها آمنة، فكذلك هذه الأصناف من البشر تحتاج إلى فنون من الإغراء حتى تستأنس بالإيمان وتهش له (١)[٤٠] منهم من كان رسول الله يعطيه دفعا لأذاه، ومنهم من كان يعطيه طمعا في إسلامه وإسلام أتباعه ومنهم من كان يعطيه تثبيتا لإسلامه لقرب عهده بالجاهلية.

أما الصحابة من المهاجرين والأنصار، فقد تربوا على النضال فتعشم فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد العشم، وكان محقا.

(المؤلفة قلوبهم بالعطايا)
قلنا فيما سبق أن الغنائم قد بلغت يومئذ أربعة وعشرون ألفا من الإبل، ومن الغنم أربعين ألفا من الشاء، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، وقد كان النص القرآني في سورة الأنفال (وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) وهكذا فإن لله وللرسول ٤٨٠٠ من الإبل، و ٨٠٠٠ من الشاء و ٨٠٠ أوقية من الفضة.

وبدأ رسول الله بقريش. كانت قريش هي التي شمتت في رسول الله في بداية القتال وتمنت هزيمته، ورغم ذلك أعطى رسول الله أشراف قريش أعداء الأمس أولا، فبدأ بأن أعطى أبا سفيان بن حرب (سليل أمية بن عبد شمس صاحبة الثأر من آل هاشم) أربعين أوقية من الفضة، ومائة من الإبل وصدق

---

[٤٠](١) كلمة لمحمد الغزالي في فقه السيرة مع التصرف والإضافة ص ٢٩٨، ٢٩٩

حدس رسول الله فقال معاوية: وابني يزيد؟ فأعطاه مثلها، وقال: وابني معاوية؟! فأعطاه مثلها وهذه سياسة لم تُفهم في أول الأمر، فأعطى أيضا رسول الله حكيم بن خزام مائة من الإبل، ثم سأله حكيم مائة أخرى، فأعطاه إياها! وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل، ثم مائة، ثم مائة، ثم مائة! ونعما وشاء (١)[٤١] وأعطى الحارث بن الحارث بن كلدة مائة من الإبل كذلك أعطى رؤساء قريش الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى مائة من الإبل لكل منهم! وأعطى آخرين من كانوا دون ذلك خمسين، خمسين ثم غيرهم أربعين، أربعين!

وعلى الرغم من أن ما أعطاه رسول الله للمؤتلفة قلوبهم لم يكن قد تجاوز الخمس، فقد شاع في الناس أن محمدا يعطي الأثرياء عطاء من يخاف الفقر، ثار الأعراب فازدحموا عليه صلى الله عليه وسلم يطلبون المال حتى اضطروه إلى شجرة، فلصق رداءه بأغصان الشجرة فخلع منه فقال: أيها الناس ردوا إلي ردائي، فو الله لو أن لكم بعدد شجر تهامة نعما لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلا ولا جبانا ولا كذابا، ثم إنه خمس الغنيمة فردوا الرداء لرسول الله، ولم تكن المسألة في الرداء، وإنما كان الأمر في الحلال والحرام فقال:

فمن أخذ شيئا في غير عدل ولو كان إبرة كان على أهله عارا ونارا وشنارا إلى يوم القيامة،فردوا ما أخذوا دون وجه حق أثناء القتال، ثم شرع رسول الله في استكمال تقسيم الغنائم.

وجاء دور قبائل الأعراب. كانت تلك القبائل هي التي فرت أول القتال وتركت أرض المعركة ولم تعد إلا بعد صمود المهاجرين والأنصار حول رسول الله هي نفس القبائل التي ارتدت بمجرد وفاة الرسول وقد أعطى رسول الله الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن، ومخرمة بن نوفل ٥٠ بعيرا والعلاء بن الحارثة، وسعيد بن يربوع، وعثمان بن وهب، وهشام بن عمرو العامري ٤٠ بعيرا ثم أعطى العباس بن مرداس ٤٠ من الإبل فلم يرضه وعابه بأبيات من الشعر فقال رسول الله لمن أبلغه: اذهبوا فاقطعوا لسانه عني (فأعطوه ١٠٠ بعيرا حتى رضي)

شاهد رجل من الأعراب العطاء فحسب ورأى أن لن يصيبه شيء فقال: أعدل يا رسول الله! فحزن رسول الله واستمر في التقسيم فقال الرجل: أعدل يا محمد، فاحمر وجه الرسول الحليم ولم يرد عليه فتجرأ الرجل وقال: أعدل يا محمد فإنك لا تعدل! فغضب رسول الله وقال:

ويحك وإن لم أعدل أنا فمن ذا الذي يعدل.

قال رجل آخر: يا رسول الله أعطيت عيينة والأقرع وتركت جعيل بن سراقة فقال رسول الله:

والذي نفسي بيده، لجعيل خير من طلاع الأرض (المقصود غالبية الناس في الأرض) رجالا كلهم مثل عيينة والأقرع، ولكني أتألفهم، ووكلت جعيلا إلى إسلامه)

وبدأ قليل من الناس يفهمون أن من لا يُعطى خير ممن يُعطى، ولكن ليس كل الناس قد فهموا.

كانت تلك العطايا أقل من نصف الخمس المنصوص عليه للرسول في القرآن، وقد أنفق على المؤلفة قلوبهم، والنصف الآخر كان لصالح المسمين ينفق منه على الدعوة، أما الأربع أخماس فقد وزع على المقاتلين من عامة الناس دون الهاجرين والأنصار.

---

[٤١](١) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى – للقاضي عياض ٨٦/١

الأنصار

وقعت مغارم هذه القسمة على الأنصار، وفي حقيقة الأمر لم نسمع أن أحدا من المهاجرين قد نال شيئا من هذا الفيء إلا من أصحاب العوز، فلم تفهم هذه السياسة أول الأمر، فأطلقت الألسنة بالاعتراض من الأنصار، ولم يتحدث أحد من المهاجرين بشيء، فلقد حرم الأنصار جميعا من أعطية حنين، وهم الذين آووا، وهم الذين نصروا، وهم الذين لبوا أي نداء للجهاد، وفي هذه المحنة بالأخص وحينما فر الجميع ونودوا عاد الأنصار مسرعين يقاتلون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تبدل الفرار انتصارا، وهاهم يرون أيدي الفارين مليئة، أما هم فلم يمنحوا شيئا (١)[٤٢] فجعلوا يتحدثون إلى بعضهم البعض فعادوا يقولون: لقي والله رسول الله قومه

لما أعطى رسول الله وكثرت المقالة بين الأنصار دخل سعد بن عبادة عليه فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا(٢)[٤٣] عليك في أنفسهم ما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء.

قال رسول الله: فأين أنت من ذلك يا سعد؟

قال: يا رسول الله ما أنا إلا من قومي.

قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة.

خرج سعد، وجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فجاء رجال من المهاجرين فسمح لهم بالدخول ثم جاء قوم آخرون فردهم، فلما اجتمعوا أتاه سعد وقال: لقد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحمد الله وأثنى عليه ثم خاطب عقولهم فقال:

يا معشر الأنصار، مقالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها علي في أنفسكم، ألم آتكم ضلالا فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف بين قلوبكم؟

قالوا: بلى، لله ورسوله المن والفضل.

قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟

قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المن والفضل.

قال رسول الله بشجاعته الأدبية وصدقه مع نفسه: أما والله لو قلتم لصَدَقتم ولصُدِقتم: آتيتنا مُكَذّبا فصدَّقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فآويناك وعائلا فآسيناك.

صمت رسول الله قليلا ثم أردف مخاطبا قلوبهم العامرة بالإيمان وأنحى غريزة التملك فقال معاتبا: أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة (٢)[٤٤] من الدنيا تألّفتُ بها قوما ليُسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم! ألا ترضون يا معشر الأنصار أن تذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى

[٤٢](١) محمد الغزالي في فقه السيرة ص ٢٩٨ -٢٩٩ مع التصرف والإضافة
[٤٣](٢) من الوجد والحزن
[44]اللعاعة هي الشيء اليسير التافه (2)

رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا هجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلكت الناس شِعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه العبارات وكله تأثر، فأبكى الأنصار والمهاجرين معا حتى أخضلوا لحاهم. فصاح الأنصار: رضينا برسول الله قِسما وحظا *[٤٥]

فعوض رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار بحبه لهم وحبهم لله وللرسول عن لعاعة الدنيا التي ما آمنوا وبذلوا الغالي والنفيس إلا من أجلها.

***

العمرة الثانية لرسول الله

كان شهر ذي القعدة قد دخل فأحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه من الجعرانة وأمر ببقايا الفيء، فسيقت إلى مجنة وحبست بها ودخل مكة ملبيا بعمرة، فطاف وسعى وحلق وتحلل، ثم ترك مكة متوجها إلى المدينة المنورة وترك على مكة عتاب بن أسيد وجعل له راتبا هو درهم في اليوم، وخلف معاذ بن جب يعلم الناس الين ويفقههم فيه، وعاد الرسول إلى المدينة ومعه الصحابة من المهاجرين والأنصار فوصلها لست ليال بقين من ذي القعدة.

*[٤٥] من فقه السيرة – زاد المعاد – ابن هشام – صحيح البخاري – فتح الباري

الفصل الخامس

المنظومة الأخلاقية

البعوث والسرايا وغزوة تبوك

١- المنظومة الاخلاقية في الصدقة والزكاة

البعوث والسرايا وغزوة تبوك

ترك فتح مكة أثرا بالغا في نفوس العرب أجمعين، سواء كانوا من السادة أو الدهماء وجميعهم ما كانوا يتوهمون مجيء يوم يدينون فيه لسلطة بطاعة، أو يرتضون لأنفسهم دينا غير ما ألفوه من شرك، وحتى القبائل البدوية التي لم تكن تعدل بحريتها شيئا كما ذكرنا في الجزء الأول من الكتاب، فلا يدور بخاطرها أن تنضم تحت لواء غير لوائها الخاص أو تموت دون ذلك، وترك فتح مكة أيضا مسئوليات جسام، فازدياد النفقات العامة يحتاج للمزيد من التمويل، فلئن كانت مفاتيح البيت الحرام في يد عثمان بن طلحة، فالسقاية والرفادة تحتاج تمويل، وكذلك أمر الفقراء والمعوزين ونفقات الجهاد ففي هذا التوقيت فرضت زكاة المال بعد عودة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة وكانت الصدقة معمول بها في المجتمع الإسلامي، وكان التكافل الاجتماعي مندوحة لدى أهل المدينة كما علمنا وربط الله الصلاة بالصدقة والإنفاق في سبيل الله، هي رياضة روحية كمقدمة لفريضة الزكاة، وكان الحض على إطعام المسكين منذ القرآن المكي قبل الهجرة، فالمؤمنون يتحابون بنور الله بينهم والله محبة والدين محبة، والإخاء من ضمن منظومة الإيمان وكل ما اتصل بالإيمان هو من صميم العبادة، فيقول الله في كتابه العزيز تشجيعا للمؤمنين ولتعويدهم على الصدقات ويحببهم فيها:

(ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (١)

(وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ) (٢)

(قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَـٰلٌ) (٣)

(ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (٤)

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ) (٥)

(لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصلاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) (٦)[٤٦]

---

[٤٦] (١) البقرة ٢٧٤ (٢) الرعد٢٢ (٣) إبراهيم ٣١ (٤) النحل ٥ (٥) فاطر ٢٩ (٦) النساء ١١٤

فيضع الله بتلك الآيات فضائل الصدقة والإنفاق في سبيل الله في المكان الأول من فعل الخير الذي يجزى عليه الإنسان الجزاء الأوفى، ثم يحكم الله تلك المنظومة الأخلاقية ويبشر المؤمنين بالربح في الدنيا والآخرة وينهى عن الإيذاء لمن أوتي الصدقة والإنفاق في سبيل الله ممن أداها فالله غني عن هذه الصدقات للعباد إذا ما تبعها المن والأذى فيقول تعالى:

(مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ) (١)

في هذه المرحلة لم تعد الصدقة والإنفاق في سبيل الله وحدها هي المطلوبة من العبد المؤمن، فالنظام الروحي الذي نادى بهما وحبب فيهما، فانطلق أبو لبابة وجماعته من الصحابة وقالوا (يا رسول الله خذ من أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا وطهرنا) فقال رسول الله: (لا آخذ منها شيئا حتى أؤمر)

ثم كتب الله على المؤمنين الزكاة فرضا وأوجبها بالآية

(خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) (٢)

فالاستكثار من المال والحرص عليه قضى على الإخاء الإنساني ويحول دونه، وجعل الناس بعضهم لبعض عدو، وفريضة الزكاة هي الضمان الأوحد للسلم الاجتماعي، وقد فرض الله على جميع الأنبياء والرسل تلك الفريضة منذ فجر التاريخ،

فالزكاة وإقامة الصلاة فرض على أئمة الإيمان بالله فرض من قبل نزول القرآن

(وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ) (٣)

الإخلاص لدين الله منذ بداية خلق الله لا يكتمل إلا بالزكاة يأمرهم بها الله تعالى:

(وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ *إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ) (٤)

وهو تشريع منذ إبراهيم عليه الصلاة والسلام

(وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ) (٥)[٤٧]

[٤٧] (١) البقرة ٢٦١-٢٦٣ (٢) التوبه ١٠٣ (٣) الأنبياء ٧٣ (٤) البينة من ٥-٧ (٥) الحج ٧٨

وقد أمر الله تعالى موسى عيه الصلاة والسلام أهله بالصلاة والزكاة

(وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا) (١)

كما أخذ الله من بني إسرائيل ميثاقا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة

(وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ) (٢)

وأن هذا الميثاق من شأنه أن يكفر الله عنهم ذنوبهم وليدخلنهم الجنة

(وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗا وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ) (٣)

وأوصى الله المسيح عليه الصلاة والسلام بالصلاة والزكاة ما دام حيا

(وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَمَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا) (٤)

وفي عملية اكتمال دين الله أمر الله العباد من أتباع رسول الله محمد بأداء الزكاة، وقرنها الله بالعديد من الأوامر الأخلاقية، وإن كان ذكر الزكاة كانت أكثر اقترانا بالصلاة، فالصلاة وإن كانت تظهر للناس التزام المرء بالإسلام، أما الزكاة فهي التعبير الحقيقي عن الالتزام بالدين في الباطن يقول الله تعالى:

(وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلاةَ وَآتُواْ ٱلزَّكَاةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّاكِعِينَ) (٥)

(وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلاٰةَ وَآتُواْ ٱلزَّكَاةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (٦)[٤٨]

يبين الله تعالى لنا ماهية البر- فالبر- ليس في جهة قبلة الصلاة وإنما في المبادئ الأخلاقية لنمط حياة المؤمن، وهي الشريعة، والشريعة هي العقيدة الإيمانية التي يرتضيها الله للبشر فتنبني عليها الأخلاق التي تحفظ بالعبادات فتتشكل المعاملات بين خلق الله، والعبادات مع المعاملات، ككظم الغيظ والعفو وكإتيان المال للمحتاجين، والتسامح وإقامة الصلاة وإيتاء زكاة وصوم وحج واحترام للعهود، والصبر في الجهاد هي ضمانات البر، ويقول المولى عز وجل:

[٤٨](١) مريم ٥٥ (٢) البقرة ٨٣ (٣) المائدة ١٢ (٤) مريم ٣١ (٥) البقرة ٤٣ (٦) البقرة ١١٠

(لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَٱلْمَلَـٰئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّينَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُواْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ) (١)

ثم يعمم الله الزكاة على كل من آمن بالله وعمل صالحا أيا كان دينه يهوديا كان أو نصرانيا أو من الصابئة:

(إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـالِحَـاتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلاَةَ وَآتَوُاْ ٱلزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) (٢)

ويؤكد الله على هذا المعنى:

(لَّـٰكِنِ ٱلرَّاسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ أُوْلَـٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا) (٣)

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُواْٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) (٤)

ربط الله تعالى أن يكتب لمن يهتدي حسنات في الدنيا والآخرة أما عذابه فيصيب بها من يشاء ووسعت رحمته كل شيء فيكتبها لمن كانت قلوبهم عامرة بالتقوى ويؤتون الزكاة ويؤمنون بآيات الله

(وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىۤ أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَاتِنَا يُؤْمِنُونَ) (٥)[٤٩]

٢- البعوث والسرايا لتحصيل الزكاة (المجتمعات وشرع الله)

أنزل الله (كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ*كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَـٰسِقُونَ*ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ*لا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ*فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ*وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ) (١)[٥٠]

علمنا أن المشركين لما بايعوا لم يكونوا على تمام الإيمان إلا بالأفواه وكانت الزكاة معيارا للتوبة ولما فرضت زكاة المال، أرسل رسول الله البعوث لتحصيلها من القبائل فأرسل:

- عينة بن حصن * إلى بني تميم
- يزيد بن الحصين إلى أسلم وغفار

[٤٩] (١) البقرة ١١٠ (٢) البقرة ٢٧٧ (٣) النساء ١٦٢
(٤) المائدة ٥٥ (٥) الأعراف ١٥٦

[٥٠] (١) التوبة ٧-١٢

*عيينة بن حصن قد ولاه رسول الله لجلب الزكاة منهم ثم انقلب مثلهم يبخل بها

- عبادة بن بشير الأشـهلي إلى سليم ومزينة
- رافع بن مكيـث إلى جهينة
- عمرو بن العـاص إلى بني فزارة
- الضحاك بن سفيان إلى بني كلاب
- بشير بن سفيان إلى بني كعب
- ابن اللتيبة الأزدي إلى بني ذبيان
- المهاجر بن أبي أمية إلى صنعاء (خرج عليه الأسود العنسي وهو بها)
- ١٠.زياد بن لبيد إلى حضرموت
- ١١. عدي بن حاتم إلى طيء وبني أسد
- ١٢.مالك بن النـويرة إلى بني حنظلة
- ١٣. الزربقان بن بدر إلى بني سعد (قسم منها)
- ١٤. قيس بن عاصـم إلى بني سعد (قسم منها)
- ١٥. العلا بن الحضـرمي إلى البحرين
- ١٦. علي بن أبي طـالب إلى نجران
- ١٧. قطبة بن عامر إلى بني الخثعم

كانت تلك البعوث تفعيلا لاكتمال إسلام القوم كما ذكرنا، وكان أول من بعث رسول الله هو بشير بن سفيان العدوي الكلبي إلى بني كعب من خزاعة، وكانوا يتشاركون مع بني تميم على ماء، فأخذ بشير الزكاة من بني كعب المسلمة، فقال لهم بنو تميم وفيهم الأقرع بن حابس وقد استكثروا ذلك: لم تعطونهم أموالكم؟ فقال لهم بنو كعب: نحن أسلمنا ولا بد من دفع الزكاة فقال بنو تميم: والله لا ندع بعيرا واحدا يخرج وانتهزوا السلاح ومنعوا بشرا من أخذ البعير وهكذا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِ الله فلاَ عهد لَهُمْ، وقد ربط القرآن بين اليقين والإيمان وبين كل من الصلاة والزكاة وقد خص الكفر بالممتنعين عن أداء الزكاة فقال:
(ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (١)
(وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ) (٢)
(رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ) (٣)
(وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (٤)
(ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) ﴿(٥)
(وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ) ﴿(٦)
(ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ) (٧)

لما رأى ذلك بشيرا عاد لرسول الله وأخبره، والقضية هنا إذن أصبحت إنكارا لوجوب الزكاة كفرض، وإن كان الله سبحانه قد كتب على المؤمنين وفرض الزكاة فرضا وأوجبها كما أوجب الصلاة (ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ) (٨)[٥١] فلا يستقيم إيمان بإجازة المؤمن فرضا من الفروض

[٥١] (١) الروم ٤&٥ (٢) المؤمنون ٤ (٣) النور ٣٧ (٤) النور ٥٦ (٥) النمل ٣ ﴿(٦) الروم ٣٩ (٧) المجادلة ١٣ (٨) سورة فصلت ٧ ـ ربط الله الامتناع عن إيتاء الزكاة في هذه الآية بالكفر

وإنكار فرض آخر وإن كان ذلك خطرا على الفرد فالأخطر أن يصير ذلك الإنكار اتجاها مجتمع أو في قبيلة أو بطن من البطون، فالسكوت على مثل هذا الأمر سوف يشيع لا محالة في باقي البطون والقبائل، ويصبح الأمر وكأن لمجتمعات المؤمنين الحق في قبول فرض وإنكار آخر، وهي توطئة لتقويض الدين من أساسه، فبعث رسول الله عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم.

٢-١ سرية عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم (المجتمعات وشرع الله) :

كان رد الفعل الفوري من رسول الله صلى الله عليه وسلم هو قمع هذا التمرد العابث بموجبات الإيمان، وعصيان أمر الله في المجتمعات، وكان هذا العصيان هو الذي ظهرت بوادره من تميم منذ قسمة الغنائم بالجعرانة، فالإيمان بالله والتسليم لأمره هو الإسلام، والإسلام له ما له من فضائل وعليه ما عليه من التزامات، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم في المحرم من سنة تسع من الهجرة (إبريل سنة ٦٣٠ للميلاد) عيينة بن حصن إلى بني تميم في خمسين فارسا ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري واحد، فكان يسير ليلا ويكمن نهارا، فهجم عليهم فسرحوا مواشيهم ولما رأوا الجمع ولوا، وتركوا النساء والصبية وبعض الرجال فأخذوا أسرى وجلبهم للمدينة، وكان ما قد وجب عليهم أداؤه بالإيمان يؤدون أغلى منه بالإجبار.

تم استيعاب الدرس فكان في الأسر أحد عشر رجلا واحدي عشرة امرأة وثلاثين صبيا، فقدم فيهم عدد من رؤساء تميم وعلى رأسهم الأقرع بن حابس وعطارد بن حاجب والزبرقان بن بدرو قيس بن الحارث ونعيم بن سعد وعمر بن الأهتم ورباح بن الحارث، فلما رأوا الأسرى بكى إليهم النساء والصبية، فعجلوا فجاءوا للرسول صلى الله عليه وسلم، ونادوا رسول الله من وراء الحجرات فأغضب ذلك الله ورسوله ولكنه خرج إليهم

فلما نادوا رافعين أصواتهم: يا محمد اخرج إلينا، فخرج لهم فتعلقوا به وجعلوا يكلمونه.

كانوا أعرابا، وكانوا حديثي العهد بالإسلام وقد سبق حلم رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبه، كان بالإمكان القضاء عليهم في المدينة، فتوضأ رسول الله ثم مضى رسول الله حتى صلى الظهر ثم جلس في صحن المسجد ليستمع إليهم، فأظهروا رغبتهم في المفاخرة والمباهاة، وقدموا خطيبهم عطارد بن حاجب، فرد عليه ثابت بن قيس، فقدموا شاعرهم الزبرقان بن بدر، فرد عليهم حسان بن ثابت فقال الأقرع بن حابس: خطيبه أفضل من خطيبنا وشاعره أفضل من شاعرنا وأصواتهم أعلى من أصواتنا فاعتذروا إليه صلى الله عليه وسلم وأسلم من لم يكن مسلما، فرد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أسراهم، ولكن رسول الله أبقى رؤساءهم ليتعلموا الإسلام كما ينبغي من الصحابة وتعاليم القرآن.وأنزل الله تعالى فيهم الآيات:

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ*يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ*إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ*إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ*وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (١)[٥٢]

---

[52] الأقرع بن حابس مرة أخرى ودلائل النفاق (١) الحجرات من ١-٥ *

٢ـ٢ بعثة الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق (المجتمعات وشرع الله) :

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة لنفس المهمة لأخذ زكاة المال من بني المصطلق، وهم بطن من بطون هوازن، وكانوا قد أسلموا كما ذكر آنفا بزواج رسول الله من جويرية ابنة زعيمهم الحارث بن ضرار إلى رسول الله وأسلم، فأسلم من بعده كل بني المصطلق، ولم تكن الزيجة إلا لحقن الدماء، وللترغيب في الإسلام وعزته ولما بلغ الناس النبأ أرسلوا ما كان بأيديهم من أسرى من بني المصطلق، فحقن رسول الله الدماء، وهدى الناس بتلك الزيجة، وأعز الإسلام بألف منهم، وبنوا المساجد وحسن إسلامهم، لكن كان بينهم وبين الوليد بن عقبة بن أبي معيط عداوة في الجاهلية (وكان أخا لعثمان بن عفان من الأم وابن عقبة بن أبي معيط) ولما سمعوا بمجيء الوليد لتحصيل زكاة المال، خرج منهم عشرون رجل بالإبل والأغنام يؤدونها عن زكاتهم وكامل زينتهم من بينها السلاح، فخرا وترحيبا به وتعظيما لمبعوث رسول الله، لكن الوليد ظن أنهم يريدون قتله لرؤية السلاح معهم، وكانوا قد خرجوا بالسلاح الشخصي كعادتهم تجملا، فاستدار ورجع من الطريق مسرعا قبل أن يصلوا إليه، وعاد إلى رسول الله مسرعا وقال: إن بني المصطلق منعوني زكاة أموالهم وهموا بقتلي..!

أمر رسول الله بالتجهيز لغزوهم من جديد، فأمر خالد بن الوليد على رأس مجموعة من الفرسان، فذهب خالد ووجد القوم على إسلامهم، فذهب وفد منهم رسول الله يشرح ما حدث وأنزل الله تعالى الآيات ٦&٧من سورة الحجرات:

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ*وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ)

كان هذا حال من آمنوا بمكة بعد فتحها، إذ لم ينهلوا من التربية الأخلاقية التي نعم بها المهاجرين والأنصار، وكان أناسا بعينهم يصعب عليهم هذا التغيير، وكان الأمويون وكذلك الأعراب أكثرهم احتياجا لهذا النهل، ولم يتبق لرسول الله الكثير من العمر حتى ينهلوا منه وكان أخطر ما يمكن للدعوة أن تواجه هو تمكن ضعاف الإيمان من صنع القرار وتشجيع الخروج من حظيرة الإيمان..وقد حذر الله في كتابه العزيز من قبل قائلا:

(وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ آتَاهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيراثُ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (١)[٥٣]

٢ـ ٣ سرية علي بن أبي طالب لهدم صنم لطيء (المجتمعات وشرع الله) :

قدم وفد من بني طيئ وفيهم قبيصة بن الأسود وعلى رأسهم سيدهم (زيد الخيل) يعلن إسلامه، فلما انتهوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن استقبالهم، وتحدث إليه زيد، فأعجب به رسول الله وقال له:

ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه إلا زيد الخيل، فإنه لم يبلغ كل ما فيه

[٥٣] (١) آل عمران ١٨٠

ودعاه رسول الله زيد الخير بدلا عن زيد الخيل وأسلمت طيئ وزيد على رأسها، وتم الاتفاق على هدم صنمهم وكان يقال له القلس. وكان عدي بن حاتم الطائي نصرانيا وكان عظيما في قومه، وكان من أشد العرب عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فرفض هذا الدين الجديد، ومنع هدم القلس.

في ربيع الأول من سنة ٩ للهجرة بعث رسول الله علي بن أبي طالب في خمسين فارسا ومعهم مائة رجل كل منهم على بعير، ومعه راية سوداء ولواء أبيض، فشنوا غارة على محلة حاتم مع الفجر، ففر عدي بن حاتم الطائي إلى الشام، وتوجهوا إلى القلس فهدموه ووجد المسلمون في خزانة القلس ثلاثة أسياف وثلاثة أدرع، ثم سبوا الرجال والنساء وغنموا النعم والشاء، وعادوا إلى رسول الله في المدينة، وكان من بين السبي أخت عدي بن حاتم الطائي.

استعطفت أخت عدي بن حاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلة: يا رسول الله غاب الوافد (تقصد عدي) وانقطع الوالد (تقصد حاتم الطائي أشد كرماء العرب في الجاهلية) وأنا عجوز كبيرة وما بي من خدمة، فمن علي، منّ الله عليك، قال: من وافدك

قالت: عدي بن حاتم الطائي

قال: الذي فر من الله ورسوله؟ ثم مضى

تكرر هذا الاستعطاف حتى اليوم الثالث فمن عليها رسول الله، فقال لها علي بن أبي طالب: سليه الحملان، ، فأمر لها به، وكساها كسوة حسنة وأعطاها نفقتها وحملها مع أول ركب قاصد الشام، ولما عادت لعدي بن حاتم الطائي قالت له: لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها، إئته راغبا أو راهبا

فجاءه عدي بغير أمان ولما جلس بين يديه قال له رسول الله صلى الله عيه وسلم: ما يفرك؟ أيفرك أن تقول لا إله إلا الله؟ فهل تعلم من إله سوى الله؟

قال: لا

قال: إنما تفر أن يقال الله أكبر فهل تعلم شيئا أكبر من الله؟

قال: لا

قال: يا عدي أسلم تسلم، فإن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالين..

فقال: إني من أهل دين

قال: أنا أعلم بدينك منك

فقال: أنت أعلم بديني مني؟

قال: نعم، ألست من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك؟ وأن هذا لا يحل لك في دينك..

قال وهو يتدارك أمره: فإني حنيف مسلم

فانبسط وجه رسول الله فرحا، فأكرمه وأنزله بيتا من بيوت الأنصار وحسن إسلامه..

***

بعد فتح مكة وحنين وحصار الطائف جعل السادة وجعلت القبائل تفد إلى رسول لله صلى الله عليه وسلم، تعلن إسلامها وتدين بالرسالة وبالإسلام.

كان السابقون الأولون والذين اتبعوهم في واد من صحة وصدق الأيمان، وكان الأعراب، ومن أهل المدينة وآخرون يعلمهم الله في واد آخر، ولكن الله يقبل التوبة عن عباده وليس على رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى السعي لإصلاحهم بالقدوة الحسنة وبأخذ الصدقات من أموالهم للاستتابة والتطهر، وفي سورة التوبة من الآية ١٠٠ حتى ١٠٦:

(وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ*وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ*وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ*خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ*أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ*وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ* وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

٣- مولد إبراهيم بن محمد رسول الله:

كانت مارية القبطية إلى يومئذ في مرتبة السراري ؛ فلم يكن لأجل ذلك لها منزل بجوار المسجد كما لأمهات المؤمنين أزواج النبي؛ بل أنزلها رسول الله بالعالية مع أختها سيرين بنت شمعون في منزل سليم بنت ملحان من ضواحي المدينة في شهر صفر سنة ثمان من الهجرة- يوليه سنة ٦٢٩ م وكانت فتاة تبلغ من العمر ١٧ سنة (أصغر من صفية ١٩ سنة وعائشة ٢٣سنة) وكانت ما ملكت يمينه كم ذكرنا آنفا، فوطئها في بيت من أملاكه من بيوت بني النضير، ورزقه سبحانه وتعالى في ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة - إبريل سنة ٦٣٠ ميلادية من مارية القبطية بعد تسعة أشهر، غلاما دعاه إبراهيم تيمنا بإبراهيم جد الأنبياء الحنيف المسلم، ولما بشرته به فرح به أيما فرحة، ولما ولد تنافست نساء الأنصار في إرضاعه، لم يكن رسول الله يرجو أن يعقب بعد أن ظلت أزواجه جميعا ولم تبشر إحداهن بخصب عشر سنوات متتابعة منذ زواجه بعد وفاة خديجة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تخطى الواحدة والستين هجريا، وامتلأ قلب الرسول بالغبطة، فحب الذرية فطرة مركبة في جميع الطباع، فكان رسول الله ككل رجل يحرص على العقب، وفخور به ويتوق إلى استبقاء الخلف، وارتفعت مارية بهذا الوليد إلى مكانة سمت بها عن مقام مواليه إلى مقام أزواجه، وزادتها حظوة عنده، لما ولدت إبراهيم ولاحظ الناس فرحته به فخرجت الغيرة بأزواج النبي - وجميعهن لم ينجبن - عما أدبهن به، إذ كان طبيعيا أن يدس ذلك في أزواجه غيرة تزايدت أضعافا بأنها أم إبراهيم بن محمد، وبأنهن جميعا لا ولد لهن، وكان آخر عقب له (فاطمة) التي قاربت الثلاثين فبدأن يأتمرن بها وبه صلى الله عليه وسلم، وكان الإنجاب لمشروعية الزواج من قبطية، كما شرع له الله الزواج من يهودية.

٤- غزوة تبوك (آخر غزوات الرسول)

تفرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم في تعليم الناس الشرائع، والتأكيد على دعوة الإسلام وفضائله ؛ كانت جماعات الشرك بالله قد وضعت لنفسها نظاما مليء بالجور والانحلال، فمن عبادة الأصنام،

ووأد البنات، وتعدد الزوجات حتى يحل للرجل المئات منهن، والإباحية الخلقية وزواج الاستنكاح إلى إهانة المرأة وحرمانها من حقوقها، وإباحة الرق بسبب وبدون سبب والسطو على القوافل، كل ذلك قد تحول إلى نظام اجتماعي رباني يقوم بتلقينه رسول الله هذه الدعوة القوية قد لاقت الاحترام والرضوخ من عرب الجزيرة العربية قبيلة تلو الأخرى، ثم بدأت تلقي بظلالها على العرب الذين لا يزالون تحت إمرة هرقل الروم الذي انصاع لآراء رهطه، فكان يرى الخطر يتقدم إلى داخل حدوده خطوة بعد خطوة، وكان يرى في موقعة مؤتة في جمادي الأولى سنة ثمان هجريا (أكتوبر ٦٢٩ م) إيذانا بخطر داهم على الحدود، فثلاثة آلاف من العرب قد فعلوا بهم الأفاعيل أمام مئات الآلاف من الروم لأكثر من أسبوع، خاصة وأن العرب المنضمين للوائه لا يخفون إعجابهم بأشقاء الجنوب من المسلمين.

ونحت روما المسيحية نفس ما نحته اليهودية ضد الدين الجديد، فبدأت تحشد للحرب ضد الإسلام، كان الصلات الغائرة في اللاوعي بين نصارى العرب وبين المسلمين العرب تؤرق هرقل الذي كان يرى وجوب القضاء على هذه القوة الناشئة قبل أن يستفحل خطرها، فبدأ الإعداد لهذه الغزوة ضد المسلمين في شهر المحرم سنة تسع هجريا مايو سنة ٦٣٠ م، وكان أكيدر بن عبد الملك الكندي النصراني أمير دومة أكبر معاوني القيصر، ولقد بلغت الأنباء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت هذه لأنباء يتلقاها المسلمون، إذ كان يبلغهم من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن هرقل قد هيأ جيشا كبيرا، وأعطى قيادته لعظيم من عظماء الروم، وجلب معهم قبائل لخم وجذام وغيرهما من العرب المتنصرة وتستعد لغزو المدينة، وأن مقدمة هذا الجيش قد بلغت البلقاء، تلقى المسلمون هذه الأنباء بالترقب والفزع، يتخوفون ملكا من ملوك غسان ذكر لهم أنه يريد أن يسير إليهم، حتى أن عمر بن الخطاب وقد طرق أحد أصحابه عليه بابه بشدة يوما ما فحسب أن غسان قد غزت المدينة!

***

مسجد ضرار

على الجانب الآخر كانت الجاهلية تلفظ نفسها الأخير وكان المنافقون يأملون في ألا تتحقق تلك المخاوف، وقد يأسوا من مواجهة المسلمين، فهم في ظل انتظارهم للفرج على أيدي الروم، فقال لهم أبو عامر الفاسق: ابنوا وكرا واستمدوا ما استطعتم من سلاح فإني ذاهب لقيصر فآت بجند فأخرج محمدا وأصحابه، ولكيلا يلفتوا الأنظار جعلوا هذا الوكر في صورة مسجد، وعرضوا على رسول الله أن يصلي فيه خداعا لله وللرسول وللمؤمنين، فيصير وكرا مصرحا به ومأمونا للمنافقين ولرفقائهم في الخارج والداخل، لكن رسول الله كان قد انشغل بالتجهيز لغزوة وقائية عن هذا الأمر وأرجأ الصلاة فيه، لما بعد غزوة تبوك.

***

٥- إعلان التعبئة العامة لحرب استباقية:

في رجب سنة تسع للهجرة سبتمبر سنة ٦٣٠ ميلادية، قرر رسول الله (٦٢ سنة) القيام بأمر حاسم، فلئن ترك الوضع على ما هو عليه جاس الرومان المناطق التي أسلمت، والناس حديثي عهد بضوابط الدين الجديد وتبعات الالتزام به، والجاهلية التي تلفظ أنفاسها قد يأت الروم بحقنة إنعاش لها فتحيا من جديد، والمسلمون لو انتظروا الرومان حتى يأتون إلى المدينة ويهجمون على المسلمين من الأمام، طعنهم المنافقون وبقايا أهل الشرك في ظهورهم من الخلف، فكان رد الفعل الحاسم في الجهر لأول

مرة بالإعلان عن تجهيز جيش العسرة، كانت حملات رسول الله دائما في السر لمباغتة العدو، أما اليوم، فلا مناص من التجهز في العلن، فأعلن ذلك للصحابة ليس لأخذ الرأي وإنما للتجهز والمساعدة على إعداد ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل، ولم يتردد هنيهة في تقرير المواجهة بنفسه، ثم تم الإعلان لعموم الناس مخالفا بذلك باقي غزواته من تضليل العدو ومفاجأته، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم في القبائل جميعا يدعوها للتهيؤ كيما تُعد أكبر جيش يمكن أعداده، وأرسل إلى أثرياء المسلمين ليشاركوا في تجهيز هذا الجيش بما آتاهم الله من فضله بما يدخل الروع في قلوب الروم الذين عرفوا بوفرة عدتهم وعددهم، فكان في المسلمين من بادروا بقلوب ممتلئة بالإيمان فأنزل الله فيهم:

(لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَاتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ*أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (١)

لكن أيضا كان منهم من وجل فتثاقل البعض، ونزلت بعض الآيات من سورة التوبة فيمن تثاقلوا تستحثهم ولا تتجاوز التحريض على القتال:

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ*إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢)

كان الصيف لم ينته والقيظ في أوائل الخريف يصل لدرجات تجعله أشد من قيظ الصيف الحار في الصحارى، وكانت ثمار المدينة قد طابت، ثم أن الشقة من المدينة إلى بلاد الشام طويلة شاقة ووعرة تحتاج إلى الجلد والمؤونة والمال والماء، فتخلف البعض قائلا (لا تنفروا في الحر) وفرحوا بمقعدهم كارهين هذا الجهاد وأنزل الله فيهم:

(فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (٣)[٥٤]

بإصرار رسول الله صلى الله عليه وسلم على الدفاع عن دين الله قام الصحابة الأولون الأجلاء يتجهزون بسرعة بالغة، وأخذت القبائل والبطون تهبط إلى المدينة، حتى الضعفاء والمرضى أرادوا وكان بين المخلصين سبعة نفر من الفقراء يتمنون الجهاد ولكن لا يجدون ما يحملهم إلى أرض المعركة، فطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعيونهم تفيض من الدمع حزنا أن يحملهم معه وسموا البكائين فأنزل الله الرحيم فيهم:

(لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ

[٥٤] (١) التوبة ٨٨-٨٩ (٢) التوبة ٣٨-٣٩ (٣) التوبة ٨١- ٨٢

أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ * إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤)

ولهذا تسابق المسلمون في تجهيز جيش العسرة بإنفاق الأموال وبذل العطايا والصدقات.. أبو بكر الصديق كان أول من تصدق أبو بكر الصديق، وكان قد ابتاع في مكة العبيد ليعتقهم من عذاب المشركين، وانهى ما تبقى منه للهجرة، أما ما كسبه بعدها فقد وضعه كله وكان أربعة آلاف درهم في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما ترك شيئا لأهل بيته. تبعه عمر بن الخطاب فوضع في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم نصف ماله. ثم جاء الثري بن لأثرياء ذي النورين عثمان بن عفان، وكان قد جهز قبلها عير الشام، فتبرع بها كلها، مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها، ومائتا أوقية من فضة، وكان تبرعه هذا قد فاق ما تبرع به كلا من أبي بكر وعمر، فذهب قليلا وعاد وجاء بمائة بعير أخرى بأحلاسها وأقطابها ثم ذهب وعاد وأتى بألف دينار فنثرها في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان رسول الله يقلبها ويقول: ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم (٥)[55] ثم عاد عثمان وتصدق، وعاد فتصدق حتى بلغ مقدار صدقته تسعمائة بعير ومائة فرس سوى الفضة والنقود فجهز وحده ثلث الجيش، وجاء عبد الرحمن بن عوف أثرى أثرياء المدينة فتصدق بمائتي أوقية من فضة فقط! أما العباس بن عبد المطلب فوضع في حجر رسول الله مالا كثيرا، وأما طلحة وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة فتبرعوا بمال كثير، وعاصم بن عدي جاء بتسعين وسقا من تمر، ثم تتابع الناس يتبرعون بالقليل والكثير وهكذا تجهز جيش العسرة

وفي المقابل جاء المعذرون المترددون من الأعراب من قبيلتي أسد وغطفان (وهم الذين يعتذرون بالباطل عن المشاركة) ليؤذن لهم في التخلف، فلم يعذرهم رسول الله. وأنزل الله فيهم:

(لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ * لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ أَن يُجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ *) (١)

وتخلف عدد من المنافقين وهم بضع وثمانون رجلا، وكان ذلك متوقعا، وقد طلب رسول الله من عبد الله بن سلول أن يعود بجيشه للمدينة فلئن خَرَجُواْ معه مَّا زَادُوا المسلمين إِلَّا خَبَالًا يَبْغُونَ ٱلْفِتْنَةَ وَفِي المسلمين سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ

وفي موقف آخر قال رسول الله للجد بن قيس أحد بني سلمة: يا جد، هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟

فقال: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني، فو الله قد عرف قومي أنه ما من رجل أشد عجبا بالنساء مني! وأني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر!

أعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فما كانت حجته تدعو للاحترام متجحا بالفتنة وقد سقط في الفتنة من قبل، فأنزل الله فيهم جميعا:

[55]التوبة ٩٠-٩٣ (٥) جامع الترمذي، مناقب عثمان بن عفان ٢١١/٢ (٤)

(لَا يَسْتَئْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ أَن يُجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلْمُتَّقِينَ *إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ * وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ * لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ *لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ *وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ) (٢)[٥٦]

لن يعاقبهم رسول الله، فأمرهم موكول لضمائرهم وعقابهم عند الله،

انتهز سويلم اليهودي الفرصة وطفق يجمع الناس في بيته ليزيد المنافقين نفاقا، ويحرض الناس على التخلف عن القتال، فكانت دعوة لا يصح التهاون فيها، فكما أمست الزكاة بالنسبة للأفراد مرهونة بالإيمان وبالضميروموكولة لحساب الله، فالجهاد أيضا مرهون بالإيمان وبالضمير وموكول لحساب الله، أما أن تصير هنالك دعوة لرفض الزكاة أو أخرى للتحريض على التخلف عن الجهاد، فذلك يصيب المجتمع إن استفحل أمرهم، فرأى أن يأخذهم بالشدة، وبعث إليهم طلحة بن عبيد الله في نفر من الصحابة، فحرق عليهم بيت سويلم، وفر أحدهم من ظهر البيت فانكسرت رجله، واقتحم الباقون النيران فأفلتوا، فلم يعودوا لمثلها، ثم كانوا مثلا لغيرهم ولم يجرؤ أحد بعدها على بث الهزيمة في جنود الله زمن الحرب

٦- تأهب جيش العسرة للرحيل (آخر وأكبر جيش خرج مع رسول الله)

استخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة الأنصاري على المدينة، واستخلف علي بن أبي طالب على أهله، وتحرك الجيش فارتقت النساء أسقف المنازل يشهدن هذا الجحفل الجرار إذ اجتمع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثون ألفا من المسلمين في رجب سنة تسع للهجرة – سبتمبر سنة ٦٣٠ ميلادية وثار النقع وصهلت الخيل تاركا وراءه القواعد والخوالف ممن آثروا الظل والنعمة على الجهاد، فحرك منظر الجيش الذي يتقدمه عشرة آلاف فارس بعض النفوس التي لم تحركها دعوة الرسول إلى الجهاد، كان لأبي خثيمة امرأتين قد رشت كل منهن عريشا وبردت فيه ماءا، وهيأت له طعاما فقال أبو خثيمة: رسول الله في الضخ والريح والحر وأبو خثيمة في ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء في ماله مقيم! هيئا لي زاد حتى ألحق به، ولحق برسول الله فرضي الله عنه، وكان عمير بن وهب الجمحي هو الآخر قد تأخر في الخروج فأدرك أبا خثيمة في الطريق فترافقا، فأسرع أبو خثيمة حتى دنا من الجيش، فقال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله:

كن أبا خثيمة..قال الناس: يا رسول الله، هو والله أبو خثيمة (١)

سار الجيش ولم يكن له - في هذا الجمع الكبير- من الميرة ما يكفي رغم التبرعات السخية من أثرياء المسلمين وفقرائهم بل كان في قلة شديدة بالنسبة للزاد والركب، فكان ثمانية عشر رجلا يعتقبون بعيرا واحدا، وبعد نفاذ الطعام والماء منهم أكلوا أوراق أشجار الصحراء حتى تورمت شفاهم، فاضطروا إلى ذبح بعض العير – مع قلتها – ليشربوا ما في كروشها من ماء، وقد أنزل الله فيهم (لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢)[٥٧]

[٥٦] (١) التوبة ٤٢-٤٣ (٢) التوبة من ٤٤- ٤٩

[٥٧](١) رواه مسلم ٢١٢٢/٤ رقم ٣٧٦٩ (٢) التوبة ١١٧

وسمي هذا الجيش بجيش العسرة بعد نزول هذه الآية، سار الجيش حتى بلغ الحجر، فمر في طريقه بوادي القرى بديار ثمود (وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ) (١)

فذهب الناس يستقون من بئرها فقال رسول الله: (لا تشربوا من مائها ولا تتوضأوا منها للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه للإبل ولا تأكلوا منه شيئا واستقوا من البئر التي كانت تردها ناقة صالح ولا تخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم ؛ أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين ولا يخرجن أحد منكم الليل إلا ومعه صاحب له) خفض رسول الله رأسه وأسرع بالسير حتى جاز الوادي (٢)[58]

خرج رجلان من بني ساعدة، أحدهما لقضاء حاجته، فخنق في طريقه، والآخر في طلب بعير له فاحتملته الريح حتى طرحته في جبال طيئ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألم أنهكم أن يخرج أحد منكم إلا ومعه صاحبه؟

فدعا للذي أصيب بخنق الجن فشفى، أما الذي حملته العواصف لجبال طيئ فأعادته طيئ بعد عودة الرسول للمدينة.

الطريق طويل ووعر، والحر شديد، والزاد معدوم، فيتخلف الرجل عن الركب، فيخبر رسول الله بذلك فيقول: دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن كان غير ذلك فقد أراحكم الله منه

تأخر أبو ذر الغفاري وهو الصحابي الجليل، إذ أنهك بعيره ولم يد قادرا على السير، فأخذ أبو ذر متاعه وحمله على ظهره وظل يعدو ليلحق بالركب، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله! إن رجلا يمشي على الطريق وحده فقال صلى لله عليه وسلم: كن أبا ذر، فكان كذلك فقال رسول الله صلى اله عليه وسلم: رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده وكذلك كان، وكذلك أصبح، وكذلك يكون، فسبحان الله رب العالمين

أصبح الناس ولا ماء لهم فشكوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا ربه، فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، وأخذوا حاجتهم من الماء؛ ففرح المؤمنون واستبشروا خيرا فقال المنافقون: سحابة مارة! وأنزل الله:

(ما كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ

ٱلْمُحْسِنِينَ *وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) (١)[٥٩]

ضلت راحلة النبي صلى الله عليه وسلم فخرج الصحابة يبحثون عنها ولما لم يجدوها قال زيد بن اللصيت القينقاعي، وكان منافقا أصله من يهود بني القينقاع قال: أليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم بخبر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟

---

[58] الفجر - ٩ (٤) صحيح البخاري باب نزول النبي الحجر ٦٣٧/٢ (٣)
[٥٩] (١) التوبة ١٢٠- ١٢١

وكان عمارة بن حزم يشاركه رحله، فاستدعى رسول الله قوما وفيهم عمارة فقال: (إن رجلا قال أليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم بخبر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟ وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني عليا، وهي في هذا الوادي في شعب كذا وكذا؛ وقد حبستها شجرة بزمامها فانطلقوا حتى تأتوني بها) فأتوه بها

برز بعض المنافقين منهم وديعة بن ثابت ومخشي بن حمير وغيرهم فقالوا يثبطون الهمم: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا، والله لكأنا بكم غدا مقرنين بالحبال

كانت مقولة تنم عن الإحساس بدونية الأصل فهم يخسفون بقدراتهم كعرب أمام بني الأصفر (الروم) وهو داء يتسم بالرق الاختياري ربما لا يزال موجودا لليوم.. فقال مخشي: والله لوددت أن أقاضي على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة وأننا نغلب أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمار بن ياسر: أدرك القوم فإنهم قد احترقوا، فاسألهم ماذا قالوا فإن أنكروا قل لهم بل قلتم كذا وكذا.

أدركهم عمار وقال لهم ما أمره به رسول الله فهرع القوم لرسول الله يقولون: إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله فيهم:

(أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ* يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ*وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ (١)

ويجلس الجلاس بن سويد يقول لبنيه: لئن كان ما يقول محمد حقا لنحن شيء من الحمير، ولما أفشي سره ربيبه لرسول الله أنكر قائلا: والله ما قلته يا رسول الله. فانزل الله فيه

(يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ) (٢)[٦٠]

٧- رسول الله في تبـــوك:

كانت الروم قد بلغها أمر هذا الجيش وقوته، فثلاثة آلاف من العرب قد فعلوا بهم الأفاعيل أمام مئات الآلاف من الروم لأكثر من أسبوع، فماذا عن عشرة أضعافهم، وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه، وكل قادته بما فيهم ذلك الداهية خالد، خاصة وأن عامة العرب النصارى المنضمين للواء الروم لا يخفون إعجابهم بأشقاء الجنوب من المسلمين، فآثر القيصر الانسحاب بجيشه إلى داخل حدوده ليحتمي ببلاد الشام في حصونه، ولما بلغ ذلك للنبي بعد أن بلغ بجيشه تبوك لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم محلا لتتبعهم داخل بلادهم لعل الله يهديهم إلى سواء السبيل دون قتال.

تبوك تقع شمال جزيرة العرب ويحدها من الغرب خليج العقبة، بقي فيها جيش المسلمين عشرين يوما، وتم خلالها أن أقبل يوحنا بن رؤبا إلى رسول الله وعلى صدره صليب كبير من الذهب، وقدم الهدايا لرسول الله وهو أمير آيله (إيلات) - وكان ملكه يمتد غربا لدير سانت كاترين بجبل الطور- طالبا الأمان والطاعة، فأهداه رسول الله رداء من نسيج اليمن وأحاطه بكل صنوف الرعاية والاحترام، وعرض عليه الإسلام فلما أبى يوحنا تم الاتفاق عى أن يدفع الجزية، وكتب له الرسول عهد أمان (لا

---

[60] التوبة ٦٣-٦٥ (٢) التوبة ٧٤ (١)

يزال ضمن مقتنيات الدير للآن) وما أن وصلت الأنباء لباقي أمراء الروم على حدود جزيرة العرب حتى صالحه أهل جرباء وأذرح وأعطوه الجزية وأخذوا عهد الأمان من رسول الله وفيه نص على ذمة رسول الله والأمان للأموال والسيارات في البر وفي البحر..

لم يبق رسول الله في حاجة إلى القتال بعد انسحاب الروم وتأمين الحدود بالعهود، إلا أن أكيدر بن عبد الملك الكندي ملك دومة الجندل الذي ظل على ولائه للروم كان أمرا نبغي حسمه، فأرسل إليه خالد بن الوليد في خمسمائة فارس، وقال له: إنك تجده يصيد البقر. وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصدا المدينة المنورة..

أما خالد بن الوليد فقد قاد جيشه إلى أن بلغ دومة الجندل فكمن خالد في ليلة مقمرة، فبانت البقر تحك بقرونها باب القصر، فقالت له امرأته: هل رأيت مثل هذا من قبل قط؟ قال: لا والله فمن يترك مثل هذا، ثم نزل وركب معه نفر من أهل بيه في حلة صيد سهلة وفي غفلة من مليكها مع أخ له يسمى حسان، اصطاده خالد وقتل حسان، ثم أسر أكيدر وأمره أن يفتح أبواب القصر بدومة الجندل وإلا قتله، ولم يلق خالد مقاومة، وساق خالد ألفي بعير، وثمانمائة شاه وأربعمائة وسق من بر، وأربعمائة رمح، وأربعمائة درع، واصطحب أكيدر وعلى رأسه تاجا من الذهب وحلي.

قبل مجيء خالد في طريق عودة هذا الجيش الجرار إلى المدينة، انتاب أغلب الجنود إحساسا بالإحباط، فبعدما كان التوجيه المعنوي وشحذ الهمم قد بلغ مبلغه منهم، وبعد مشقة السفر بمسيرة شهر كامل وبقاء في العراء عشرين يوما، ثم عودة في شهر آخر في قيظ الصحراء وقد ضحوا بثمار المدينة التي طابت، لم يقاتلوا، ولم يأسروا، ولم يغنموا شيئا، فجعل جماعة منهم يستهزئون بما حدث.

أخذ رسول الله المستهزئين بالشدة حينا وباللين أحيانا، وتواطأ إثنا عشر من المنافقين على قتل رسول الله صلى اله عليه وسلم، وكانت الخطة أن يضايقوه في عقبه (من خلفه) في الطريق حتى يسقط من راحلته فيهلك صلى الله عليه وسلم، كان حذيفة بن اليمان آخذا بخطام ناقته صلى الله عليه وسلم، وعمار بن ياسر يسوقها – وإذا باثني عشر راكبا قد اعترضوا ناقة رسول الله فأنتبه رسول الله وصرخ فيهم، فولوا مدبرين ولم يلحق بهم أحد، وفي هذا الحدث أنزل الله تعالى:

(وهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ) (١)[٦١]

ودعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصابتهم الدبيلة وهي خراج يظهر في الظهر فيهلك به صاحبه

قبل نهاية الطريق إلى المدينة جاء المستهزئون الرد، إذ وصل خالد بن الوليد والتحق بالمسلمين فبهت المستهزئون وهم يرون الشاه وأوساق البر، والرماح، والدروع، ومليك دومة الجندل أكيدر بن عبد الملك الكندي أسيرا وعلى رأسه تاجا من الذهب والحلي وفوق كل ذلك عرض عليه رسول الله الإسلام فآمن بالله وبالرسول بل وأصبح حليفا لرسول الله صلى الله عليه وسلم..

لم يدرك كثير من هؤلاء مغزى الاتفاق مع ملك دومة الجندل الذي آمن بالله وكذلك العهود مع أمير أيلة (إيلات) وأهل أذرح وجرباء وتأمين الشمال، فالنظرة الضيقة قد حصرتهم فيما غنمه من شارك في غزوة حنين، فانتظرت القبائل مثل ما غنمه من شارك فيها، وربما شطحت عقولهم لاستجلاب

[٦١](١) التوبة ٧٤

أسيرات من بني الأصفر، ولم يطلع أحد بعد على ما أنزل من القرآن من سورة التوبة التي تفضح المنافقين.

٨ـ رسول الله في المدينة

عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أن وصل جاء أفرادا من المتخلفين عن الجهاد يعتذرون وأكثرهم كاذبون، فأعرض رسول الله عما صنعوا تاركا لله حسابهم مثلهم مثل ثعلبة رافض الزكاة وسيأتي ذكره، فالحكم واحد عند الله فيمن يرفض الزكاة وفيمن ينأى بنفسه عن الجهاد فكلاهما يحمل وزره بنفسه، أما رفض الزكاة والجهاد من المجتمعات فعلى الرسول والمسلمين قتالهم ما داموا مسلمين، لكن ثلاثة صدقوا الله فاعترفوا بذنبهم وهؤلاء الثلاثة هم:

كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية فأعرض عنهم رسول الله، فلم يحاكمهم، ولم يسجنهم أو يعدمهم، فقط أعرض عنهم خمسين يوما، وقد أعرض عنهم المسلمون بالتبعية، إلى أن عفى الله عنهم وأنزل سبحانه وتعالى:

(مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ*إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ* لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ*وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ*يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ) (١)

ولكنه بدأ من يومها معاملة المنافقين في شدة لم يألفوها.

حرق مسجد ضرار. كان عدد المسلمين قد زاد وتغير الأمر، فبعد أن كان المسلمون منحصرين في المدينة انتشروا في أجاء الجزيرة العربية، مما يجعل عبث المنافقين خطرا يجب تلافيه تماما حرصا على سلامة الجماعة، فكان حكم العبادة للجماعات تماما كحكم امتناع الجماعات عن الزكاة والجهاد إذ كان المنافقون قد عرضوا على رسول الله أن يصلي في هذا مسجد خداعا لله وللرسول وللمؤمنين، فيصير وكرا للضرار والكفر ومصرحا به وحجة للمنافقين على مر العصور، لكن رسول الله كان قد أرجأ الصلاة فيه لما بعد غزوة تبوك ولما نزل فيهم وفي مسجدهم:

(وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ * أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ، لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٢)[٦٢]

أمر رسول الله مالك بن الدخشم ومعن بن عدي بن عامر ووحشيا بهدم مسجد ضرارفخرجوا مسرعين حتى أتوا مالك بن عوف فحرقوه وهدموه وفرمن كان فيه، وكان بن الدخشم متهما بالنفاق فقال عتبان بن مالك لرسول الله أنه منافق فقال رسول الله: أليس يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله؟

---

[٦٢] (١) التوبة ١١٥-١١٩ (٢) التوبة ١٠٧-١١٠

قال بلى ولكن لا شهادة له

فقال: أليس يصلي؟

قال: بلى ولا صلاة له

قال: أولئك الذين نهاني الله عنهم، ولا يصح عنه النفاق وقد ظهر من حسن إسلامه ما يمنع اتهامه.

فأرسى بذلك رسول الله هذا المبدأ الفقهي فالله يعلم بما في قلوب الناس، فأغلق أبواب الاتهام بلا جريرة

كانت المدينة في حاجة ماسة لاستكمال التشريع، وكانت مهمة رسول الله على وشك الانتهاء، ولقد كان المجتمع الفاضل في مدينة رسول الله قابل للتعلم والاستزادة من الهدي، كما كان في احتياج شديد لهذا الكمال والاستكمال،

٩- ثعلبة وزكاة المال (الأفراد وشرع الله)

ذكرنا من قبل أن قضية إنكار وجوب الزكاة كفرض لا يجعل لإيمان أن يستقيم بإجازة فرض من الفروض وإنكار لآخر، خاصة أن يصير ذلك الإنكار اتجاها في قبيلة أو مجتمع، فالسكوت يشيع في باقي المجتمعات، ويصبح الأمر وكأن لتلك المجتمعات الحق في قبول فرض وإنكار آخر، وهي توطئة لتقويض الدين من أساسه، أما في نطاق الفرد، فقد كان لرسول الله - وبوحي من الله - رد فعل آخر

مجتمع الزكاة مجتمع لا تحيطه النكبات ولا تستذله المصائب، مجتمع نظيف اليد والقلب، فيه رجال يطهرون أجسادهم قبل الصلاة، فلما يؤدون الصلاة تتطهر أرواحهم، ولما يؤدون الزكاة تتطهر أموالهم فقد تجد في تلك المجتمعات الفقير ولكن لا تجد المحتاج المسكين، ثم تجد الثري ولا تجد الطامع الشحيح معدوم الوفاء لمجتمعه، وهو أمر موكول للضمير للأفراد ومؤكد بالفرض في المجتمعات، أما في الأفراد فكل موكول لضميره ففي في العام السادس من الهجرة جاء ثعلبة بن حاطب الأنصاري لرسول الله فقال (يا رسول الله، أدع لي الله أن يكون لي مالا) .

كان ثعلبة من الرجال الأتقياء الذين دخلوا الإسلام مبكرا، وقد آخى رسول الله بينه وبين الصحابي الجليل معتب بن عوف، لم يكن ثعلبة ثريا، وإنما يستره الله ببعض الغنيمات، وقد شهد ثعلبة بدر وباقي المواقع، وكان يحضر كل صلاة الجماعة ويحرص على الاستزادة من العلم والإيمان، لكن الله عالم الغيب أوحى لرسوله صلى الله عليه العالم بنفس ثعلبة البشرية فقال له رسول الله: (أما ترضى أن تكون مثل نبي الله؟ فو الذي نفسي بيده لو شئت أن تسير الجبال معي ذهبا وفضة لسارت)

لكن ثعلبة قد غلبه الأمل في أن يصبح ثريا وألح على رسول الله بعدها بأيام بنفس الطلب، فقال له رسول الله: (ويحك يا ثعلبة، قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه)

قال ثعلبة: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله لي فرزقني مالا لأعطين كل ذي حق حقه!

فقال رسول الله صلى اله عليه وسلم: (اللهم ارزق ثعلبة مالا)

وكان رسول الله يعلم أن لن يبر بقسمه، فنمت أغنامه نموا جعلته يتنحى عن المدينة، فنزل واديا من أوديتها، فجعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما، ثم نمت وكثرت أكثر فأكثر فترك صلاة الجماعة إلا صلاة الجمعة! ثم نمت أكثر وأكثر حتى ترك صلاة الجمعة أيضا، فطفق يتلقى الركبان، ليسألهم عن أخبار رسول الله، وغير المال هذا الصحابي، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا: (ما فعل ثعلبة؟)

فقالوا: يا رسول الله اتخذ غنما فضاقت عليه المدينة

فقال رسول الله: (يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة)

ولما أنزل الله فريضة الزكاة في الآية ١٠٣ من سورة التوبة (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) أرسل رسول الله من ضمن من أرسل رجلين على الصدقة أحدهما من جهينة والآخر من سليم إلى كل من ثعلبة ورجل آخر من سليم، فلما أتيا ثعلبة سألاه الزكاة المفروضة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلمزهما ساخرا وقال: ما هذه إلا جزية وتلك أختها (مشيرا إلى الشمال ويقصد الروم) !

يقصد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفرض جزية كما يفرضها الرومان بغير الحق ولا فرق بين جزية الدولة الرومانية وزكاة المال المفروضة من المال الذي آتاه الله من فضله! ثم قال لهما: انطلقا حتى تفرغا من السلمي ثم عودا إلي..وانطلق الرجلان حتى أتيا السلمي فنظر إلى أفضل إبله فعزلها للصدقة فقالا له: إنما تريد أوسط إبلك وليس أفضلها ولكن الرجل أصر أن يتصدق بأفضل ما عنده، فذهبا إلى ثعلبة فكرر سخريته وأعطاهما الهزيل من غنمه والمريض، فلما أشارا عليه بأوسط ما عنده رفض فتركاه وعادا لرسول الله، ولما رآهما من بعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعم الإبل ولا غنم قال: هلك ثعلبة

سمع رسول الله أحد أقارب ثعلبة فذهب إليه مسرعا ينذره وأنزل الله فيه: (وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ * فَلَمَّآ آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ * أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلامُ ٱلْغُيُوبِ * ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَاتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١)[٦٣]

هرع ثعلبة بعدما علم ما أنزل فيه، يرجو الرسول أن يقبل منه زكاة ماله، فأبى رسول الله قائلا (إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك) جعل ثعلبة يجثوا على رأسه التراب، فقال له رسول الله (هذا عملك فقد أمرتك ولم تطعني) ولم يقبل صدقته وزكاته أبو بكر بعد وفاة رسول الله ولا قبلها عمر ولا عثمان من بعده.

١٠ـ المنظومة الأخلاقية والشريعة بين المجتمع والفرد

إذن فقد أوكل الله جلت حكمته للفرد عمله، فلا إكراه في الدين في الشريعة للفرد فمن ينكر فريضة فقد باء بغضب من الله، ولا يظلمن إلا نفسه على ألا يشيع في الناس ذلك الإنكار حتى لا تكون فتنة بين الناس.. أما المجتمعات فقد أوكلها الله للقائم عليها، فواجب القائم على المجتمع أن يأمر بالمعروف وينه

[٦٣] (١) التوبة من ٧٥-٧٩ راجع تفسير بن كثير جـ ٢ ص ٣٧٤ وتفسير كل من القرطبي وفتح القدير والدر المنثور وزاد المسير لابن الجوزي والطبري

عن المنكر، ولا يتجاوز الأمر والنهي، ولكن لا يسمح بإنكار الشريعة من صلاة وصوم وزكاة وجهاد وحج في المجتمع أو جزء منها ولو أدى الأمر أن يحارب عليها فيشترك الفرد (القائم على بيته والمسؤول عنه أمام الله) مع الحاكم (القائم على مجتمعه والمسؤول أمام الله عنه) في وجوب تطبيق الشريعة للبر ولتقوى الله ما استطاعا، والشريعة تنبني على أساس العقيدة الإيمانية الأخلاق والعبادات والمعاملات والأمر بالمعروف

الشهادة: ينسحب هذا على من شهد شهادة الحق، فشهادة أن لا إله إلا الله، توجب نبذ الشرك في المجتمع ولو قامت الحرب عليها، أما شهادة أن محمدا رسول الله فذلك يوجب التسليم بكل ما أتى به من الحق فإن لم يسلم بما جاء به رسول الله في القرآن فقد خرج من الملة، وهو أمر يعني الفرد وحده، فإن روج للخروج من الملة بين الناس وجب على الحاكم الضرب على يده.

الصـلاة: الصلاة كما أسلفنا تطهر الأرواح وهو واجب الفرد كرقيب على نفسه، أما واجب القائم على المجتمع فهو أن يأمر بها وينه عن تركها، ولا يتجاوز الأمر والنهي، ولكن لا يسمح بإنكار الصلاة في المجتمع ولو أدى الأمر أن يحارب ولي الأمر عليها أما فلا يكره الفرد على الصلاة وإنا يمنع من يشيع في الناس عدم وجوبها.

الزكـاة: لا يكتمل إيمان الفرد أن ينكر الصلاة وهو يؤدي الزكاة، وإن كان ترك الصلاه لا يكفره إن أدى الزكاة فترك الصلاة يجعله عاصيا فحسب، إذ يزين شيطان المرء لنفسه عدم وجوبها بشتى الجج، في سورة آل عمران – الآية ١٨٠

(وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ آتَاهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيراثُ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) أما فيما يتعلق بالمجتمعات فالأمر بها والنهي عن تركها هو واجب ولي الأمر ولا يسمح بإنكار الزكاة والصلاة في المجتمع ولو أدى الأمر أن يحارب الحاكم عليها في حالة الإنكار المجتمعي،

الحـــج: ينحصر دور القائم على الأمر على أن يأذن للناس بالحج وييسر له، ولا يأمر سواء المجتمع أو الفرد ويحظر عليه تقييدها.

الصوم: وحكمه كحكم الصلاة والزكاة

الجهاد: فرض عين ولكن حكمه كحكم ما سبقه وواجب ولي الأمر التحريض عليه ولنا في غزوة تبوك التطبيق العملي على ما نذهب إليه.

(فَقَاتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ)(١)

(يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ)(٢)[٦٤]

النهي عن المنكر. الخمرو الميسر. جاء التشريع لاستكمال مكارم الأخلاق متدرجا ليعتاد المسلم على تركها، فجاء أمر الله بألا يقرب الصلاة سكرانا فالصلاة تقام خمس مرات يوميا، فاقتصر شرب الخمر

[٦٤] (١) النساء ٨٥ (٢) الأنفال ٦٥

على أوقات محددة للتخلص من الكحول في الدم تدريجيا (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ) (١)

ثم جاء النصح (يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا) (٢) ثم جاء ماهو أكثر من التحريم ألا وهو الاجتناب فالتحريم مشمول فيه

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ (٣)

ولما كان تحريم الخمر بهذه الآية قد صدم العديدين من اللذين يحبونها ويدمنون عليها، ولما كان هذا المجتمع الفاضل قد سبق العالمين في تحريمها، فقد شق على الناس هذا الأمر رغم التدرج فيه، وكان الناس يتحايلون على هذا الأمر الإلهي، وخاصة من يتكسبون من الخمر كمورد للرزق، فلما أراد رسول الله أن يريق الخمر كان يطوف بالأسواق يغير المنكر بيده بخنجر فيقطع به القرب المعدة للبيع، ولما تكرر هذا الأمر مع بائع، فما كان يرى رسول الله ماشيا بالأسواق فيهرع بقربته موليا، ويضحك رسول الله منه، كان هذا هو تغيير المنكر باليد، ثم أوكل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر يوما من الأيام إلى عمر بن الخطاب كاره الخمر، فخرج عمر مع نفر وفي المدينة زقاق خمر جلبت من الشام فشق ما كان فيه فلم يترك زقا إلا شقه، وكان عمر لا يقوم به إلا بتوكيل من رسول الله، فإن لم يوكل إليه هذا الأمر ما كان يتجاوز القول بالنصح أوالنهر، وكان رضي الله عنه - في حياة رسول الله – يتمنى من قلبه أن يقلع الناس عن الخمر ممتثلا لقوله صلى الله عليه وسلم: (من رأى منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه)

وترتبط الاستطاعة التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتوكيل فالمحرمات الاجتماعية ينبغي أن تكون في يد ولى الأمر لا في يد كل فرد يعتقد أنه يعرف الحلال والحرام، فالمسألة هنا ليست مسألة تحريم وتحليل، ولكنها مسألة إدارة تنفيذ في مجتمع حافل يشتمل على مختلف المشارب والأهواء، ولا يصاب ببلاء هو أضر عليه من بلاء الفوضى والاضطراب وانتزاع الطاعة وتجاهل السلطات ولما تولى عمر الخلافة غير المنكر دون توكيل فكان هو الموكل.

إتقان العمل. يوجه رسول الله العالمين قائلا: (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه)

النهي عن الغش في التجارة. مر رسول الله في الأسواق، فوجد بائعا يضع الثمار الناضجة والسليمة ظاهرة من أعلى بضاعته ويخفي المعطوب في الأسفل فقال له: (من غشنا فليس منا) وكانت الموازين تكيل غشا فأنزل الله تعالى:

(وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) (١)

النهي عن الظلم العدوان بين الناس. يقول رسول الله تعقيبا على رجلين قد اختصما له صلى الله عليه وسلم: (إنما أنا بشر مثلكم، وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فأقضي له بنحو ما أسمع..فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له بقطعة من نار)

ويقول الله تعالى في حديث قدسي (يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظلموا)

في سلوك رسول الله نبذ للظلم فيقول صلى الله عليه وسلم: (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة) (اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب) (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)

والتمايز أشد أنواع الظلم وقاحة وإجراما، حتى لو شعر المسلم بتميزه عن الكافر فيرغب في ظلمه فيلوم الله على من بغي أثناء فتح مكة فيقول: (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ) (٢)

والعدل في الأحكام يقول في تحكيم المسلمين في قضايا بين تقع بينهم وبين من ظلموهم والمخالفين لهم في الدين والعقيدة:

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ) (٣)[٦٥]

وقد شرط الله تعالى القوامة والعدل ولو على حساب النفس وكذلك الوالدين أو الأقربين، والنهي عن اتباع الهوى كما في قوله تعالى:

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) (١)[٦٦]

محاربة الرق والحث على العتق

جاء الإسلام باكتمال المنظومة الأخلاقية للبشرية، فنهى عما نهت عنه كل الأديان اتي سقت الإسلام، وأمر بكل ما أمرت به، ثم زاد عليها بأمر وبنهي لم تكن البشرية لتقبلة بعد لما كان بها من قصور في النضج بما يكفي، ولقد رأينا كيف عانى الناس من الإقلاع عن الخمر كمثل لما بادر به الإسلام في تحريم ما لم يكن محرما في التشريعات السابقة له، لم يكن الله جلت قدرته ليترك الغبن البشري في أمر الرق دون تطهير البشرية منه، فقد أنشأت العصور الهمجية القائمة على السلب نظام الرق بتشريع الأسر، وكاد التزاوج بين البشر يقتصر عليه سببا من القبائل المهزومة، وكان الأسياد الرومان يعملون على الترفيه عن الشعب الروماني بحفلات صاخبة في مدرجاتهم الرومانية الشهيرة القائمة على التقاتل بين العبيد حتى الموت (٢)[٦٧] وكان حكماء الأمم في طبقة أفلاطون وأرسطو يرتبون نظام المجتمع عليه، كان الأحبار والقساوسة يعتبرونه قضاءا عادلا من الله فيأمرون العبد بطاعة سيده والإخلاص له كما يطيع الرب، واستمرت الأمم في هذا الجور حتى بدايات القرن العشرين، وكان النظام الاجتماعي والاقتصادي حتى ذلك العهد يهدر حقوقهم في الكرامة وحتى الحياة، ولنا أن نذكر أمثلة قليلة عن هذا، فقبيل الثورة الفرنسية كان النبيل إذا ابتاع سلاحا ناريا يجربه أولا على عبيده، وكان للسيد في أوروبا حتى القرن الثامن عشر، الحق في فض غشاء البكارة وقضاء الليلة الأولى لزوجة رقيق أرضه (Jus Prima Noctis) (٣)[٦٨] وخلال المائة والخمسين سنة الأولى من اكتشاف الأمريكتين تم استعباد ستة عشر مليونا من الأفارقة وقد مات ضعف هذا الرقم في الطريق ، وحتى عام ١٩٥٩ مارس النظام

---

[٦٥] (١) الإسراء ٣٥ (٢) المائدة ٢ (٣) المائدة ٨

[66] النساء ١٣٥ (١)

[67] عد إلى الجزء الأول من هذا الكتاب (٢)

[68] عد إلى مسرحية (حق الليلة الأولى) لبون مارشيه (٣)

العنصري في جنوب إفريقيا نظام الفصل العنصري (Apaartheid) وحق الأشراف والوصاية (Baskap) ولما كان التدرج في تشريع تحريم الخمر قد مر عبر تدريجات أربع ونزلت فيها الآيات على مر عشر سنوات، فقد كان لتشريع منع الرق ومحاربته نفس التدرج والحذر فجاء الإسلام بالعتق في مواجهة الرق المستأصل في العالم أجمع، فشجع على إطلاق الأسير أو قبول فدائه: (فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) (٤)[69]

كما أتاح الإسلام للعبد أن يفتدي نفسه، بل وحث مالكه أن يعينه، وحرم استخدام رقيق البغاء (وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىَ آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَاتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (٥)[70]

كما فرض الله على المسلمين العتق ككفارة لذنوب كثيرة كالمظاهرة للنساء أوالقتل الخطأ والصوم وغيره (وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٦)[71]

حتى اللغو في الأيمان (لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ فَكَفَّارَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ) (١)

أوالقتل الخطأ (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) (٢)

١١ـ مكانة الأسلام في قلوب العرب:

بعد فتح مكة وعودة الجند ورسول الله سالمين موفورين غانمين، وبعد انسحاب هرقل عظيم الروم من ساحة القتال خوفا، ثم حرق مسجد ضرار كانت أغلب آيات سورة التوبة قد وضعت حدا فاصلا بين الإيمان والكفر، وقد فضحت الآيات المنافقين فضحا تاما فلم يعاملوا بالرفق واللين، ونهي الله رسوله حتى عن قبول زكاتهم وصدقات أموالهم، وفضح الآيات للمنافقين بالإشارات التي كادت تذكرهم، وكان إخبار الله لرسوله بما يدور في الخفاء ومن وراء ظهره سواء فيما يتعلق بمسجد ضرار، أو ما قد قيل أثناء التواجد بمكة وحنين، وأثناء التوجه لتبوك كل هذا قد أرعب المنافقين والمشركين، وقد قاربت المنظومة الأخلاقية على الاكتمال، فمنهم من أعجب بها وآمن، وأغلبهم استسلم للأمر الواقع، ومنهم من استكان للإسلام كسلطة بديلة لسيطرة القبائل المشركة على بلاد العرب، ومنهم من لم يجد للإسلام بديلا وعنه محيدا ولا مناصا، فقد بثت تلك الغزوة في القلوب العربية إحساسا جديدا بالرفعة وأنهت الدونية الاختيارية من عقولهم، وكان منهم أيضا من آمن بدين الله وبالرسول إيمانا صادقا، وبأن دين الله هو الدين الحق الذي سيظهره الله جل وعلا على الدين كله.

---

[69] سورة محمد - ٤ (٤)
[70] النور ٣٣ (٥)
[71] المجادلة ٣ (٦)

(وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ ﴾ (٣)[72]

١٢ـ عام الوفود:

كان عام الوفود هو التتويج العملي لكفاح رسول الله والذين معه بعد نيف وعشرين عاما من المعاناة والنضال فعلاوة على من بايع رسول الله بعد المعارك من المناوئين، فقد بايعت بعض القبائل بالاختيار الحر، أو بعد دعوتهم وجاءت الوفود، كانت العرب منذ بدء الدعوة يقولون: إن ظهر عليهم فهو نبي صادق وإن ظهروا عليه فقد كفوكم شره، فتأكدوا بـعد تبوك أنه النبي فتوافدوا بين العام التاسع والعاشر الهجري ما يزيد على سبعين وفدا قد أتى رسول الله منها:

- وفد عبد قيس
- دوس
- صداء
- عذرة
- بلي
- ثقيف
- ملوك اليمن
- همدان
- بني فزازة
- نصارى نجران (بقوا على دينهم ودفعوا الجزية)
- بني حنيفة (وفيهم مسيلمة الكذاب)
- بني عامر بن صعصعة
- تجيب
- طيئ
- نخع

وغيرهم الكثير ولكن الله حذر رسوله بعد عام الوفود ومن بعده من المسلمين مما سيحدث من ارتداد تلك القبائل فأنزل فيهم: (ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١)

وأثنى على آخرين منهم: (وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَاتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ، سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ، إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢)[73]

---

[72] (١) المائدة ٨٩ (٢) النساء ٩٢ (٣) النور ٥٥

[73] (١) التوبة ٩٧-٩٨ (٢) التوبة ٩٩

١٣ـ المنظومة الاخلاقية في الأسرة (المظاهرة واللعان) : المظاهرة

في الطريق إلى اكتمال المنظومة الأخلاقية ونور التشريع، كانت خولة بنت ثعلبة زوجا لأوس بن الصامت وكان ابن عمها وقد تقدمت به السن وقد أصيب بلمم، كان يفيق ويغفو من غفوته وفي مرة لاحى (أرادها) امرأته في بعض صحواته فلما تمنعت عليه قال لها: أنت علي كظهر أمي، فلما أفاق ندم وقال لها: ما أرك إلا وقد حرمت علي! قالت وكانت تحبه: أنت ما ذكرت طلاقا وإنما كان التحريم فينا قبل أن يبعث رسول الله فأتت رسول له تسأله فقل لها: ما أراك إلا وقد حرمت عليه فجادلت رسول الله فقد كانت تحبه ولا ترى أن كلمة تفرق بينها وبين زوجها، وشكت إلى الله فقالت:

اللهم إني أشكو شدة وجدي ما شق على فراقة، اللهم أنزل على لسان نبيك ما يكون لنا فيه فرج، فبكت عائشة ومن كان حضرا هذا اللقاء فنزل على رسول الله:

(قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ *ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣)[74]

اللعان. بعدما نزلت أجزاء من سورة النور وكان في الآية ٤(وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾

قال سعد بن عبادة يستفسر متعجبا عن هذه الآية من قبل: أهكذا نزلت يا رسول الله؟

فقال رسول الله غاضبا: ألا تسمعون يا معشر الأنصار ماذا يقول سيدكم؟

وقد غضب رسول الله من تعليق سعد بن عبادة. فقال سعد: والله يا رسول الله إني لأعلم أنها حق، وأنها من عند الله، ولكن قد تعجبت أن لو وجدت لكاعا قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله إني لآتي بهم حتى يقضي حاجته!

وكان الرجل منطقيا، ولكن هكذا نزلت، وما على الرسول إلا البلاغ.، ولم يكن شرع الله يُنزَّل إلا بحدث من الأحداث التي تفسر التشريع، واكتمال التشريع الإلهي يسبب له الله الأسباب فما كانت إلا لحظات حتى جاء هلال بن أمية الذي كان قد وجد عند زوجته رجلا يضاجعها، فرأى بعينه وسمع بأذنه فلم يهجه حتى أصبح الغد، فذهب رسول الله فقال: يا رسول الله إني جئت أهي عشيا فوجدت عندها رجلا فرأيت بعيني وسمعت بأذني!

كره رسول الله ما سمع واشتد على الرجل وكان سعد بن عبادة لا يزال في المجلس فقال: الآن يضرب رسول الله هلال بن أمية ويبطل شهادته في المسلمين.

كان رسول الله غاضبا ولكن هلال أضاف: والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجا..

(٣) المجادلة من ١- ٤
74

ثم أضاف: والله يا رسول الله إني أرى ما اشتد عليك مما جئتك به، والله يعلم إني لصادق!

وغضب رسول الله أكثر وأكثر وقبل أن يأمر بضربه نزل عليه الوحي:

(وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ *وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ (١)[٧٥]

قال رسول الله: أبشر يا هلال، فقد جعل الله لك فرجا ومخرجا

قال هلال بن أمية: قد كنت أرجو ذلك من ربي

قال رسول الله: أرسلوا إليها

ولما جاءت تلا لهما رسول الله الآيات وأنذرهما بأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فقال هلال بن أمية: والله يا رسول الله لقد صدقت عليها قالت امرأته: كذب

فقال عليه الصلاة والسلام: فلاعنوا بينهما

فشهد هلال بن أمية أربع شهادات أنه لمن الصادقين، فقال رسول الله لهلال: يا هلال اتق الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وأن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب

فقال هلال بن أمية: والله لا يعذبني عليها الله كما لا تجلدني عليها، وشهد أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين

وقيل للمرأة اشهدي أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، فشهدت ولما جاءت الخامسة

قال الرسول الله: إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وأن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب.

قالت المرأة: والله لا أفضح أهلي! وسمعها القوم أجمعين ثم شهدت الخامسة إنه لمن الكاذبين ففرق رسول الله بينهما، وأمر ألا يدعى الولد لأب، وأمر بإقامة الحد على من يسيء لولدها في المستقبل، وحكم أن لا بيت لها عنده ولا قوت من أجل أنهما يفترقان بغير طلاق ولا متوفى عنها. ولم ترجم المرأة لأنها لم تعترف، وشرع الله يدرأ الحدود بالشبهات، وهكذا كان دأب رسول الله. لكن المرأة كانت في أسوأ حالاتها النفسية خوفا من عذاب الله في الآخرة فعذبت في الدنيا، وباتت تنتظر عذاب الآخرة. وشهد الناس ذلك فرغب من زنا منهم في عذاب الدنيا عن عذاب الآخرة. وسعوا للرجم سعيا.

١٤- رجم الزناة:

(وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا) (١)[٧٦]

---

[75] النور ٦-١٠ (١)

[٧٦] (١) الإسراء ٣٥

ولما كان شرع الله لا ينزَّل إلا بحدث، فقد جاءت امرأة لرسول الله صلى الله عليه وسلم تخبره بأنها تحمل في أحشائها جنينا من الحرام وأرادت عذاب الدنيا الذي هو أهون من عذاب الآخرة على إثر حادث امرأة هلال بن أمية فحزن رسول الله وكره أن يقيم الحد عليها كما كره المسيح أن يقيم الحد على مريم المجدلية، فلعلها تستر نفسها في الدنيا ويجد الله لها مخرجا، فالله يغفر الذنوب جميعا إلا الشرك، ولما أصرت على الاعتراف، أراد لها مخرجا من الله فقال لها : فاذهبي حتى تلديه.

أراد رسول الله أن تجد فسحة من الوقت فلربما ندمت وتابت، ولنذكر المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام حينما بارك مريم المجدلية ورفض رجمها كزانية قائلا أنه من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر، فهي أخلاق الأنبياء إذا في انتحال الأعذار لتهيئة الظروف للتوبة ف ذهبت المرأة وعادت بعد أشهر وقد وضعت حملها وهي تحمل وليدها، فقال لها رسول الله: فاذهبي أرضعيه حتى تفطميه.

كان رسول الله يتمنى أن تتوب إلى الله، ولا تعاود الظهور ولكن المرأة كانت تتمنى أن تلقى ربها بلا كبائر إيمانا وخيفة.

ذهبت المرأة ففطمت وليدها وعادت لرسول الله، فأمر رسول اله بإقامة الحد عليها كما نص القرآن والتوراة، فرجمها الناس ولكنها لم تمت من فورها بالرجم، فأتى خالد بن الوليد بحجر كبير وضربه بشدة على رأسها، فتطايرت الدماء وأصابه بعض قطراته، فلعنها خالد، وفي هذه اللحظة غضب رسول الله أشد الغضب وأحمر وجهه الشريف وقال: لا تلعنها فقد تابت توبة لو قسمت على أهل المدينة لكفيتهم.

أتى رجل من القوم الذين يرغبون في عذاب الدنيا هربا من عذاب الآخرة لرسول الله يقول: يا رسول الله قد زنيت فأقم على الحد.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم محاولا إثناؤه عن الاعتراف ليتوب إلى غفار الذنوب : لعلك قبّلت

قال الرجل: بل قد زنيت

قال: لعلك لامست

قال الرجل: بل قد زنيت

قال: لعلك فاخذت

قال الرجل: بل قد زنيت

كان صلى الله عليه وسلم يريده أن يتستر ويتوب لله ولكن الرجل أصر أن يحاسب في الدنيا فرارا من عذاب الآخرة، وكان هذا اختياره، فأمر رسول الله بإقامة الحد عليه، فالحد هنا لا يقام إلا باعتراف، واشترط رسول الله أن يمرر الشهود على جريمة الزنا خيطا بين الزاني والزانية فإن مر الخيط فلا زنا وإن لم يمر فزنا، ولنا أن نتصور كيف جعل رسول الله الاتهام بالزنا وإقامة حده مشروطا بالاستحالة

ما لم يكن من زنى مقرا ومعترفا، وكان الله قد قضى بأربعة شهداء وهو أمر يصعب تحقيقه إلا في النادر.

لما كان الزنا منتشرا قبل الإسلام بين العرب، ونكاح الاستبضاع والرهط والبغايا، وتبرج النساء والتسري واتخاذ الحرائر عشيقات في السر، والدعارة العلنية كما ذكرنا في الجزء الأول فقد هال رجل أعرابي مسلم أن يحرم مما ألفه بسبب إسلامه ولو كان سيئا، ولما كان من القوم الذين لا يرغبون في عذاب الدنيا ولا الآخرة فما كان منه إلا أن أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم يرغب في أن يرخص له في الزنا! فأتى يسأله: يا رسول الله ائذن لي بالزنا!

تعجب الرهط من حول رسول الله وهم عمر بالبطش به، فأسكته رسول الله واستمهله حتى يتحدث إليه فقال له صلى الله عليه وسلم: أترضاه لأمك قال: لا

أترضاه لأختك. قال: لا

أترضاه لابنتك. قال: لا

أترضاه لزوجك. قال: لا

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: وكذلك القوم يا أخا العرب.

خرج الرجل وقد وطن نفسه على الطاعة مهما كلفه الأمر.

١٥ـ وفاة أم كلثوم بنت محمد رسول الله:

ومرة أخرى هو موعود صلى الله عليه وسلم بألا تصفو حياته الشخصية أبدا، فنلحظ أثناء معركة بدر أن ماتت ابنته رقية رضي الله عنها، ثم ماتت ابنته الكبرى زينب رضي الله عنها بعد عمرة القضاء وعهد الحديبية سنة ثمان من الهجرة، ثم ماتت أم كلثوم عن ثمان وعشرين سنة دون أن تنجب في شعبان من عام الوفود سنة تسع للهجرة بعد فتح مكة ونصر حنين وعودته من تبوك وبعد أشهر من أن رزقه الله بإبراهيم

ولدت السيدة أم كلثوم قبل بعثة النبي بست سنوات، وجاهدت مع باقي أسرتها فشاركت أباها وأمها خديجة جهادهما، وعانت معهما وطأة الحصار الذي فرضته قريش على المسلمين في شعب أبي طالب، ثم هاجرت مع فاطمة رضي الله عنهما للمدينة، وقد تشابهت حياتها وأختها رقية، حيث خطبتا لشقيقين هما عتبة وعتيبة إبنا أبا لهب، وطلقتا معا نكاية في رسول الله، فلما تزوجت رقية من عثمان بن عفان وماتت عنه، زوجها رسول الله من ذي النورين عثمان بن عفان بعد وفاة رقية. ولما ماتت أم كلثوم رضي الله عنها، أرخى رسول الله رأسها بجانب رفات أختها رقية في قبر واحد، وحزن رسول الله لفقدها، وكان الموت قد أصاب أختيها قبلها كما أصاب أخويها قبل الرسالة، ولم يبق لرسول الله من أبنائه سوى فاطمة رضي الله عنها والرضيع المولود إبراهيم فلا جرم أن يحزن ويشتد به الجوى، جلس على قبرها وعيناه تدمعان، وقال: لوكان عندي ثالثة زوجتها عثمان.

كان عليه الصلاة والسلام يطمئن على بناته مع عثمان بن عفان، وقد أعطى عليه الصلاة والسلام المثل في الفرح بالأبناء والصبر في فقدانهم.

١٦ـ وفاة رأس النفاق عبد الله بن أُبي بن أبي سلول:

لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حرض على اغتيال كعب بن الأشرف أو أبي عفك وعصماء بنت مروان، كما أشارت بعض كتب السيرة، أو ارتضى بهذا العمل الشائن، لكان الأولى به التخلص من عبد الله بن أبي، أشد المناوئين للدعوة وللرسول، وأقدرهم على الإيذاء أو على الأقل أيد عمر بن الخطاب في قطع رقبته بعدما أظهر كفره وحقده أثناء غزوة المريسيع، خاصة حينما تطوع ابنه بقطع رقبته، وغيرها في العديد من المناسبات التي كانت تستوجب القتل أو العقاب على أقل تقدير، ورفض جلده مع من جلد بعد حديث الإفك، وفي سيرته عليه السلام مع زعيم المنافقين ما يدعم هذا الاتجاه، فقد كان يرغب في إيمانه بأي ثمن خدمة للإسلام وقد رأينا كيف كان يرجو إيمان كفار قريش قبل فتح مكة وبعدها، ويصدق الظن أنه صلى الله عليه وسلم لم ترضه أحداث الاغتيالات التي أشرنا إليها، فليست هذه سيرته وليس هذا دأبه وما أدبه عليه الله، أما ما قيل فيما سبق ويقال الآن عن سياسة الاغتيالات للتمكين فهو الإسلام الشعبي الجاهل الذي يخرج المسلمين عن الصراط المستقيم الذي ندعو الله أن يهدنا إليه في كل صلاة

في ذي القعدة من سنة تسع هجريا (عام الوفود) . كان عبد الله بن أبي بن أبي سلول زعيم المنافقين مريضا، فعاده رسول الله في مرضه، فطلب منه بن سلول أن يصلي عليه إذا مات في مرضه هذا، فوعده رسول الله بذلك، كان رهطه من المنافقين لا يفارقونه وقد عجبوا لطلب زعيمهم هذا الطلب، واحتاروا في الأمر وخافوا إذ تذكروا قول الله تعالى:

(بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) (١)

وانتهى التذبذب

(مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ (٢)[77]

ثم أرسل لرسول الله يطلب منه قميصه كي يدفن فيه ويدفن به راجيا أن ينفعه، فاعترض عمر بن الخطاب قائلا: لا تعط قميصك للرجس النجس، فقال رسول اله صلى الله عليه وسلم: إن قميصي لا يغني عنه شيئا فلعل الله يدخل به ألفا في الإسلام

أسلم منهم يومئذ ألف من رهطه، فلما مات جاء ابنه لرسول الله يقول له: إن لم تصل عليه لم يصل عليه مسلم، فقام صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه، فاعترض عمر بن الخطاب طريق الرسول حتى لا يذهب، فقال له رسول الله: أخر عني يا عمر، وصلى عليه ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيرا حتى نزلت (وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ *وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾(١)[78] فقال رسول الله: لو أني أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له لزدت

١٧- وفاة النجاشي أصحمة بن الأبجر:

[77] (١) النساء ١٣٨&١٣٩ (٢) النساء ١٤٣
[78] (١) التوبة ٨٥-٨٦

ذكرنا من قبل أنه في العام الخامس من النبوة سنة ٦١٥ م ولما قرأ جعفر رضي الله عنه للنجاشي من سورة مريم فاضت عيون النجاشي والبطارقة من الدمع، فقال (والله ما عدا عيسى بن مريم وما قلت هذا العود) فتناخرت البطارقة حوله يحتجون عليه فقال لهم متحديا (وإن نخرتم والله) ثم التفت إلى المسلمين وقال (اذهبوا فأنتم شيوم في أرضي) ومرت السنون ولما أرسل رسول الله مع عمرو بن أمية الضمري قبل الخروج إلى خيبر بأيام في المحرم من سنة سبع من الهجرة رسالة معه إلى النجاشي أصحمة بن الأبجر- وكان أميل إلى وحدانية الله - وينكر ألوهية المسيح عليه الصلاة السلام، فلما قُرِئت الرسالة عليه أخذ الكتاب ووضعه على عينيه ونزل من عرشه على الأرض فسجد وأسلم على يد جعفر بن أبي طالب وأرسل إلى رسول الله كتابا يشهر إسلامه فيه ويبايع فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان فيها (فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا وقد بايعتك، وبايعت بن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين)

أسلم النجاشي، ولم يشتر ملكه بما آمن به من الحق كما فعل هرقل، فثار رجال الدين عليه وأثاروا الشعب ضده، واستمرت الحبشة في قلاقل لعامين حتى مات النجاشي عام ٩ من الهجرة، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البقيع لما أبلغه جبريل بموت النجاشي فكبر أربع تكبيرات واستغفر له وقال لأصحابه (استغفروا له) وكان إسلامه تصديقا لما جاء في كتاب الله تعالى بالآية رقم ١٩٩ من سورة آل عمران وفيها.. (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب)

الفصل السادس

الأسرة في الإسلام

و بيت النبي

الأسرة في الإسلام

ليست قصة الخلق كما تعلمناها من القرآن إلا خلقا من الله بتهيئة الكون من أجل حفظ النوع بالتزاوج وتكوين الأسرة، والأسرة شراكة اجتماعية تحتاج إلى إعداد كما تحتاج إلى حماية، فيصير لتلك الشراكة الإنسانية نظامها الخاص، فكما أن للشركات التجارية أنظمة تم التعارف عليها لتسيير مصالحها ومصالح الشركاء فيها والعاملين بها ؛ فلها من يرأسها، وهو مخول بسلطات متفق عليها إما بحكم الملكية أو بحكم المصلحة العليا للشركة فيرأسها الأكفأ، فالأسرة أيضا شركة لها نظام ولوائح يتفق عليها المجتمع بحكم البيئة والمصلحة العامة، ويرأسها من هو أقدر على الوفاء بمصالحها، ليس بحكم الملكية بل بمعيار القدرة على تحمل المسؤولية والقبول بها.

لم يخلق الله الأرض والبشر عليها إلا للتزاوج وحفظ النوع، وما خلق الإنس والجن إلا ليعبدوه والتزاوج ليس مقصورا على الإنسان (كأعلى وأعقد مراتب ما خلق الله) من الأحياء الأرضية بل هو منثور في كل الأحياء، فلما خلق الله الأرض فمدها وبسطها وألقى فيها رواسي، ثم جعل فيها أنهارا وأنبت فيها من الثمرات (كأدنى مراتب ما خلق سبحانه) تمهيدا لما هو أعلى وأعقد وقد كان الخلق من كل نوع من الثمرات فيما جعل فيها زوجين اثنين لحفظ النوع والتكاثر، حتى الليل والنهار كانا زوجين يغشى أحدهما الآخر

ترك الله تعالى تزاوج المراتب الدنيا من المخلوقات دون ضوابط إلا ضوابط التلقيح للتكاثر خدمة للإنسان، فالنباتات تتماثل في التزاوج مع الإنسان، والحيوانات تتشابه فيه معه، فلا ضير على النوع في تلاقى أي ذكر بأي أنثى في التزاوج فينتجا أمثالهما من الذكور والإناث، لكن الأنواع كلما ارتقت تعددت الصفات، ويبلغ تعدد الصفات في النوع الإنساني أقصاه، فليس أي رجل بديلا عن رجل آخر وليست أي امرأة بديلة عن امرأة أخرى.

الأسرة للإنسان تحقق حفظ النوع، وحفظ النوع يستدعي خلق الأسرة، وهي سر من أسرار الحياة الكبرى، وحفظ النوع أيضا وبالضرورة هو الغرض من خلق الله التي عجم عن فهمها وتعليلها وتحليلها عقول أهل العلم والفلسفة والحكمة، ولست هنا أدعي القدرة على الفهم أو التعليل والتحليل ولكنني من خلال الآيات القرآنية لا أزيد عن محاولة للاستقصاء وسبر الغور قدر المستطاع، فالتمهيد لخلق الإنسان قد بدأ بخلق الكون ثم تهيئة هذا الكون بحيث يحافظ على كينونته، ثم تهيئة الكون عبر تزاوج وتكاثر مكونات الكون لخدمة الإنسان.

يقول الله تعالى عن خلق الأرض:

(وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَواسِي وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ) ﴿١﴾

فالمد كان تمهيدا لمعيشة الإنسان على الأرض، وتأمين الأرض برواسي ضمانا ألا تميد فتستقبل الأحياء السفلى المهيأة للتكاثر ولأنها عرضة للعطب أثناء هذا التكاثر فتكاثرها ينتج الألوف، فيقابل هذا التكاثر المفقود من العطب

(وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) ﴿٢﴾

والتنوع هو سنة الله على الأرض وآية من آيات الخالق

(فِيهِمَا مِن كُلِّ فَـٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ (٣)

(أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ) ﴿٤﴾

ويضمن لنا المولى عز وجل هذا التكاثر ولو دون تدخل الإنسان

(وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ (٥)

وسنة الله في أن يعيش الأدنى نوعا مسخرا للأقوى فكانت الثمرات قد خلقت في الأرض ليعيش عليها خلق أعقد وأعلى مرتبة كالحيوان والطير، ثم يسخر الإنسان الثمر والطيروالحيوان لنفسه، والإنسان لسمو خلق الله له أقل الأحياء أزواجا في ناتج التكاثر، فالأحياء العليا يقل عدد المولود منها في البطن الواحد، وأيضا يطول حضانته، ويطول العناية به وصيانة حياته حتى يشتد عوده بخلاف الأحياء السفلى

والإنسان أقدر المخلوقات الحية القادر على خدمة نوعه، وهو المخلوق الوحيد الذي سمح له بالانتقاء لتجديد النسل وتحسينه وزيادة عدده.

هنا يقول لنا الله سبحانه وتعالى أنه خلق أشياء عديدة غير الثمرات ويجب أن تتكاثر بدورها فيسخرها الإنسان

(خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ (٦) [٧٩]

[٧٩] (١) سورة ق آية ٧ ﴿٢﴾ الرعد ٣ (٣) الرحمن ٥٢

(٤) الشعراء من الآية ٧- ٩ (٥) الحج ٥ (٦) لقمان ١٠

وتعميما فكل شيء يتزاوج ليتكاثر

(وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) ثم جاء الخلق الأعلى مرتبة متمثلا في آدم عليه السلام من تراب، أي أن الخلق الأعلى قد جاء من أدنى المراتب وذلك التراب والذي تحول لطين لازب وهو من أديم الأرض (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ) (٢)

وقد أحسن عز وجل خلقه فتحول الطين بعدما سواه الله بنفخ الله فيه من روحه لآدم (ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ*ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ*ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) (٣)

ثم خلق منها زوجها حواء، ثم جعل منهما نسلا، رجالا كثيرا ونساءا من ماء مهين (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) ﴿٤﴾

ويبين لنا الله تعالى للسكن أن يثمر حملا (هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ (٥)

كما يبين الله لنا آياته مم تكون هذين الزوجين (وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ) ﴿٦﴾

النطفة هي أصل نسل الإنسان فإذا منت صارت علقة يسويها سبحانه فيجعل منها الذكروالأنثى (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ*ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى*فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ (٧)

يلخص لنا سبحانه عن المخلوق من التراب، فطين فمني فعلقة تتعلق مسقرة بجدار الرحم ثم يقر الله النوع في الرحم مارا بمرحلة الطفولة إلى أرذل العمر إلى أن يتوفي ويعود إلى التراب الذي جاء نوعه منه، فتعود الأرض تنبت أدنى المخلوقات الحية من جديد من كل زوج بهيج

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (٨) (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ*ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ*ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ* ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ (٩) [٨٠]

---

(١) [٨٠]الذاريات٤٩ (٢﴾ المؤمنون ١٢ (٣) السجدة ٧-٩ (٤) النساء١ (٥) الأعراف١٨٩

(٦) النجم ٤٦ (٧) القيامة ٣٧-٣٩ (٨) الحج ٥ (٩) المؤمنون من ١٢- ١٥

(يَخۡلُقُكُمۡ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمۡ خَلۡقًا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴾ (١)

شرع الله الزواج لبني الإنسان لتكوين الأسرة التي قد تعقب وقد لا تعقب، ويظل على الرغم من ذلك الزواج منشودا وجاءت خصوصية آية تزاوج الإنسان مميزة ومتوجة بتشريع الزواج والزواج وإن كان الغرض الظاهر منه هو التكاثر كسائر المخلوقات الأدنى مرتبة، إلا أن زواج الإنسان ودونا عن سائر المخلوقات المشتركة معه في أمر التكاثر لا يهدف منه التكاثر فحسب فالغرض الأساسي منه هو السكن والاطمئنان بتكوين الأسرة بغية أعمار الأرض، والزواج مقصور على الإنسان صاحب المرتبة العليا لمخلوقات الله تكريما له، والتزاوج المتاح للمخلوقات الدنيا والوسطي فلا غرض منه إلا التكاثر بغية حفظ النوع لخدمة الإنسان وتسخيره، والمطلوب من الإنسان ليس تزاوجا ولكن إتباع تشريع الزواج، وهو أيضا لحفظ النوع ولكن حفظ نوع الإنسان لا يتأتى بالتكاثر فحسب بل بخدمة الإنسان كنوع على العموم بتعريف الخدمة حفظ النوع بالتكاثر تقدر عليه أدنى المخلوقات كما ذكرنا سلفا، وأدنى من خلق الله من فصيل الإنسان يقدر عليه ولكن حفظ النوع بالريادة والترقي مقصورعلى صفوة من بني الإنسان، فضريبة خدمة الإنسان تغني عن ضريبة انتاج الذرية بل وتفوق عليها فبعض عظماء الكون هم أكبر خدام البشر لم يتزوجوا، ومنهم أنبياء كعيسى عليه الصلاة والسلام وأبو الأنبياء إبراهيم لم يعقب إلا بعد استقرار الدعوة، وقدوة العالمين أعقب ذكورا وإناثا ولم يكتب الله لذكوره أن يبلغوا مبلغ الرجال، وماتت بناته جميعهن قبله إلا فاطمة التي ماتت بعده بشهرين حتى لا يدعي أحد أنه من صلب محمد، وجميع الشواهد حافلة عبر العصور تعزز تلك الملاحظة وذلك المذهب، فخدمة الإنسانية تتجاوز الإنجاب.

ليست تشريعات الزواج تقييدا للإنسان، بل تحقيقا للغرض منه، فالزواج للسكينة والأمان فخلق الله بين الرجل والمرأة مودة ورحمة لا نجدها بين سائر المخلوقات

لا ينتفع الإنسان بكل اتصال تتحقق به المتعة الجنسية، بل ينتفع الإتصال الذي تتم به الشخصيات وتتوافر فيه أتم صفات الرجال وأتم صفات النساء، ثم تنشأ منه الآداب الاجتماعية وحقوق الأسرة وأمانة النسل، وفيه يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في اختيار الرجل للمرأة: تنكح المرأة لجمالها ولمالها ولحسبها ولدينها فاظفر بذات الين تربت يداك

ويقول للولي في اختيار الزوج لوليته: إن جاءكم من ترضون دينه فزوجوه

ويقول الله جلت حكمته يمن على الرجال بأن وهبهم النساء وعلى النساء أن وهبهم الرجال:

(وَمِنۡ ءَايَـٰتِهِۦۤ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٲجً۬ا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةً۬ وَرَحۡمَةً إِنَّ فِي ذَٲلِكَ لَأَيَـٰتٍ۬ لِّقَوۡمٍ۬ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) [٨١]

وإن كنا نتحدث عن الأسرة فحري بنا أن نتناول عناصر تلك الأسرة والتي عمادها الرجل، فالمرأة التي لا تكون الأسرة إلا بها، وكذلك الأبناء وهم أحد أغراض تكوين تلك المنظومة الإنسانية الأسرة، وإن كانت الأسرة تكتمل بدونهم وقد حدد الإسلام مهام عناصر مكونات الأسرة فواجبات الرجل، وواجبات المرأة وحقوقها، ثم حقوق الأبناء هم محل البحث.

[٨١] (١) الزمر ٦ (٢) الروم - ٢١

١-١ واجبات الرجل في منظومة الأسرة

الرجل هو أحد جنسي نوع الإنسان ويختلف الرجل عن المرأة في الكفاية والقدرة على جملة الأعمال الإنسانية لا يمكن لعاقل تجاهله، فانفراد الرجال طويلا بأعمال دون النساء، وانفراد النساء طويلا بأعمال دون الرجال قد أكد الاختلاف، واختلاف الرجل عن المرأة هو اختلاف تباين وليس اختلاف تفضيل فالرجل يغار على، والمرأة تغار من.. واختلاف حرف الجر هذا يجرنا بدوره لملاحظة المزيد والرجل إرادته في عزيمته، والمرأة إرادتها في عنادها ووضوح الرجل لثقته في قوته، وغموض المرأة لعلمها بضعفها

يعتمد الرجل على تحكيم العقل في أحكامه، ويسهل على المرأة الاستجابة للعاطفة في أحكامها، وعلى هذا المنوال تجري العديد من المقابلات والتباينات

حكم الله جلت حكمته على الرجل بالقوامة على النساء كما حكم له بها أيضا (ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ، فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ) (١)[٨٢]

قوامون على النساء والقوامة على النساء مفروضة على الرجال بالتفضيل الفطري بما هو مفروض عليهم بالإنفاق من أموالهم وتعني أنهم يقومون عليهن بصفة مستمرة، والقوام على وزن فعال للمبالغة والاستمرار والذي يقوم على الشيء يحفظه ويرعاه والمرء لا يقوم إلا على الشيء الذي اختاره بعناية ويرجو رضاءه ويقول رسول الله (أكمل المؤمنين أحسنهم خلقا وخياركم خلقا خياركم لنسائهم)

بما فضل الله بعضهم على بعض وفضل الله لا تعني تفضيل الرجل على المرأة، فالفضل هو الزيادة، فتفضيل البعض على بعض دون تحديد المفضل أو الزائد، ولا فيم التفضيل تجعل صاحب اللب يعلم أن الفضل صفة متبادلة بين الطرفين في زيادة ملكات عن ملكات أخرى، وإلا لكان النص واضحا بتفضيل الرجل،

وبما أنفقوا من أموالهم والعبارة فيها دلالة على ما ذهبنا إليه في شرط القوامة، فالإنفاق هو واجب مفروض علية ودليل على القوامة كمثل من أمثلة رعايته لها، فعليه واجب الإنفاق على المرأة حتى لو ملكت المرأة مالا يغنيها عن نفقة الرجل، وفي الميراث هو يرث أكثر مما ترث لأن عليه القوامة كلها، وهي معفاة منها إلا بالقدر الذي تريد.

(وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم) (٢)[٨٣]

وهذه الدرجة أهي ممنوحة من العزيز الحكيم أم هي مكتسبة من كد الرجال؟

وهل هي درجة من الحقوق، لا يقابلها درجة من الواجبات؟

لمعرفة ذلك فحري بنا أن نتعرف ونعترف بفطرة الخلق في الغرائز التي خلق الله بها الكائنات كلها ومن بينها الإنسان، فلئن كانت آية خلق الأرض وما عليها هو التكاثر والتزاوج، ففهم الغرائز الجنسية ضروري لفهم أصول الفطرة التي عليها تلك الكائنات

---

[٨٢](١) النساء ٣٤
[٨٣](٢) البقرة ٢٢٨

يقول لنا عباس محمود العقاد في كتابه المرأة في القرآن

"يشاهد بين ذكور الحيوانات وإناثها، ألا تتقدم الإناث لطلب الذكور بل تعرض الإناث نفسها فيراها ذكور الحيوانات، فتتبعها مجموعة ينشب على إثر ذلك عراكا بين الذكور حتى يظفر بها الأقوى والأقدر على حسم معركة الغرائز لصالحة، ويتم التكاثر بين الأنثى التي عرضت نفسها للتكاثر والذكر القوي الذي فاز بها، ويكافأ على ما بذله من جهد ".

لا يختلف الأمر كثيرا عند البشر خاصة في العصور الغابرة وربما حتى الآن مع الفارق، فتتعرض أنثى البشر للذكر طلبا للتكاثر، فيراها مجموعة من الذكور ويبدأ التنافس ومن ثم التكاثر بنفس الوتيرة، ولما تقدمت البشرية قليلا، " صارت المرأة تسلم من يد ظافر لظافر بعد الحروب، ومن يد شجاع لشجاع كلما دارت حروب الاستلاب بين القبائل"*[٨٤]، ثم أصبح المال مقياسا للقدرة والرجحان بين الرجال، وفي العصر الحديث تستحي المرأة من مفاتحة الرجل بدوافعها، وتنتظر المفاتحة من جانبه فإن تم له مفاتحتها، بان له أن اشتراطات النجاح لا تختلف كثيرا عمن سبقه من ذكور الحيوانات ورجال العصور الغابرة فالمال الآن هو مقياس للقدرة والرجحان بين الرجال ودليل القوة، سواء كانت تلك القوة في مجال القوة الجسدية أو المكانة في المجتمع الذي يعيش فيه، ويندر أن نجد رجلا أقصر أو أضعف أو أقل ذكاء أو علما أو مالا من امرأة يتزوجها، فالدرجة إذن هي درجة الكد والعمل والمخاطرة.

في علم التشريح العديد من الفروق، فكثافة عظام ودماء الرجل أعلى من نظيره عند المرأة، وتركيبة جسم الرجل أكثر وضوحا في عملية التشريح ذاتها لغلبة الشحوم على جسد المرأة وبنية المرأة يعتريها الفصد كل شهر، مما يرهقها قبل الصفد وأثناؤه، ويشغل جسد المرأة الحمل تسعة أشهر مما ينهكها ويغير التركيب الهرموني بها بسببه، ناهينا عما يسلبه الجنين من عناصر ضرورية للنمو على حساب المرأة، أما إدرار اللبن حولين، وما قد يتصل بعده بحمل آخر فتستنزف قواها البدنية، وهذه هي الدرجة الممنوحة من الله للرجل والتي لم يسع إليها الرجل كدا، وإنما كتبت له وحسبت عليه، فلا يجوز إذن للرجال طلب الدعة والراحة فهو لا يصفد ولا يحمل أويرضع، ولا للمرأة أن تتمنى حصولها على هذه الدرجة، فما فضل الله بمعنى التفضيل وإنما بمعنى الزيادة والاكتساب ويقول الله تعالى

(وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا) (١)[٨٥]

وإن كنا قد عنونا هذا الحديث (واجبات الرجل في منظومة الأسرة) ولم نذكر شيء عن حقوقه فحقوق الرجل هي في ممارسة واجباته، فإن فرط في واجباته فقد فرط في حقوقه، وإن فرضنا أن له التنازل عنها فلا ولن تستقيم الأسرة بتفريطه في واجب قد قصر فيه.

لما فرط آدم عليه السلام في واجب حسم أمر ابليس، خسر حقه في نعيم الجنة وشقى وشقيت حواء معه والبشرية كلها من أبناء آدم

(فَقُلۡنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ) (٢)[٨٦]

---

[٨٤]* من كتاب المرأة في القرآن لعباس محمود العقاد
[٨٥] (١) النساء ٣٢
[٨٦] (٢) طه ١١٧

خاطب الله آدم وعليه فإن كان للرجال على النساء درجة، فعليهم لهن واجبات الحماية تقابلها فلا جدال حول وجوب توليه مسؤول عن أي وحدة مجتمعية ليحكمها، وكنا قد تحدثنا عن حق حاكم الدولة في القيادة، بما يقابله حق المحكوم في مساءلته، ويمثله البرلمان والقضاء والخلل الذي قد ينتج عن تقصير الحاكم يؤدي عاجلا أو آجلا إلى فقدانه هذا الحق وتبقى الدولة بدونه، وحق مدير الشركة ومسؤوليته أمام المرؤوسين ويمثلهم مجلس الإدارة، والخلل الذي قد ينتج عن تقصير هذا المدير، يؤدي عاجلا أو آجلا إلى فقدانه منصبه وتبقى الشركة بدونه ولا جدال أيضا في أحقية الرجل في قيادة تلك الأسرة باعتباره عائل البيت، وبحكم تلك الدرجة التي منحها الله له ووجب عليه اكتسابها بكده، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة

الوداع:

استوصوا بالنساء خيرا فإنهن عوان عندكم، لا تملكون منهن شيئا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ألا إن لكم على نسائكم حقا، فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم أحدا تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم من تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن.

والخلل الذي قد ينتج عن تقصير هذا الرجل في إدارة أسرته، يؤدي عاجلا أو آجلا إلى فقدانه هذه الدرجة، إما برضوخه للقهر الذي قد يقع عليه من أسرته - وهو أسوأ مصير له - وإما بالطلاق فيفقد الأسرة التي لن تبق بدونه، أو بتدخل القانون فينكسر الرجل به ويفقد تلك الدرجة والأفضل له هو بانصياعه للمنهج القرآني وتبقى الأسرة، ويبقى هو على رأسها، فإن كان الفرض هو أن الرجل صالح كرب أسرة، فالخلل قد يأت من الزوجة، كأن تنشز* مثلا وفي هذا يقول الله جلت حكمته:

(فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ، وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا، إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ (١)[٨٧]

نُشُوزَهُنَّ. وفي الأصل المرأة صالحة وقانتة وإن كان نشوز* المرأة وعصيانها لزوجها قد نتج عن شعورها بعلو شأنها عنه، فليس أمامه - إن كان الرجل صالحا بدوره - في بادئ الأمر إلا أن ينفي عنها هذا الشعور بالوعظ ثم الهجر فالضرب

فَعِظُوهُنَّ. بأن يعظها بالقول اللين والحجة، ولن ينجح فيه إلا لو كان به عليها رجحانا عقليا، وكنا قد ذكرنا من قبل أن وضوح الرجل لثقته في قوته، وغموض المرأة لعلمها بضعفها وقلنا أن الرجل إرادته في عزيمته، والمرأة إرادتها في عنادها، وله أن يزيد في الوعظ ويصبر عليها حتى تتعظ، فإن بقيت على استعلائها، فقد أمرة الله بما هو أشد عليها من الوعظ

وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ. والهجر هو القطيعة في المنزل وكذلك في المضاجع، وليس هجر الزوج للمضجع نفسه، والهجر مع التواجد بالمنزل فيه زيادة في العقوبة، لأنها تذكرها بمقدرة الرجل على الاستغناء عنها، وهو تقليل من شأنها، ولئن قدر عليه الرجل فهو رد عملي لما يدور في اعتقادها بعلو شأنها عنه حتى ولو كانت في أشد حالاتها إغراء بالفتنة فلا يبال بها، وحكمة القرآن أبلغ من الخصومة

---

[٨٧]* النشوز هو ارتفاع الشيء عن مستواه، ويقصد بنشوز المرأة عصيانها لزوجها، وعصيانها لا يأتي إلا بشعورها بعلو شأنها عنه (١) النساء ٣٤

الزوجية وذلك بلا شك، فالمرأة بمقدرة الزوج على هجرها لاستعلائها عليه، قد مسها في غرورها، وشككها في صميم ما كانت تعتز به عليه، والمزية التي كانت تراها في نفسها، خاصة فيما يتعلق بفتنتها، فتأسى على ما كانت تعتقده في نفسها سواء من علوها عليه أو في فتنتها عليه كأنثى، والذي كان يشعرها بقوة تأثيرها وسحرها ففشلها في أن تستعين بفتنتها على قوته، يشككها في أغلى ما كانت تعتقد أنها تملكه، ولا يبقى لها ما تلوذ به من فتنة بعد ذلك وترى أنها إلى جانبه لا تملك شيئا إلا أن تتقرب إليه فهو إذا يستحق أن تطيعه فتسلم له، أما إذا بقيت على استعلائها، فقد أباح له الله بما هو أشد من الهجر في المضاجع

وَٱضْرِبُوهُنَّ،

وهو الملاذ الأخير أمام الرجل، "فمن النساء - ولو قلت نسبتهن بين النساء - من تستحق هذا النوع من التأديب البدني، ولو كانت النسبة امرأة واحدة في الألف، فما دام في هذا العالم امرأة من ألف تصلحها العقوبة البدنية، فالشريعة التي يفوتها أن تذكرها هي شريعة ناقصة، وشريعة الله كاملة، والشريعة التي يفوتها أي طريق لحفظ كيان الأسرة هي شريعة مقصرة وضارة "*[٨٨]، ولكن كيف يكون الضرب وما الهدف من الضرب؟

والضرب بمنديل ملفوف أو بالسواك وما شابة، فالضرب غير مبرح، ولا يهدف إلا للتعبير عن اللوم ونزع التكبر عليه، مع كراهية الضرب، فهو دليل على إخفاق الزوج في الوعظ، وضعف إرادته في صبره على الهجر، وانتصرت عليه هي بعنادها، وقد رخص رسول الله الضرب برخصة كالحظر،

واضربوهن إذا عصينكم في المعروف ضربا غير مبرح ولا تضرب الوجه ولا تهجر إلا في البيت ولن يضرب خياركم، أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته، فيضربها أول النهار ثم يجامعها آخره

والجملة في نفس الآية التي تلت توجيهات الوعظ والهجر والضرب، تقيد الرجل لتؤكد الغرض من هذا الأمر برمته، فكل ما مضى كان اجتنابا للشقاق ومن ثم الطلاق، وهو أبغض الحلال عند الله حفاظا على تماسك الأسرة، وحرصا على مصلحة الأبناء، فيقول الله جلت حكمته:

فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا فإن أتت نتيجة الوعظ بإنهاء حالة النشوز، فهو دليل على كفايته ولا يحق له الانتقال للهجر، فقد أجاد في الوعظ إلى الحد الذي

أبطل استعلائها عليه وعادت لطاعته، وإلا فالهجر وهو حرمان له كما هو مؤلم لها، فإن أتت نتيجة الهجر بإنهاء حالة النشوز، فلا يحق للرجل الانتقال للضرب، فقد تحمل حرمان الهجر إلى الحد الذي أبطل استعلائها عليه وعادت لطاعته، وإلا فالضرب وهو مشين له لفشله في الوعظ والهجر، كما أن الضرب مهين لها، فإن أتت نتيجة الضرب بإنهاء حالة النشوز وإبطال الاستعلاء فعادت لطاعته، فقد انتهى الأمر، ولا يحق له البغي عليها، ثم يأتي تحذير الأزواج من البغي والظلم فإنهن وإن ضعفن عن دفع البغي والظلم فالله سبحانه وتعالى كبير وقادر أن ينتقم لهن من الرجال، أما إن استمر النشوز، ولم يتمكن الرجل من انهاء هذه الحالة، فالشقاق الظاهر بينهما آت ولا محالة، فعلى من يلحظ ذلك من أهلهما للجوء للتحكيم بينهما بحكم من الطرفين ذلك إن كان الزوجان يريدان الإصلاح، فلسوف يوفق الله بينهما

---

[٨٨]*من كتاب المرأة في الإسلام لعباس محمود العقاد

(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ، إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ (١)[89]

ومن واجبات الرجل التي أوجبها الإسلام عليه حفاظا على الأسرة أن يتجمل لامرأته ويبدو لها في المنظر الذي يروقها، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اغسلوا ثيابكم وخذوا من شعوركم واستاكوا وتزينوا وتنظفوا، فإن بني إسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم)

وبلغ رسول الله من رعاية شعور المرأة ومداراة خجلها الذي فطرت عليه أن أوجب أيضا على الرجل اسعادها وامتاعها لأنها لا تطلب من الرجل ما يطلبه منها فقال: (إذا جامع أحدكم أهله فليصدقها، ثم إذا قضى حاجته قبل أن تقضي حاجتها فلا يعجل حتى تقضي حاجتها) ويقول الله تعالى: (نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢)[90]

واجبات الرجل في الطلاق (المكروه والمندوب والواجب)

الطلاق المكروه الطلاق في الأصل شرعة مكروهة وما من وسيلة أنجع وأنجح في اجتناب الفرقة بين الزوجين من مساعي الصلح من الأهل والأقارب، ثم في الصبر وانتظار المهلة حتى يتم الصلح

وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ، وَإِن تُحْسِنُواْوَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١)

والله جل وعلا يأمر الرجال بالتروي فلربما يكره الرجل امرأته، وعسى الله أن يجعل له فيها الخير الكثير (فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) ﴿٢﴾

فإن زهد الرجل في امرأته دون أن يكون للمرأة ذنب في هذا الزهد يفرض الله على الرجل مراعاة حقوق المطلقة حسب نص الآية

(وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا *وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ (٣)

والطلاق المندوب إن كان لدفع ضررا ديني أو دنيوي فالمرأة التي تنشز مثلا- وقد تحدثنا عنها - إن أصرت على نشوزها، أو كانت تبغضه فالمندوب والمستحسن أن يطلقها الرجل، ولقد أنزل الله على نبيه الآيات ٢٨-٢٩ من سورة الأحزاب ومن ١-٥ من سورة الطلاق في هذا الأمر كما سنرى

الطلاق الواجب قد يكون الطلاق شرعة واجبة في حالات الخيانة أو استخدمت المرأة حقها في الخلع والإبراء فوجب عليه الطلاق، وقد قيد الله الزوج في أمر الطلاق وضمن حق المرأة في أن تعامل معاملة حسنة وحتى في حالات الكراهية فالمعاشرة يجب أن تكون بالمعروف والطلاق أيضا (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ، ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ، ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (٤)[91]

---

[89] النساء ٣٥ (1)

[90]البقرة ٢٢٣ (2)

[91] (1)النساء ١٢٨ (٢) النساء الآية ١٩ (٣) النساء ٢٠-٢١ (٤) البقرة ٢٣٢ (1)

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا)

تعدد الزوجات بين المندوب والواجب والمكروه والمحرم

التعدد المندوب لم ينشئ الإسلام تعدد الزوجات ولم يوجبه ولم يستحسنه ولكنه أباحه وفضل عليه الزوجة الواحدة وتعدد الزوجات يعد من واجبات الرجل ولا يعد من حقوقه فإن كانت

قدراته تفوق قدرة امرأته وهي دائمة التمنع عليه لعجزها عن مسايرتة صار مندوبا أن يتعدد أو إن زهد الرجل في امرأته، فالجمع بين المرأة المزهود فيها وبين زوجة أخرى أكرم لها وأصلح من الجمع بينها وبين خليلة أو عدة خليلات، إلا إن اعترضت المزهود فيها وطلبت الطلاق فيصبح طلاق الرجل لها مندوبا، وقد تمرض المرأة فلا يقضي الرجل وطره منها لمرضها فلو كان مرضا يطول علاجه والبراء منه، صار مندوبا أن يتعدد لوخشي الرجل على نفسه الزلل وقد تكون المرأة عقيم، ويكون الزوج تواقا للإنجاب فالجمع بين المرأة وبين غيرها أكرم لها وللمجتمع من طلاقها ونبذها في معترك هذه الدنيا بغير ولد وبغير زوج ولا عاصم

التعدد الواجب

في أوقات الحروب، ينقص عدد الرجال عن النساء فيشهد المجتمع الإنساني اختلالا تسهل فيه علاقات الزنى، وتنحط مكانة المرأة الزانية قهرا بالاحتياج الإنساني، فلا حقوق لها إلا حق الفراش، كما تفقد الزوجة مكانتها لتوافر الإغراء بالتعدد، فلا يخلص لها بل قد يتخلص من قيودها منطلقا نحو التعدد والتبديل بعلاقات يندر فيها احترام المرأة فلا ينتفع النوع الإنساني ولا تنتفع الأخلاق..وعلى الرجل أن يعدل، وفي جميع تلك الحالات السابقة فإن لم يجد الرجل ما يعقد به زواجا، يأمرة الله بالاستعفاف، أما من أراد أن يكاتب جاريته المؤمنة فليكاتبها بحيث يعرف المجتمع أنه قد كاتبها

(وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ، وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا، وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ آتَاكُمْ) (١)

(وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ، ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ) ﴿٢﴾

وعلى الرغم من استحالة العدل بين النساء، فيجب الحرص على العدل فإن مال الرجل لامرأة دون أخرى فعليه التحري أن يصلح من نفسة تقوى لله حتى لا يميل بعواطفه ناحية تجعل الأخر كالمعلقة، فإن عجز عن القسط والعدل ففارق من لايميل لها فيغنه الله من سعته (وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ، فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ، وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ، وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا) ﴿٣)[٩٢]

التعدد المكروه

[٩٢](١) النور ٢٣ ﴿٢﴾ النساء ﴿٣) النساء ١٣٠

هو أن يتعدد الرجل في الزيجات دون مراعاة لقدرته الجسدية والمادية على الوفاء بالتزاماته للزوجات والأبناء واختلال التعامل بعدل مع الأبناء أو الزوجات وإن جرى على سبيل التغيير والرعونة.

التعدد المحرم

هو أن يتعدد الرجل في الزيجات دون مراعاة فترة العدة التي يجب عليه مراعاتها فيقع في محظور الزواج بأكثر من أربعة أو يتعدد فلا يقيم العدل فيهن أو يفشل في رعايتهن.

١-٢ حقوق وواجبات المرأة في منظومة الأسرة

قلنا أن الرجل هو محور حياتها كما أن المرأة هي محور حياته، وإن كنا قد تحدثنا عن واجبات الرجل ولم نتحدث عن حقوقه لأن واجبات الرجل هي حقوقه، فإن فرط في واجباته فقد فرط في حقوقه فحقوقه هي أن يقوم بواجباته ، أما المرأة فلها حقوق قد صانها الإسلام، تلزمها بواجبات

تنتصر المرأة إن ظفرت بالرجل الأقوى فيستحق أن تأوي إليه ليحميها، وللأنثى مكانة عند الذكر نبعت من احتياجه لها في كل الأحياء من مراتب خلق الله، فتستحق الأنثى عليه الاهتمام وقد ذكرنا من قبل أن اختلاف الرجل عن المرأة هو اختلاف تباين وليس اختلاف تفضيل.

المرأة كالرجل تتمتع بالشخصية الفردية المستقلة، فهي تأبى أن تُلغي شخصيتها أمام الرجل حتى لوكان زوجها، ولكنها تعرف يقينا أنها مختلفة عنه في القدرات الواضحة، ولهذا تبحث بدأب عن وسيلة تلحقه بها فتلحقها به، والملكات التي يملكها وكذا قدراته، رغم افتقارها لها وهي في تقديرها ناقصة، ولا تكتمل إلا بملكاتها وقدراتها، فهو أكثر وضوحا وجرأة لاعتماده على قوته التي يعتز بها، مما يمكنها دائما - واعتمادا على غروره - من الإيقاع به بسهولة، فهي قد جبلت على الحيطة والحذر لخوفها من ضعفها وقلة امكاناتها البدنية وملكاتها وقدراتها التي لا تكتمل إلا بتسخير الرجل لها، وهو الأكثر صراحة ووضوحا لارتباط الصراحة والوضوح بالشجاعة التي يهواها، وهي أكثر غموضا وحياء لارتباط الغموض والحياء بشغف الرجال بهذا الغموض والحياء.

كل هذا جعل الرجل يصدق نفسه حينما يوصمها بالضعف، وتشجعه المرأة إذ يصفها بالضعف حتى تتمكن منه باعتقاده، فتحول ضعفها إلى قوة. ويعمل الرجل ألف حساب لسلاح الكيد الذي يفشل في مواجهتها بسببه، وهو يكيد أيضا، ولكن كيدة يتسم بعدم الدقة بالقياس بالمرأة شبه المتفرغة للكيد، وربما أقنع الرجال أنفسهم بهذا الوهم استنادا إلى آية قد ظنوا أن أكدت عليها هذه الصفة

(فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ (١)[٩٣]

الحقيقة الأولى أن هذا الرأي ليس مصدره الله جل وعلا، وإنما هو سرد قرآني لما قاله الشاهد الذي شهد بذلك من أهل المرأة التي راودت يوسف عن نفسه. أما الحقيقة الثانية فهي كامنة فيما ذكرنا من صفات المرأة في الحياء، وهو ما جعل امرأة العزيز تتهمه لتنفي عن نفسها غشها لزوجها تنصلا من فعلتها وحياء منه، والكيد هو المعالجة والحيلة والتخطيط، وهو مشروع للمرأة الفاضلة، وللرجل الفاضل على السواء، وأضعف كيد هو كيد الشيطان وأقواه هو كيد العزيز القدير

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا *وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ (٢) [٩٤]

---

[٩٣] (١) يوسف ٢٨
[٩٤] (٢) الطارق ١٥&١٦

فالمرأة إذن تستعيض عما ينقصها بالحيلة للبقاء وقد تمضي السنون والقرون ولم يستقر المجتمع الإنساني على الوجه الأمثل لحقوقها إلا لو أمعن هذا المجتمع الإنساني النظر إلى ما أنزل الله في أمر تلك الحقوق ومبرراتها

حقوق المرأة

قلنا من قبل أن المرأة في الجاهلية كانت متاعا يورث ويقسم بين الوارثين مع المال والماشية ؛ وكانت وصمة عار فيدفنها حية ويستكثر عليها النفقة التي لا يستكثرها على جاريته، وكل قيمتها بين الذين لا يدفنونها حية أنها تخدم ثم تورث لمن يستحق الميراث الذي لا تستحقه. في ذلك الوقت لم تكن المرأة في باقي أنحاء العالم بمنأى عن الاستعباد والمهانة، فقد كان قساوسة المسيحية يجردوهن من الروح ضمن البدعة التي انتشرت في عقيدة الزهد في مرحلة من المسيحية والتي تؤمن بنجاسة المرأة واستمر ذلك إلى القرن السادس الميلادي، وانتشر بينهم اعتقاد بخلوها من الروح التاجية، ما عدا للسيدة مريم عليها السلام، وباءت المرأة عندهم بلعنة الخطيئة فكان الابتعاد عنها حسنة مأثورة لمن لا تغلبه الضرورة.

لما جاء الإسلام بشرعة القرآن إلى العالمين فكرمها، فأكد على انسانيتها وتساويها بالرجل ففي هذا يقول رسول الله (النساء شقائق الرجال) وأكد على ضرورة حمايتها بحيث ينال العقاب من ينالها بمكروه، وضمن حقوق مشروعة للمرأة منذ ولادتها، وبرئت من لعنة الجسد فلما جاء شرع الله دون تحريف في الإسلام رفع عنها كل ما وصم بها، وكرمها وبخاصة وصمة الزلل التي قد علقت بها من الإسرائيليات بالكتب المقدسة قبل القرآن من جراء إغواء آدم قصتة مع إبليس إذ يقول الله تعالى:

(فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ، وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ) (١)

(فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ) (٢)

(قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ) (٣)

وهكذا ساوى الله بين آدم وحواء في الزلل وظلم نفسيهما وهكذا تساوى الرجل مع المرأة في الخطيئة الأولى ن وبقيت المساواة في الحقوق

١-المساواة

يقول النبي: إنما النساء شقائق الرجال (٤) ويقول الله (وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ) (٥)

ويقول (إني لا أضيع أجر عمل عامل منكم من ذكر أو أنثي) (٦)[٩٥]

---

[٩٥] (١) البقرة ٣٦ (٢) الأعراف ٢٠ (٣) الأعراف ٢٣

(٤) صحيح البخاري وسنن أبي داوود (٥) البقرة ٢٢٨ (٦) آل عمران ١٩٥

أعطى الإسلام المرأة حق المساواة مع الرجل بهذه الآية ولم يفضل الله عليها الرجل إلا بما فرضه عليه من واجب كفالتها والسهر عليها، فشرع الله المساواة بين الذكر والأنثى فلا صلاح لمجتمع يفوته العدل والإنصاف.

بعد أن كانت المرأة تورث مثل المتاع قبل الإسلام، كفل الإسلام لها كيانا مستقلا وجعل للمرأة ذمتها المالية المستقلة لا يتدخل فيها الرجل زوجا كان أم أبا أو أخا، بل وأوجب على الأب أو الزوج أو الإبن أو الأخ رعايتها والسهر عليها، وجعل الإسلام حق المرأة في احتفاظها باسمها ولقبها وعائلتها استقلالا عن الزوج حقا مقدسا، وكفل للمرأة حقها في اختيار الزوج والموافقة عليهأو رفضه بل وفي خلعه والإبراء منه

٢-الميراث

كانت العرب شأن باقي شعوب الأرض تمنع المرأة من الميراث، كانت الأنثى في شرعة الكتب المنسوبة إلى موسى عليه السلام تخرج من ميراث أبيها فأعطاها الله في شريعة الإسلام نصف نصيب الرجل، على أن يتكفل الرجل بها سواء كان أبا أو أخا أو إبنا أو زوجا والعناية بما ينقصها من حماية ورعاية ونفقة رغم إرثها، وهو إن أخذ واجب كفالة الرجل للمرأة في الحسبان لظهر أن للمرأة نصف نصيب الرجل ظاهريا، أما واقعيا فالرجل في كثير من الحالات قد أنفق عليها جهدا ووقتا حماية أكثر مما أخذه بحكم الميراث.

(يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا) (١)[٩٦]

وفي أحيان كثيرة أعطاها الله في شريعة الإسلام نصيبا يفوق ما يحصل عليه الرجل ضمن منظومة تشريعية محكمة جعلت الغير مسلمين يتبعونها إقرارا وإعجابا، ثم ينهى الله عن تمني أنصبة بعضهم البعض

(وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا) (٢)[٩٧]

٣- الرعاية

المرأة في الإسلام بنتا وزوجا وأختا وجدة وخالة وعمة مسئولية الرجل ومكفوليته المادية والمعنوية ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

لعن الله رجلا أضاع من يعول

[٩٦](١) النساء ١١
[٩٧] (٢) النساء ٣٢

٤ـ حفظ حقوق المطلقات

يقول الله تعالى في حفظ حقوق المطلقات أن ينهى عن إخراج المطلقات من بيوتهن إلا إن اقترفن فحشا مبينا وعلى المطلق إحصاء العدة للمطلقة لعلهما يعودان لرابطة الزواج بإذن الله، وبع العدة إما إمساك بمعروف أو مفارقة بمعروف، وذلك المعروف هو كل ما نص عليه الشرع من حقوق بسورة التحريم من الآية الأولى للثانية:

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ، وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ، لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ، وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ، وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ، لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا *فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ، ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ، وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا *)

في الآيات من الثالثة للسابعة حفظ حقوق الزوجة الحامل التي قد لاتعلم بحملها حتى لو كانت قد يئست من المحيض فيحدد الله العدة حتى يعلم ذلك، ويأمر بأن تسكن حيث سكن الزوج ويأمر بألا يحاول الرجل الإضرار بمن كانت زوجته للتضييق عليها، وبعد الطلاق إن كانت تحمل جنينا في أحشائه يلزم الشرع الرجل بالإنفاق حتى يضعن حملهن، وإن أرضعن فعليه أن يأجر طليقته المرضعة بالمعروف، وإلا يتولى نفقة الرضاعة الخارجية، فالإعالة واجب على الرجل وليس للمرأة واجب الإعالة حتى يكبر الطفل

(وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ، وَأُوْلَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ، وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا*ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ، وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا * أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ، وَإِن كُنَّ أُوْلَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ، فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ، وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ، وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ*لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ، وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ، لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا، سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾

المهر واختيار الزوج

أكد الإسلام على حق المرأة في الاحتفاظ بمهرها فلا يحق للزوج أن يأخذ منه شيئا حتى بعد طلاقها وقد أبطل النبي عقدا للزواج من فتاة بأمر أبيها إيثارا لزواجها من ابن عمها على غريب عنها ولم يستشر ابنته، فجعل الرسول الأمر إليها.

٥ـ معالجة نشوز الزوج

من الضمان للزوجة في أي خلاف يتعلق بنشوزالزوج وإحساسه بعلو شأنه عليها أن الله جل وعلا أعطاها الحق في دفع نشوزه دفعا للإعراض عنها تأكيدا لمساواتهما أمام الله

(وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) (١)[٩٨]

[٩٨] (١) النساء ١٢٨

٦- الَخُلع والإبراء

الخلع حق مكروه للمرأة يكرهه الله كما يكره الطلاق، ولكنه يظل حقا من حقوق المرأة التي كفلها لها الإسلام، فترتضي المرأة أن تتنزل عن نفقتها وصداقها ليعفيها الرجل من الزوجية ويقع الخلع أو المبارأة كلما استحال التوفيق بينهما، ربما لقسوة الرجل، أو اتخاذه الزواج مضارة لا يستقيم معها الزواج والعيش على سنة المودة والرحمة.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أيما امرأة سألت زوجها طلاقا من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة)

ولكن المرأة إذا كرهت زوجها لأقل من ذلك فيظل الخلع من حقها، فقد أتت جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول وكانت تبغض زوجها ثابت بن قيس لا لشيء إلا لأنها تراه في الرجال أشدهم سوادا وأقصرهم قامة وأقبحهم وجها!

سألها رسول الله: ماذا أمهرك

قالت: حديقة

قال: أتردين عليه حديقتة

قالت: أردها وأزيده

قال: أما الزيادة فلا

وقضى رسول الله بالطلاق

وفي جميع الحالات وكما قيد الله الرجل في الطلاق قيد المرأة ألا تضر والد الأبناء بالطلاق (لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ) (١) فذلك لا يقع في حق الزوج أو الزوجة فحسب بل في حقوق الأبنا أيضا

١-٣ حقوق الأبناء في الإسلام

فنهى الله عن قتل الأبناء

قبل الإسلام كانت مولودة الرجل تدفن حية بلا ذنب اقترفته، وبلا شعور بالذنب ممن وأدها حية، كان ذلك تحسبا من عار محتمل قد تجلبه أو نفقة زائدة قد تتسبب فيها: (وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ * بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ (٢) وقبل الإسلام أيضا كان من قبيل العادة أن يقتل الأولاد ذكورا وإناثا من شدة الفقر (وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ) (٣)

أو خشية الفقر (وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا) ﴿٤﴾[٩٩]

[٩٩] (١) البقرة ٢٣٣ (٢) التكوير ٨-٩ (٣) الأنعام ١٥١ ﴿٤﴾الإسراء ٣١

قدم ناس من الأعراب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأوه يقبل أحد أحفاده فقالوا:

أتقبلون صبيانكم؟ قال صلى الله عليه وسلم: نعم

قالوا: لكننا والله لا نقبل

فقال رسول الله: أو أملك إن كان الله قد نزع من قلوبكم الرحمة؟

وقبل الإسلام أيضا كان الناس لا يرضون إلا بالذكر

(لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ*أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) ﴿١﴾

وظلت معضلة رعاية الأطفال تؤرق الآباء إلى أن أوجد الله للناس حلا يتمثل في التقوى

(وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا) ﴿٢﴾

الإعالة

فرض الله على الرجل أن يكرم من يعول وفي هذا يقول رسول الله:لعن الله رجلا أضاع من يعول.

أما الفقراء فالله يعدهم بالرزق لهم ولأبنائهم أما من يخشون الفقر للإعالة فالله يعدهم بالرزق لمن يعولوا ويفرض الله على الأم الرضاعة كحق للطفل، وعلى الأب بالتكفل بالأبناء في الإعاله والكسوة بالمعروف على ألا يضار مولود له بولده أو تضار مولود لها بولدها:

(وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِ) (٣)[١٠٠]

وبعد كل واجبات الرجل في أداء دوره، يحذره الله في سورة التغابن في الآيات من ١٢- ١٦:

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ، وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ، وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ، وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

وفي سورة المنافقون بالآية رقم ٩ يحذر الوالدين فيقول:

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ، وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

١-٤ مكانة الوالدين في الإسلام

خمس مرات ذكر العلي القدير حق الوالدين في أن يعاملهم الأبناء بالإحسان

[١٠٠] ﴿١﴾الشورى ٥ ﴿٢﴾ النساء ٩ (٣) البقرة ٢٣٣

(وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ) (١)

(وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا*وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ (٢)

(قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٣)

(وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٤﴾

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ) (٥)[١٠١]

يا رسول الله إني أشتهي الجهاد ولا أقدر عليه

فيقول له رسول الله: هل بقى من والديك أحد

قال: نعم

فيقول: قابل الله في برِّهما، فإذا فعلت ذلك فأنت حاج، ومعتمر ومجاهد

٢- نساء الأنـبـياء

٢-١- نساء أنبياء الله قبل محمد

قلنا من قبل أن الإسلام لم ينشئ شرعة تعدد الزوجات ولم يوجبه ولم يستحسنه ولكنه أباحه وقيده في الغرض والعدد وفضل عليه الزوجة الواحدة فإبراهيم عليه الصلاة والسلام تزوج من سارة، ثم تزوج من هاجر ثم قطورة، أما حفيده يعقوب عليه السلام فقد كانت مباحه في الشريعة الإسرائيلية دون قيد فقد تزوج من ليئة ومن راحيل وهما بنات خالة وأختان أما عن زواجه من الإماء فكان من زلفة جارية ليئة ومن بلهه جارية راحيل، وداوود الملك النبي الذي كانت لديه تسع وتسعين امرأة ما بين زوجة وأمة ففي الإصحاح الثاني عشر من سفر صموئيل الثاني يقول النبي ناثان لداود (أنا مسحتك ملكا على إسرائيل وأنقذتك من يد شاؤول وأعطيتك بيت سيدك ونساء سيدك، لماذا أخذت امرأة يوريا لك امرأة)

وسليمان الملك النبي الذي كانت لديه ألف امرأة ما بين زوجة وجاريه وفي الإصحاح الحادي عشر من سفر الملوك الأول أن الملك سليمان (أحب نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون: مؤابيات وعمونيات

---

[١٠١] (١) الأحقاف ١٥ (٢) الإسراء ٢٣- ٢٤ (٣) الأنعام ١٥١ ﴿٤﴾النساء ٣٦ (٥) البقرة ٨٣

وأورميات وصيدانويات وحيثيات فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة وكانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلاثمائة من السراري، فأمالت نساؤه قلبه)

٢-٢ نساء النبي

لم يكن تعدد الزوجات حكرا على رسول الله محمد بين الأنبياء بل كان التعدد من الكمال له كقدوة للعالمين إذ قال تعالى في سورة الأحزاب آيات ٥٠- ٥١

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ، قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ، وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ، وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ، ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ، وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا)

إذن فزيجات رسول الله كانت بتوجيه إلهي لإيواء الأرامل فتقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتاهن كلهن.

في سورة الرعد بالآية ٨ (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً) إذ كان التعدد مباحا في المجتمعات الإنسانية كافة سواء بين الأنبياء أو بين البشر، كان التعدد من موجبات الرحمة المطلوبة منه والمجبول عليها، وليس لتمكين رسول الله من المتعة وإلا لكان سليمان الحكيم وداوود عليهما السلام أكثر اتهاما ومعهما باقي أنبياء الله، وكانت زيجات رسول الله بعد وفاة خديجه كقدوة يقتضى بها لحفظ المرأة من المهانة والاحتياج وصيانتها من الفتنة إلى جانب تدعيم النظام الاجتماعي فكلهن أرامل ماعدا ثلاثة (عائشة وجويرية وماريا) وأغلبهن أرامل لشهداء، وكان دخول المرأة في عداد زوجات النبي شرفا لا يدانيه شرف رغم عيشهن في بيت النبوة على الشظف والكفاف من الطعام والزينة ليس فيه إلا الغذاء الروحي، ولما اجتمعن يسألن الزيادة في النفقة أمهلهن رسول الله بأمر من الله شهرا وخيرهن أن يفارقنه فأبين إلا أن يبقين معه صلى الله عليه وسلم.

٢-٢-١-خديجة بنت خويلد:

قبل النبوة بخمسة عشر عاما تزوج محمد بن عبد الله بن عبد المطلب وهو ابن الخامسة والعشرين من خديجة بنت خويلد المخزومية المرأة الثيب وقد بلغت الأربعين، وهي الطاهرة سيدة مكة، التي عوضته حنان الأم المفتقد، وهيأت الحياة الرغيدة التي لم يطلبها يوما، فعاشا معاً خمس وعشرون سنة، وهي عمر كامل من المودة والصدق والأمان لكليهما، في السنوات الخمس عشرة الأولى قبل النبوة، رزقا بجميع أولاده - ما عدا إبراهيم – من الذرية الصالحة من الأولاد والبنات، فكان القاسم هو ابنهما البكر وكان يكنى محمد به قبل الرسالة وبعدها، ثم عبد الله الطيب أو الطاهر، مات كل ولده قبل النبوة وبعد مدة وجيزة من انتهاء حصار الكفار للمسلمين في شعاب مكة ماتت خديجة بنت خويلد حبيبته وملاذه نصيرته وتحنانة حاميته وزاده وأول من آمنت به وثبتته، ومن عوضته حنان الأم والوحيدة التي منحته الولد والبنت، رفيقة الكفاح والإيمان.

كان إيمان خديجة أم المؤمنين مثالا للإيمان الصادق الممزوج بالتضحيات والابتلاءات فقد فقدت أغلب أموالها من أجل الدعوة ولحماية الرسول وكسدت تجارتها وقاربت على الإفلاس، أهين زوجها وهدد بالقتل وطُلقت ابنتاها ونأى الناس عن خطبة فاطمة فاشتد عليها البلاء حتى

ماتت، وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا رجل مثلنا، قد أدبه الله واصطفاه فاختارة ليكون لنا قدوة، يشعر كما نشعر، ويحب كما نحب ويفرح كما نفرح، يشقى كما نشقى ويبكي كما نبكي، هو بشر فيه كل ما في البشرية من مشاعر، فيحزن ويحزن ويحزن، على فراق شبيهه الأب في الحماية، وشبيهة الأم في التحنان..

هو عام الحزن بجدارة إذن. وبعد وفاة خديجة رضي الله عنها وأرضاها وفي الأواخر من شهر رجب أو منتصف شهر شعبان بالسنة العاشرة من النبوة وكان رسول الله قلما يبيت في بيته، شعر بوجوب استمرار الحياة على نسق من الانتظام حتى يتفرغ للدعوة دون إبطاء فسعت (خولة بنت حكيم السلمية) إلى بيت رسول الله وفاتحته فيما لم يستطع الرجال أن يفاتحوه فيه، فاقترحت عليه أن يتزوج، فقال رسول الله في نبرة ألم: (ومن بعد خديجة؟)

فقالت خولة (إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً يا رسول الله)

فقال: (فمن البكر ومن الثيب؟)

قالت (أما البكر فعائشة، وأما الثيب فسودة)

٢-٢-٢- سودة بنت زمعة (لرعاية الأرامل المزهود فيهن)

(وَتُئْوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ، وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ، ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ)

سودة بنت زمعة رضي الله عنها وأرضاها كانت أرملة السكران بن عمروبن عبد شمس الذي مات بأرض الحبشة فعادت إلى مكة بلا كافل لها ولأولادها وكانت في السابعة والخمسين من عمرها، ولو عادت لأهلها لأكرهوها على الشرك بعد أن هداها الله، وكان لزاماً على هذه العصبة المؤمنة أن تتكفل بها فتولى رسول الله كفالتها بالزواج (كانت الزوجة الثانية لرسول الله ثلاث سنوات قبل الهجرة في شوال سنة عشر من النبوة) في السابعة والخمسين من عمرها وهي تكبره بسبع سنوات

كان الزواج تكريماً لها على إخلاصها وصدق إيمانها بالله فكان وقد سن سنته على نفسه بأمر الله له ولكفالة أيتام المسلمين وراعيا لنسائهم من شهامة رسول الله المعروفة عنه وعن آل هاشم

٢-٢-٣-عائشة بنت أبي بكر

وأيضا كانت شهامة رسول الله وراء زواجه من عائشة فقد كان حال أبو بكر على ما هو عليه إذ كان المطعم بن عدي قد خطبها لإبنه لكنه فسخ الخطبة عقابا لأبي بكر الصديق على إسلامة وكانت خطبتها وهي في الحادية عشر من عمرها (في شوال سنة إحدى عشر من النبوة) وقد أرجأ رسول الله خطبتها لعلها تخطب من غيره، خاصة بعد عزوف الناس عن مصاهرة أبا بكر كما نصت بنود وثيقة المقاطعة، وفي هذا السن أو نحوه في ذلك الزمان فإن لم تخطب فيها الفتاة لبارت، ولما عزف الناس كان من المروءة أن يخطبها رسول الله، ولما كانت لا تزال صغيرة فقد بقيت عند أبيها، حتى هاجر الرسول ليثرب واستقر له المقام فيها، فكانت مصاهرة رسول الله لأبي بكر أعظم مكافأة لأبي بكر في الحياة الدنيا وفرح رسول الله بخطبة عائشة.

في شوال من السنة الأولى للهجرة أي بعد سبعة أشهرونيف من الهجرة، كانت عائشة رضي الله عنها قد قاربت أو جاوزت الرابعة عشر من عمرها، وهو السن المناسب لزواج البنات في هذا الزمان،

وكانت فتاة صغيرة حلوة القسمات محببة العشرة، ذات ولع باللعب والمرح، فوجد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أنساً وطرافة، كما وجدت عائشة فيه صلى الله عليه وسلم رقة وشفقة، فلا يأبى عليها اللعب واللهو بألاعيبها وبالدمى الصغيرة، فتسليه ببراءتها وتخفف عنه عبء المسؤولية الملقاة على عاتقه صلى الله عليه وسلم، فأسكنها بمسكنها إلى جانب سودة رضي الله عنها وأرضاها في جوار المسجد وأصبح لرسول الله زوجتان.

٢-٢-٤ - زينب بنت خزيمة (أم المساكين)

(وَتُـْوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ)

مات زوجها إبن عمة رسول الله في غزوة أحد، وكانت أم المؤمنين زينب بنت خزيمة أرملة في الخامسة والستين من عمرها ولم تكن ذات جمال وقد تخطت الشباب، كانت مشهورة بطيبتها وإحسانها حتى أنها لقبت بأم المساكين، وبعد استشهاد زوجها عبيدة بن الحارث عزف الرجال عن الزواج منها إذ كانت تعلن رفضها لفكرة الزواج لتفرغها لتربية أبناءها، فتقدم لها رسول الله صلى الله عليه وسلم فآواها في شوال سنة ٣ للهجرة ٦٢٤ م عملا بأمر الله له (وَتُـْوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ) شهامة كعادته في رعاية أرامل الشهداء إن عجزعن تزويج الأرملة فقبلت وهي ثالث أرملة، إلا أنها وبحكم سنها توفيت بعد زواجها من رسول الله بأشهر قليلة.

٢-٢-٥- حفصة بنت عمر بن الخطاب

(ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ) كانت حفصة بنت عمر بن الخطاب أرملة خنيس بن حذافة بن قيس وكان خنيسا أحد السابقين إلى الإسلام وكان ممن هاجروا للحبشة قبل زواجه من حفصة وشهد بدرا وأصيب فمات عن حفصة (وهي رابع أرملة يتزوجها رسول الله) وحزن عمر كما حزن رسول الله، فقد كانت في الخامسة والعشرين من العمر فهي صغيرة أن تترك بغير زواج ومرت سبعة أشهر لم يتقدم أحد لها فعبرعمر عن حزنه لأمر ابنته وعرضها على عثمان بن عفان وعلى أبي بكر الصديق فأعرضا عنها، فقال له رسول الله: (قد زوج الله عثمان من هي خير من حفصة وزوج إبنتك من هو خيرمن عثمان) وتزوج بها رسول الله وهي رابع أرملة يتزوجها، (في ذي القعدة من العام الثالث للهجرة إبريل ٦٢٤ ميلادية) بعد وفاة زينب بنت خزيمة فبقي لرسول الله ثلاث زوجات وقتها فزاد عمر به تعلقا بأواصر المصاهرة والعرفان بهذا الشرف النبيل وقد كفل هذا الزواج للمسلمين مزيدا من القوة والترابط والتراحم، فقد كانت من عادات العرب ألا تترك إمرأة دون رجل يحميها.

٢-٢-٦- هند بنت أمية - أم سلمة (أم العيال) :

(وَتُـْوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ) أرملة عبد الله المخزومي (أبو سلمة) وهو أول من هاجر من مكة للمدينة ومعه امرأته وبعد شهرين من هزيمة أحد وكان قد جرح فيها والتأم الجرح ظاهريا فبعثه رسول الله وعقد له لواء وبعد عودة أبو سلمة ببضعة أيام نكأت عليه جراحه التي أصيب بها في أحد فمات رضي الله عنه وأرضاه وبعد أربعة أشهر من وفاته في جمادي الآخرة سنة ٤ من الهجرة خطبها رسول الله إلى نفسه فاعتذرت أم سلمة بكثرة العيال، وبتخطيها الشباب، فما زال بها يلح عليها حتى قبلت وأخذ صلى الله عليه وسلم نفسه بتنشئة أبنائها فازداد المسلمون تعلقهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ورأوه أبا للجميع وحنونا لكل بائس وفقير ويتيم، فلم يكن رسول الله في حاجة لزوجة وهي خامس أرملة، وإنما كانت أم سلمة وأولادها في حاجة ماسة للرعاية وأصبح لرسول الله أربع زوجات وكانت أم سلمة ممن آواهن رسول الله. ٢-٢-٧- زينب بنت جحش (تشريع لتصحيح عادات جاهلية)

وهي ابنة عمته وطليقة دعيه فكان زواج رسول الله من زينب بأمر الله تنظيما لعلاقات المجتمع

لفرض التشريع الإلهي على المجتمع في أمور العبودية ولتحريم التبني والسماح بزواج الأدعياء كانت زوجة لزيد مولى الرسول بأمر من الله فسبب الله الأسباب إذ أنزل: (ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا بعيدا) فقد أعتقه الرسول من الرق وتبناه وأنعم عليه بتزويجه من ابنة عمته زينب فأبى أخوها عبد الله وأبت زينب ولم يكن رسول الله إلا منفذا لإرادة الله فجعلت تنشز عليه وتؤذيه فاشتكى زيد إلى رسول الله عدة مرات واستأذنه غير مرة في تطليقها فيجيبه: أمسك عليك زوجك واتق الله لكن زيدا لم يطق، وذهب إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه حكم من أهله وهو أيضا حكم من أهلها ليصلح ذات البين كما هو أمر الله في حالة النشوز، فسبب الله الأسباب وأوقع الله حبها في قلبه الشريف فعاد يكرر لزيد مقولته له أن أمسك عليك زوجك واتق الله أما زيد فلم يطق وطلقها.. فأرادها رسول الله زوجة له بما أوقعه الله من حب في قلبه، ولكنه خشي الناس وأخفى ما الله مبديه في قلبه فأنزل الله على رسوله معاتبا ومصححا لعادات العرب: (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه، أمسك عليك زوجك واتق الله، وتخفي في نفسك ما الله مبديه، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه)

وزوج الله تعالى رسوله من زوجته السابعة والخامسة بين الأحياء زينب بنت جحش في شهر صفر من السنة الخامسة من الهجرة وذلك على الرغم من نزول الآية (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ، ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾ (١) لخصوصية رسول الله كذا فقد كانت زينب بنت جحش هي الزوجة الوحيدة التي أمره الله بزواجه منها لضرورات التشريع وفيها أنزل الله تعالى: (فلما قضى زيد منها وطرا، زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا، وكان أمر الله مفعولا) وحرم الله التبني فأنزل في الأحزاب (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) فكان لابد للمجتمع أن يستمد عاداته من المنهج الرباني وليس من تصوراته الجاهلية وهي من نزلت آيات الحجاب بسببها لتحجب نساء النبي

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَاهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا) (٢) وكانت أولى زوجات الرسول لحوقا به (٣)[١٠٢]

٢-٢-٨- جويرية بنت الحارث (حقن الدماء) :

(ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ) لم يكن رسول الله يوما من الأيام يهدف من غزوة بني المصطلق، ولا من أي غزوة، إلا الدفاع عن الدين وفرح المسلمون بالنصر، لكن ماذا سيفعل صلى الله عليه وسلم بسبي الرجال والنساء والذراري، فلم تكن المكاسب الدنيوية هدفا فجاءت الفرصة، إذ كان من ضمن من سبي من النساء برة (جويرية) بنت الحارث بن أبي ضرار رئيس بني المصطلق، فرأى عليه الصلاة والسلام أنه إن صاهر الحارث ربما أسلم الحارث، فقبلت برة وأسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم (جويرية) وكانت في الحادية والعشرين من عمرها وثامنة أزواج النبي والسادسة بين الأحياء منهن (في شعبان سنة ٦ من الهجرة) وما أن بلغ الناس النبأ أرسلوا ما كان بأيديهم من أسرى من بني المصطلق، فجاء الحارث بن ضرار إلى رسول الله وأسلم، فأسلم من بعده كل بني المصطلق وحسن إسلامهم فحقن الرسول الدماء، وهدى الناس بتلك الزيجة، وأعز الإسلام بألف منهم.

---

[١٠٢] (١) النساء ٢-٣ (٢) الأحزاب ٥٣ (٣) طبقات بن سعد ج ٨ ص ١٠٨

٢-٢-٩- صفية بنت حيي بن أخطب (تشريع الزواج من كتابية)
(ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ)

صفية (زينب) بنت حيي بن أخطب النضيرية وهي من سبط هارون عليه السلام أخي موسى عليه الصلاة والسلام ولما كانت بنت ملك بني النضير الذي نفي إلى خيبر فقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ليس من الشهامة أسرها، كان عمرها ١٧ سنة (كانت أصغر زوجات الرسول وقتها إذ قد تجاوزت عائشة العشرين من العمر في ذلك الوقت) وكانت أرملة سلام بن مشكم الذي حاول اليهود إلقاء حجر على رسول الله من فوق بيته، فلما مات في خيبر تزوجت كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق أحد كبراء يهود ومات، ولذا أعتقها رسول الله تكريما لها وعرض عليها الزواج زيادة في التكريم فقبلت سنة ٧ من الهجرة، وهو أول زواج لرسول الله من كتابية لتشريع زواج المسلم من كتابية وتكريم ابنة ملك فلا تعامل كجارية وما اعتادت على السبي. وهي تاسع من تزوج رسول الله والسابعة بين الأحياء وخامس أرملة

٢-٢-١٠ - رملة بنت أبي سفيان بن حرب:
(وَتُئْوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ) كانت أم حبيبة (رملة) أرملة أحد المهاجرين الأول للحبشة، وقد بقيت بالحبشة خمسة عشر عاما ولما تنصر زوجها عبيد الله بن جحش ومات بالحبشة، فلم يكن من الشهامة أن تترك دون زواج أو أن تعود إلى أباها أبا سفيان بن حرب بمكة مسلمة فلا تأمن على دينها وهو على رأس المشركين فأوصى رسول الله النجاشي بتزويجه إياها على مهر ٤٠٠ درهم، ففعل أبرهة ما طلبه رسول الله (في المحرم من سنة ٧ هـ) فكانت هي أيضا ممن آواهن رسول الله عاشر زوجة وسادس أرملة

٢-٢-١١ ميمونة (دعوة سلام)
كانت برة (ميمونة) بنت الحارث العامرية الهلالية سليلة أحد بطون قريش، كانت أرملة عمير بن عمرو الثقفي ثم أبو زهير بن عبد العزى وهي أخت أم المؤمنين زينب بنت خزيمة من الأم التي ماتت بعد شهرين من زواجها من الرسول وخاله خالد بن الوليد فلئن استميل خالد لم يتبق لقريش من القادة العسكريين الأفذاذ إلا القليل من أصدقائه فلعل تلك الزيجة أن تأتي بهم لصفوف المسلمين فلا تراق دماء، كما أراد رسول الله بهذه الزيجة استمالة قريش في أن يمتد به المقام بمكة ثلاثة أيام أخرى، لتلين قلوب قريش لهذا الدين الجديد بمصاهرة، وكانت امرأة ثيب سبق لها الزواج فهي بادرة سلام تترك في نفوس قريش أثرا قد يسكن خصومتهم، وهي تعد أكثر زيجة من زيجاته تتسم بشهامة تتسع للجميع، فلئن لبوا دعوته وتحدثوا إليه فلعل مكة تتقارب وتفتح قلبها وأبوابها أمام دعوته طائعة، فشعر سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى بالخطر من هذه القوة الناعمة لدى المسلمين فاتفقا على أن يأتيا رسول الله وقالا: انقضى أجلك فاخرج عنا، ولم يتردد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل فورا على رأيهما فخرج من مكة وخرج المسلمون من ورائه (في ذي القعد سنة ٧ من الهجرة)

٢-٢-١٢- ارتفاع مارية القبطية لمقام الزوجة بعد ولادة إبراهيم
عاد حاطب بهدايا المقوقس في شهر صفر سنة ٨ هجريا – يوليه ٦٢٩ وكانت فتاة تبلغ من العمر ١٧ سنة (وكانت أصغر زوجات رسول الله على الإطلاق إذ قد بلغت عائشة الحادية والعشرين وبلغت صفية الثامنة عشر من عمرها) بيضاء جعدة جميلة فأنزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أختها سيرين بنت شمعون، ووهب سيرين إلى حسان بن ثابت فولدت له عبد الرحمن، وكانت مارية جارية لرسول الله وما ملكت يمينه فوطئها (في ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة - إبريل سنة ٦٣٠ ميلادية) في بيت من أملاكه من بيوت بني النضير التي آلت إليه صلى الله عليه وسلم، في محل يقال له الآن مشربة أم إبراهيم بمنزل تحيط به الكروم، وكانت مارية القبطية إلى يومئذ في مرتبة السراري، فرزقه

سبحانه وتعالى منها بعد تسعة أشهر بغلام دعاه إبراهيم تيمنا بإبراهيم جد الأنبياء الحنيف المسلم، ولما بشرته به فرح به أيما فرحة، وكان صلى الله عليه وسلم قد تخطى الواحدة والستين، وامتلأ قلبه بالغبطة، وارتفعت مارية بهذا الوليد إلى مكانة سمت بها عن مقام مواليه إلى مقام أزواجه، وزادتها حظوة عنده

لما ولدت إبراهيم فخرجت الغيرة بأزواج النبي - وجميعهن لم ينجبن - عما أدبهن به، إذ كان طبيعيا أن يدس ذلك في أزواجه غيرة تزايدت أضعافا بأنها أم إبراهيم بن محمد، وبأنهن جميعا لا ولد لهن، فبدأن يأتمرن بها.

٣ـالرسول في بيته

جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لأزواجه مكانة سامية لم تعهدها العرب من قبل بعد أن كن كغيرهن من النساء العربيات لا رأي لهن، فتغالين في الاستمتاع بحريتهن لم يكن لمثيلاتهن بها عهد، وتغالين مع رسول الله وليس غيره! فالله يأمر العباد ببر المرأة واصبر على أخطائها وكان الرسول هو القدوة للمؤمنين فهل كانت أزواج الرسول طيعات أم كن كسائر نساء أهل الأرض، ألم تكن تراجعن رسول الله فيرددن عليه سواء في الأمور اليومية أو حتى الفقهية؟ وهل كان سول الله يحتملهن؟ وكيف؟ وإلى أي مدى هو بشر مثلنا وإلا ما كان قدوة، فقدوة العالمين قد أعطى البشرية المثل في الترفع عن الصغائر والرحمة بالقوارير، ولقد نزل في أمهات المؤمنين من الآيات التي كشفت الكثير عن حياة النبي الزوجية كما سنرى، وذلك الكشف هو سنة الله مع الأنبياء، فأعطى الله الأمثال عن ذلك في التوراة والإنجيل والقرآن ففي سورة التحريم بالآيات من ١٠ حتى ١٢

كانت الغيرة بين نساء النبي وآثارها على بيته النبوي من أهم السمات التي شكلت المنغصات اليومية كما هو الحال لأي من العالمين يجمع بين أكثر من زوجة، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعطى المثل في حسن التصرف، كان رسول الله يتوخى العدل في تعامله مع زوجاته كما أمر الله تعالى ـ ولأنه بشرـ وكما قال الله فبالرغم من حرصه صلى الله عليه وسلم، فإن أمورا كانت تتسم بإيثار بعضهن على بعض مهما حرص فهو صلى الله عليه وسلم بشر وإلا لما كان لنا قدوة فكانت مشاعره الإنسانية أحيانا تثير الغيرة بينهن

(وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا)

وقد بلغت منازعات أمهات المؤمنين حدا هم عليه الصلاة والسلام أن يطلقهن أو سيطلق بعضهن خاصة بعد تآمرهن عليه.

الغيرة من زينب بنت جحش وبداية تواطؤ أمهات المؤمنين على النبي

كان من عدل رسول الله مع أزواجه أنه بعد صلاة العصر يدور على نسائه فيدنو منهن جميعا ويجلس معهن قليلا حتى يعود، فإذا دخل على زينب بنت جحش وكان حديث الزواج بها كان يحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس عندهن (أم سلمة وعائشة وحفصة) وكانت تعلم زينب بحب النبي للعسل، فتعد له العسل وتعطيه منه، فأحدث ذلك الغيرة في نفوس سائر نسائه وتغار المرأة دائما من المرأة الجميلة وإن لم تنافسها على رجل، وتقتلها الغيرة على رجلها التي تشاركها فيه الجميلة أو أي ميزة غير الجمال فيها، فتواطأت عائشة مع حفصة وأم سلمة أن اتفقت معهن عائشة قائلة" أيتنا ما دخل عليها النبي فلتقل إني أجد ريح معافير أأكلت معافير؟ " والمعافير برائحتة الكريهة قد نفرت النبي من كل

العسل، ففعلن، فحرم على نفسه العسل فلما فعل ندمت سودة وقالت أمام الرسول: سبحان الله! والله حرمناك مما تحب، فنظرت عائشة إليها نظرة ذات مغزى وقالت لها: اسكتي

فهم رسول الله ما دار من وراء ظهره ولم يعاتبهن من شدة رفقه بهن

غيرة أم سلمة وأمهات المؤمنين من عائشة

علم المسلمون بحب رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة، فكان أحدهم إذا أراد أن يهدي هدية إلى رسول الله أخرها حتى إذا كان يوم عائشة فبعث بها إليه (١) فأرسل النساء أم سلمة تكلمه فجاءته فكلمته صلى الله عليه وسلم فأعرض عنها ولما ألحت عليه قال: يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة فإنه والله ما نزل على الوحي في لحاف امرأة منكن غيرها (٢)

فقالت: أتوب إلي الله من ذلك يا رسول الله

وكانت سودة قد أحست بحب رول الله لعائشة فوهبت لها يومها إرضاء له صلى الله عليه وسلم وكانت قد تخطت الثالثة والستين، فأرسلن فاطمة الزهراء رضي الله عنها عله يستجيب لها فذهبت وقالت لرسول الله: يا رسول الله إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، فقال لها رسول الله: أي بنية، ألست تحبين ما أحب؟

قالت: بلى

قال: فأحبي هذه

قامت فاطمة فأخبرتهن بالذي قالت وبالذي قال (٣)[١٠٣]

واحترن فيمن يكلم رسول الله هذه المرة فلم تطل حيرتهن إذ انبرت زينب بنت جحش وقالت: أنا أذهب إليه وأحدثه بما عندنا وبما يغضبنا من هذا الأمر، واتجهت زينب إلى حجرة عائشة فقالت ما قالته فاطمة، لكن زينب لم تقف في سفارتها عند هذا الحد بل نالت من عائشة فتحفزت عائشة بالرد عليها فأشار النبي لها بأن تخف من حدتها، فاندفعت زينب وبالغت، فاختار رسول الله الحياد فأفحمت عائشة زينب (١)[١٠٤]

عائشة

كانت عائشة تحب رسول الله حبا كبيرا، وما مَن أمهات المؤمنين لم يكن يحببنه مثلها؟ لكن غيرتها كانت أقوى من حبها، فالمحب الحق لا يرض إلا بسعادة المحبوب مهما تكبد من ألم أو من نوازع الغيرة، ولكن الله جلت حكمته هو العالم بالقلوب، وعائشة لصغر سنها ولشدة الغيرة عندها كانت تدفعها تصرفاتها إلى أمور تغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان رسول الله يصبر عليها، والغيرة

---

[١٠٣] (١) انظر البخاري ٨٤\٧ ومسلم (٢٤٤١) و (٢٤٤٢) ومسند أحمد ٥٩\٦ وطبقات بن سعد ٨٥\٨

(٢) انظر البخاري ١٥١\٥، ٥٢، ٨٤\٧

(٣) صحيح الإمام مسلم ج ١٥ ص ٢٠٥

(٤) انظر البخاري ١٥٢\٥، ومسلم
[١٠٤]

أحدى صفات المرأة التي لا تقدر على إخفائها حتى لو أرادت، قالت لرسول الله يوما وهو داخل عليها: أين كنت؟!

قال: كنت عند أم سلمة

قالت: أما تشبع!

فتبسم رسول الله ولم يحر جوابا فاندفعت قائلة: يا رسول الله، لو مررت بعدوتين إحداهما عافية لم يرعها من الناس أحد وأخرى رعاها الناس، أيهما كنت تنزل؟

قال صلى الله عليه وسلم: بالعافية التي لم يرعها الناس

قالت: فلست كأحد من نسائك،

وهنا شرحت عائشة ما كان يدفعها لكل هذا، فأغلب نساء النبي قد رعاهن أزواجا قبله صلى الله عيه وسلم وعشن حياة زوجية سابقة بحلوها ومرها، وأغلبهن من كبار السن وأم سلمة من بينهن، أما هي فتريد لنفسها حياة تستأثر بها برسول الله، ولفرط الغيرة لم ترع حق مارية التي لم تكن قد عاشت حياة زوجية من قبل

كان دأب رسول الله أن يبر بعض العجائز من النساء فسألته عائشة في ذلك فقال: إن خديجة أوصتني بها (٢)[١٠٥]

فقالت مغضبة: خديجة، خديجة، خديجة، لكأنما ليس في الأرض امرأة غير خديجة.

غضب رسول الله وفاء لخديجة فخرج، ولما عاد وجد عندها أمها أم رومان تشكو إليها فقالت أم رومان: يا رسول الله مالك ولعائشة إنها لحديثة السن وأنت أحق من يتجاوز عنها

قالت عائشة: ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين قد بدلك الله خيرا منها!

فأسكتها قائلا: والله ما أبدلني خيرا منها، آمنت بي حين كذبني الناس، وواستني بمالها حين حرمني الناس ورزقت منها بولد وحرمته من غيرها، (٣)[١٠٦]

وحقيقة الأمر أن رسول الله كان يعلم ما أفضت به عائشة في شأن العافية التي لم يرعها الناس وهذا هو تفسير خروجها عن مألوف التعامل مع الزوج وتفسير صبره عليها. خرج رسول الله يوما وكان عند عائشة في ليلتها، فخرجت تتبعه مخافة أن يلم ببيت زميلة من زميلاتها، فوجدته قد ذهب للبقيع يصلى للشهداء ويستغفر لهم فعادت إلى بيتها تقول نفسها: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أنت في حاجة لربك وأنا في حاجة الدنيا فلما عاد رسول الله لحظ ما بها من كرب فسألها (ما هذه النفس يا عائشة؟) قالت: بأبي أنت وأمي أتيتني فوضعت ثوبيك ثم لم تستتم أن قمت فلبستهما فأخذتني غيرة شديدة ظننت أنك تأتي بعض صويحباتي حتى رأيتك بالبقيع تصنع ما تصنع، فقال لها ياعائشة أغرت؟ فقالت: وما لي لا يغار مثلى على مثلك

---

[١٠٥] (٢) فتح الباري ١٠\٣٦٥ – المستدرك ١\ ١٥، ١٦

[١٠٦](٣) أخرجه أحمد في المسند ٦\١١٧، ١١٨

موقف أبي بكر من عائشة

كان بين رسول الله وعائشة خلافا فأراد الرسول حكما بينهما فقال لها رسول الله: من ترضين بيني وبينك؟ أترضين بعمر؟

قالت: لا أرضى بعمر قط، عمر غليظ

قال: أترضين بأبيك بيني وبينك

قالت: نعم

بعث رسول الله إلى أبي بكر فلما جاء قال له رسول الله: إن هذه كان من أمرها كذا وكذا

فقالت عائشة لرسول الله: اتق الله ولا تقول إلا حقا!

غضب أبو بكر ولطمها لطمة على أنفها، فولت عائشة وراء ظهر رسول الله فلزقت بظهره تحتمي به وغضب رسول الله من أبي بكر وقال له: أقسمت عليك لما خرجت فأنا لم أدعك لهذا.

لما خرج أبو بكر قامت عائشة فتنحت عن رسول الله وابتعدت عنه معرضة عن رسول الله فقال لها: أدن مني، فأبت وظلت معرضة عنه صلى الله عليه وسلم فقال لها يلاطفها متبسما: لقد كنت قبل شديدة اللزوق بظهري (١)[١٠٧]

خرجت عائشة مع نساء النبي كلهن في حجة الوداع مع رسول الله، وكانت عائشة على جمل وكانت خفيفة الوزن ومتاعها خفيف، أما صفية بنت حيي بن أخطب فما كانت خفيفة وكان متاعها ثقيلا فكان جملها يسير ببطئ فيتخلف عن الركب فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحويل متاع صفية لجمل عائشة وتحويل متاع عائشة لجمل صفية لتخفيف الوزن عن جمل صفية ليمضي الركب فقالت عائشة: يا لعباد الله غلبتنا هذه اليهودية على رسول الله!

فقال لها رسول الله موضحا: يا أم عبد الله (كان رسول الله يكنيها باسم ابن أسماء أختها لرعايتها له) إن متاعك فيه خف، وكان متاع صفية فيه ثقل فأبطأ الركب فحولنا متاعك على بعيرها ومتاعها على بعيرها.

فقالت عائشة: ألست تزعم أنك رسول الله فهلا عدلت ؟!

فتبسم رسول الله وقال لها: أوفي شك أنت يا أم عبد الله؟

سمع أبو بكر ما قالته ابنته فأقبل عليها ولطمها، فقال رسول الله: مهلا يا أبو بكر

فقال: يا رسول الله ألم تسمع ما قالت؟

فقال رسول الله: إن الغيران لا يبصر أسفل الوادي من أعلاه (١)

---

[١٠٧] (١) أخرجه الحافظ الدمشقي – راجع السمط الثمين ص ٥١

ظهرت الغيرة جلية لما أنزل الله عز وجل
(يَأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ، قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ، وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ، وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ، ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ، وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا)

قالت عائشة: ما أرى ربك إلا يسارع لك في هواك يا رسول الله! فأعمتها الغيرة فلم تبصر عائشة أنها تعلق على آيات قرآنية ولم تبصر أنها تتحدث عن ومع رسول الله

إبراهيم وغيرة عائشة

كان مولد إبراهيم بن محمد سببا في أن يمتلئ قلبه الكبير بالغبطة والسرور ولا عجب فقد تخطى رسول الله الواحدة والستين من العمر ولم يكن يحلم أن يعقب مكرسا نفسه للدعوة بعدما مات أولاده الذكور جميعا بل والإناث أيضا ماعدا فاطمة، وبعدما ظلت أزواجه جميعا من بعد وفاة خديجة ومنهن الفتاة الفتية التي لم تعقب كعائشة وحفصة وصفية وجويرية، ومن منهن النصف التي أنجبت من قبل أو لم تنجب كميمونة وزينب بنت جحش ورملة بنت أبي سفيان، ومنهن كبيرة السن التى يئست من الحمل والمحيض كزينب بنت خزيمة وأم سلمة، كما كان مولد إبراهيم بن محمد سببا أثار في زوجات النبي غيرة وامتعاضا لم يقف أثره، فقد حمل النبي إبنه إبراهيم فرحا وفياضا بالبشر يوما إلى حبيبته عائشة يريدها أن تشاركه الفرحة فدعاها - كأي أب يغمره السرور بإبنه - لترى ما بينه وبين إبراهيم من شبه، فنظرت إلى الطفل وما كان منها ردها بعدما عجزت عن ضبط النفس والترفع عن مطاوعة كل عارضة من عوارض الأهواء وقالت لرسول الله أنها لا ترى شبها بينهما!

ودونما الدخول فيما وراء تلك الكلمة من تفاسير ومقاصد أخرجت الغيرة عائشة مما أدبها به رسول الله فهي تكاد تتهم مارية بما يعرف رسول الله أن ليس فيها، ووجم رسول الله ولم يحر جوابا، ثم تابعت عائشة بأن أي طفل ينال من اللبن (تستكثر اللبن على الطفل) ما يناله إبراهيم يكون مثله وخير منه! فلم ترع عائشة كحبيبة للرسول فرحته ورسول الله لا يرض أن يفرح دون أن تفرح له حبيبته بما أناله الله من رزق كان أبعد حتى من أن يتوق إليه، وهكذا فقد كانت غيرتها عليه أشد من حبها له صلى الله عليه وسلم، وقد كانت لغيرتها من مارية جولة أشد ألما على رسول الله كما سنرى.

حفصة تشارك عائشة وموقف عمر منها

علاوة على ما ذكرنا من مشاركة حفصة في أمر العسل فقد روى جابر بن عبد الله (١) عن أم بشر أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول وهو في بيت حفصة (لا يدخل النار أحد من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها) (٢) فقالت حفصة تصحح له صلى الله عليه وسلم (وإن منكم إلا واردها) (٣) فقال النبي (ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا) (٤)[١٠٨]

---

[١٠٨] (١) أعلام النساء ج ٣ ص ٢٠ وذكره صاحب السمط الثمين وقال أخرجه الحافظ الدمشقي وصحيح مسلم

(٢) مريم ٧١ (٣) مريم ٧٢ (٤) النساء ١٢٩

لم يغضب رسول الله وإنما أوضح، وذلك كان دأبه صلى الله عليه وسلم فيعطي المثل والقدوة في الحلم والأناة يندر أن يتحلى بها رجل غير رسول الله. ثم رأت عائشة أن تستعين بحفصة بما تفعله وانحازت حفصة لجانب عائشة!

كان عمر بن الخطاب يرقب ابنته فآلمه أن تساير صاحبتها فليس لها مثل حظها من المكانة والحب في قلب رسول الله وفي يوم قالت امرأة عمر: والله لو صنعت كذا وكذا! فقال لها: ومالك أنت ولما ها هنا؟ وما وتكلفك في أمر أريده! فقالت: عجبا لكي ابن الخطاب، لا تريد أن تراجع وابنك تراجع رسول الله حتى يظل يومه غضبان؟ فأخذ رداءه ودخل على حفصة وسألها: يا بنية إنك لترجعين رسول الله حتى يظل يومه غضبان؟ قالت: نعم، فقال: تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله، يا بنيتي لا يغرنك هذه التي أعجبها حسنها وحب رسول الله لها أين أنت من عائشة؟ وأين أبوك من أبيها، والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ولولاي لطلقك (١)[١٠٩]

دخل عمر بن الخطاب على النبي يوما بعد الاستئذان ومعه أبو بكر على النبي الذي تأخر عن

الصلاة لخلاف مع زوجاته لسؤاله عن زيادة النفقة لبيوتهن بعد أن أفاء الله على رسوله بمال من الأنفال، ورسول الله لا يرى في هذا المال إلا أن تنفق على الفقراء فوجدا النبي جالسا وحوله نساؤه واجما ساكنا فقال عمر (يا رسول الله، لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقمت فوجأت عنقها) فضحك رسول الله وذهب عمر يجأ عنق حفصة وذهب أبو بكر يجأ عنق عائشة وهما يقولان: تسألن رسول الله ما ليس عنده من نفقة؟ فقلن لا والله لا نسأل رسول الله أبدا شيئا ليس عنده، فأنزل الله جل وعلا قوله: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا) (٢)[١١٠] فاخترن الله ورسوله

ماريه بنت شمعون

في شهر المحرم من سنة تسع هجريا وقبيل غزوة مؤتة وبعد مولد إبراهيم حدث من حفصة أمر تسبب في غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا وقد شاركتها فيه عائشة وكل نساء النبي، كانت مارية بنت شمعون القبطية ملك يمين رسول الله، وحلال له أن يختلي بها وكان ذلك هو شأن هذا الزمان في سنة البشرية، لكل رجال هذا العصر أنبياء كانوا أم غير أنبياء واستمرت المجتمعات هكذا حتى بدايات القرن العشرين، وكذلك كانت سنة الأنبياء من قبله سليمان وداوود، وكانت مارية كما تم ذكره في بيت من بيوت بني النضير التي آلت إليه صلى الله عليه وسلم، في محل يقال له الآن مشربة أم إبراهيم بمنزل تحيط به الكروم، وكانت إلى يومئذ في مرتبة السراري فوطئها، لكن ولبعد هذا البيت فقد خلا الرسول بها يوما في حجرة حفصة التي كانت قد غادرتها لشأن من شؤونها فلما عادت علمت بما حدث، وبعد انصراف مارية دخلت حفصة حجرتها، وتذكرت ما قاله لها أبوها (والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ولولاي لطلقك) (٣)[١١١] فعادت إليها أحزانها ولم تستطع أن تصبر فقالت لرسول الله: لقد رأيت من كان عندك - ثم تابعت حديثها باكية - والله لقد سببتني - وزاد نحيبها وتابعت - وما كنت لتصنعها لولا هواني عليك، ثم أجهشت ببكاء مر.. ووقعت كلمات حفصة من رسول الله موقعا أليما، فأقبل عليها يسترضيها، وحار في أمرها وأسر النبي إليها حديثا، فأقسم بتحريم مارية عليه مرضاة لها على الرغم أن مارية في شرعة الله حلال له فهدأت، ثم أراد أن تتناسى هذا الأمر حرصا

---

[١٠٩] (١) راجع تفسير بن كثير عند تفسير قوله تعالى (يا أيها النبي لم تحرم ما الله أحل لك)
[١١٠] (٢) الأحزاب ٢٨-٢٩
[١١١] (٢) تفسير بن كثير ج ٧ ص ٥٤

على مشاعرها ولا تذكره وتنبئ به باقي أمهات المؤمنين حرصا علي البيت النبوي ورضيت حفصة ووعدت باعتبار الأمر كأن لم يكن على أن يحرم رسول الله مارية على نفسه، وسعدت ليلتها بقرب الرسول وعطفه وتقديره لها، وتأكدت من مكانتها عنده صلى الله عليه وسلم، في اليوم التالي جاءت جولة عائشه الثانية من ماريا إذ بمجرد أن لمحت حفصة عائشة، وسألتها عما بها لم تستطع حفصة أن تكتم عنها ما تطوي به نفسها مما أسر لها رسول الله به، ولم تحترم عهدها مع رسول الله ولم تقدر خطورة الموقف في البيت النبوي وإشعال النار فيه فنبأت به صاحبتها وغريمتها، وما أن علمت عائشة بهذا الأمر حتى جمعت نساء النبي تثير ضرائرها فمازالت بهن حتى انضممن إليها وإلى حفصة في شبه مظاهرة ثائرة على ماريا وقد نسين غيرتهن من عائشة وكانت كلمتهن الموحدة: (صبرنا على إيثار الرسول لابنة أبي بكر وما بقي إلا تلك الأمة القبطية فأي هوان)

كان هذا الحديث من أمهات المؤمنين - المدفوع بالغيرة - حديثا عنصريا قد نهانا الله عنه، فعنصرية العقيدة المذمومة كعنصرية الجنس واللون والنوع المنهي عنه في دين الله تماما ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فجريا على ما قالته عائشة بخصوص صفية (يا لعباد الله غلبتنا هذه اليهودية على رسول الله) (١) كانت المظاهرة هذه المرة ضد (الأمة القبطية) (٢)[١١٢]

ولجت عائشة وحفصة في غيرتهن، وطفقت أمهات المؤمنين يظاهرن على رسول الله غيظا من مارية التي حملت دونهن، وما كان من رسول الله الذي يسبق حلمه غضبه أن ترفق بهن ما استطاع مقدرا بواعث غيرتهن، لكنهن تمادين في اللجاج إلى حد الشطط، مستمرئات عطف رسول الله وحلمه ورفقه بالقوارير،

إن مقدمات هذه القصة ونتائجها والوقائع التي سبقته وأدت إليه والروايات الصحيحة التي وصلتنا في زمننا الحالي يتضافر على تأييدها ما جاء في كتب الحديث وكتب التفسير، وما جاء متفرقا عن أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ونسائه في مختلف كتب السيرة ولكن دون أن تمحصها تلك المصادر أو تقف عنده وكأنها تخشى الاقتراب منه، في حين أن بحثه والخوض فيه يقطع الطريق على من يسيئ إلى سيرة الرسول صلى اله عليه وسلم، وقد كانت في سيرته العطرة العديد من المواقف سواء فيما يتعلق ببيته أو بغيرها من الأمور الدنيوية والدينية، وليس زواجه من زينب بن جحش ومقدمات هذه القصة ونتائجها والوقائع التي سبقته وأدت إليه إلا تشريع، كما ليس في هذه القصة العنصرية إلا تشريع وقدوة حسنة لأصحاب المسؤوليات الجسام، فمارية التي أنجبت لرسول الله لها حقوق ما ملكت يمينه، كما أن لرسول الله واجبات في الانجاب منها وإن لم يكتب لإبراهيم الحياة، وكونها كتابية لا يحرمها من الحقوق ويمنعه من الواجبات، وكل رجل منا إن كان صادق الإيمان وجب عليه أن يسير على نهج رسول الله وقدوته في الرفق بالقوارير، ولربما تصورت بعض النساء صبر زوجها عليها علامة على تمكن حبه لها بما يغريها بالمزيد من اللجاجة، علما بأنه كلما زاد الرجل منا في الرفق بالزوجة كلما اقترب من النهج النبوي الشريف، ولكن إلى متى وإلى أين؟

ما كان الرسول فارغ البال إذ ذاك لهذا العبث الأنثوي المسرف وما كانت المسؤوليات الجسام الملقاة على عاتقة صلى الله عليه وسلم تسمح له بالصبر إلى أكثر من المدى الذي صبر فقد وقعت تلك الأحداث بعد غزوة مؤتة وقبيل غزوة تبوك، فالخطر الداهم على الدعوة والمسلمين لا يدع مكانا لهذا العبث وكانت قبائل غسان المسيحية بالشام تجهز مع الروم جيشا لغزو المدينة، ولكن ما كانت النظرة العنصرية لماريا ترضيه، وما كان يستطيع أن يرضى لحفصة والباقيات أكثر من أن يحرم على نفسه حلالا وما كان له أن يصبر كل ما صبر وأمور الدعوة تحتاج منه إلى اليقظة فأبلغه جبريل بما كان

---

[١١٢] (١) تفسير بن كثير ج٧ ص٥٧ (٢) موسوعة آل النبي ص ٢٧١

منهن فلام صلى الله عليه وسلم حفصة وهو ينبئها ببعض ما عرف وأعرض عن ذكر بعض ما عرف من جبريل فقالت في محاولة للإنكار (من أنبأك هذا) فقال لها أنبأني العليم الخبير، فاعتزلهن رسول الله في صراحة لم يألفها منه، وأعلن في حزم وتصميم أنه منقطع عنهن (١)[١١٣] وأشيع أن النبي صلى الله عليه وسلم قد طلق حفصة، بل وأشيع أنه صلى الله عليه وسلم قد طلقهن جميعا.

انقطع رسول الله عن نسائه شهرا، وما كلم أحد في شأنهن، وسارت أمور المسلمين على سيرتها الأولى اللهم إلا في قضاء رسول الله وقته في خزانة ذات مشربة، ووضع غلام له يدعى رباح على عتبتها ما بقي في تلك الخزانة التي كان صلى الله عليه وسلم يرقى إليها على جذع من نخل في حياة خشنة قاسية وما كان يجرؤ أحد أن يفاتحه في شأنهن، طال الغياب على أزواجه وهن خلال ذلك مضطربات نادمات إلا أن أبا بكر وعمر وأصهار النبي جميعا كانوا في قلق على ما قدر لأمهات المؤمنين، وما يتعرضن له من غضب رسول الله عليهن وما يجر عليهن من غضب الله والملائكة وسرى الهمس بأن النبي قد طلقهن.

نزل أنصاري إلى عمر يطرق بابه بشدة ففزع عمر وخرج إليه فقال الأنصاري: قد حدث اليوم أمر عظيم قال عمر: ما هو؟ أجاءت غسان؟ فقال الرجل: لا بل أعظم من ذلك وأطول، طلق رسول لله نساءه.

لما سمع عمر بشائعة طلاق حفصة قال: ما يعبأ الله بعمر وابنته بعدها

حزن أبو بكر كما حزن عمر، فجلس عمر بالمسجد وإذا برهط يبكي بعضهم، لكن عمر الوثاب صاحب الشخصية الإيجابية والذي كان جالسا معه قام من مجلسه وقصد إلى مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بخزانته، وطلب من رباح غلام رسول الله كي يستأذن له عند الرسول، ونظر إلى رباح يروم الجواب ولكن رباح لا يقول شيئا في إشارة إلى أن النبي لا يريد أن يأذن له، كرر عمر النداء ؛ ولم يجب رباح فنادى بأعلى صوته (يا رباح، استأذن لي عندك على رسول الله فإني أظنه قد ظن أني إنما جئته من أجل حفصة، والله لئن أمرني بضرب عنقها لضربت عنقها)

كان وقع الكلمات مؤثرا على رسول الله، واستحى صلى الله عليه وسلم أن يرد عمر بعدما قال ما قال، وآثر أن يجمع المسلمين حوله لرد أعداء الإسلام من الروم ومانعي الزكاة فهو أولى من حقه في تأديب زوجاته، وحركت كلمات عمر في نفس رسول الله مشاعر العرفان له فأذن له فدخل عمر وجلس ووجد رسول الله حزينا، ثم أجال ببصره فيما حوله فبكى فسأله رسول الله: ما يبكيك يا بن الخطاب؟

كان ما أبكى عمر هو ذلك الحصير الذي يضطجع عليه الرسول وقد أثر في جنبه، والخزانة التي لا شيء فيها من طعام إلا قبضة شعير، فذكر للرسول صلى الله عليه وسلم ما يبكيه فعلمه رسول الله وجوب الإعراض عن الدنيا، وتعلم عمر ما بقي من عمره التقشف وهجر الدنيا، واستمر يتحدث مع النبي حتى تحسر الغضب من وجهه فاستمر في الحديث حتى ضحك صلى الله عليه وسلم ثم قال عمر: يا رسول الله ما يشق عليك من أمر النساء؟ إن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون..

قال رسول الله: إنما هجرتهن شهرا،

[١١٣] (١) موسوعة آل النبي ص٢٧١

لما عرف عمر هذا استأذن رسول الله في أن يفضي بالأمر إلى المقيمين بالمسجد وما يذكرونه من طلاقه نساءه وينتظرون. فأذن له رسول الله.

نزل عمر ونادى في الناس: لم يطلق رسول الله نساءه!

فرح عمر وبث الطمأنينة والفرحة في قلوب من بالمسجد وانتهى القلق وثاب إلى نساء النبي رشدهن، ورجعن إلى الصواب ونزل قول الله تعالى

(يَاأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ*قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ، وَٱللَّهُ مولاكُمْ، وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ*وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ، فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ*إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا، وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ، وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَذَٰلِكَ ظَهِيرٌ*عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا) (١)[١١٤]

كان التنزيل يشمل التوجيه لرسول الله بألا يحرم ما أحله الله له، وفرض عليه أن يتحلل من أيمان القسم بتحريم ماريا عليه، ثم بدعوة حفصة وعائشة بالتوبة مما اقترفن، وكان التحذير بطلاقهن جميعا على أن يبدله الله أزواجا خيرا منهن، مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا، في سورة الأحزاب جاء خيارالطلاق لنساء النبي كبديل بلفظ التسريح رأفة من الله بهن، أما التحذير الثاني في سورة التحريم فقد جاء صراحة بالطلاق، وفي اعتقادي أن لم يقع الطلاق لأي منهن، ولكن بنزول تلك الآيات كان الطلاق قاب قوسين أو أدنى، والطلاق بوجه عام قد يقع أحيانا كعقوبة للمرأة، وكان عقاب أمهات المؤمنين على ما فعلن هو الطلاق، وأمهات المؤمنين كسائر الصحابة والصحابيات على السواء، ويجوزعلى الجميع العقاب رحمة من الله وعرفان بصدق الإيمان لديهم، فقد كانت عقوبة الجلد للصحابة التي طبقت على حمنة بنت جحش أخت أم المؤمنين زينب بعد حديث الإفك بمشاركة عبد الله بن أبي وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة، فلم يسلم من العقاب على حديث الإفك مع من جلدوا إلا المنافق بن أبي، فلم يكن العقاب إذا إلا لتصحيح إيمان من يرجى منهم ذلك الإيمان.

بدت مظاهر العنصرية والتعالي بين الصحابة ورسول الله لا يزال بين ظهرانيهم، وذلك ما أصاب الأمة لليوم، فجعفر الطيار يعترض على إمارة زيد بن الحارثة رغم أن رسول الله كان قد أعتقه منذ عشرات السنين وتبناه، وظهرت العنصرية في مواقف كثيرة منها موقف أمهات المؤمنين تجاه صفية الإسرائيلية أم المؤمنين وماريا القبطية، وكأن دعوة إبليس لاتزال قائمة، ولاتزال لليوم العنصرية الفكرية والإيمانية تمارس، فنضاهئ قول الذين سبقونا من اليهود والمسيحيين في تعبيراتهم (شعب الله المختار) و (فضل الرجل الأبيض) فندعي أننا (خير أمة) ولم نعد كذلك وندعي أن غيرنا ليس على شيء ولن يدخل الجنة إلا المسلمون، وأننا إن عوقبنا بالنار فلن نعاقب إلا أياما معدودات في أدبيات أصحاب الإسلام الشعبي الضال.

*****

[١١٤] (١) التحريم من١- ٥

الفصل السابع

حج أبو بكر بالمسلمين وبداية علامات الردة

حج أبوبكر بالمسلمين وبداية علامات الردة

١ـ حج أبو بكر بالمسلمين

(إعلان نهاية الوثنية في الجزيرة العربية) :

بعد انقضاء عشرة أشهر على عام الوفود (العام التاسع من الهجرة) كان الإسلام قد مضى على دعوته السلمية للمشركين بالتوحيد ٢٢ عاما، فعم أغلب أرجاء الجزيرة العربية إذ رأى العرب أن في الإسلام منطق عقلي وفطرة إنسانية وعودة شرعية لدين إبراهيم، وعزة قومية تمنع الفرس والروم من استباحتهم خاصة بعدما رأوا الروم يفرون أمام المسلمين في غزوة تبوك، ومر عام الوفود فدخل الناس في دين الله أفواجا، وبات الحج للبيت العتيق بالنسبة للمؤمنين منفذا سلميا للدعوة لدين الله خاصة بعد هدم الأصنام بها، وما يزال بالنسبة للقلة المشركة المنتشرة في أغلب أرجاء الجزيرة العربية حجا لتعظيم تلك الآلهة (اللات في الطائف) وهنالك بالجزيرة العربية أناسا ممن لم يؤمنوا بعد ولا يزالون على ديانات الشرك والكفر بالله الواحد قد حصلوا من رسول الله على عهود بعدم منعهم من الحج، ولا يزالون يحجون لبيت الله الحرام في الأشهر الحرم، ولم يكن رسول الله بعد قد حج حجة الإسلام، وما أراد أن يحج فيحج معه من يشرك بالله.

كان رسول الله قد عاهد القبائل العربية من قبل بمعاهدات سلام مع بعض من قبائل المشركين إلى آجال مسماة، وعاهدهم على السماح لكل الناس بالحج للبيت الحرام ولا يصد عن البيت أحد قد جاءه، وصحيح أن رسول الله قد هدم أصنام الكعبة وأمر بهدم باقي الأصنام أينما وجدت في الجزيرة العربية، إلا أن المشركين لا يزالون يملكون الحق حسب التعاهد في الحج للبيت العتيق بدياناتهم، ومخالفاتهم ومنها الطواف حول الكعبة عرايا! فيشيع الكفر وتشيع النجاسة.

رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخلف العهود، والحج سيأتي بالمشركين (معاهدين وغير معاهدين) مع المسلمين، كل بشعائره وهو موقف مقدس يجتمع فيه من ثار على الشرك والآلهة بمن لا يزال في قلبه من يتمسك بالشرك وبالآلهة - في تناقض يؤدي الى القتال والاقتتال لا محالة - فتعبد أصناما قد هدمت، وكان طبيعيا في هذه الأحوال أن يحول المسلمون بين المشركين بمظاهر الشرك والبيت العتيق، والإسلام ليس هوية بل دعوة توحيد

كان لا يزال رسول الله ينتظر أن يأمره الله بالحج فلم يحدث، ورغب المسلمون في الحج الذي حرموا منه طيلة سنوات النضال، إذا، فلا مفر من أن يبق رسول الله بالمدينة ولا يحج حتى

يأتيه الأمر من الله ويأذن له بالحج وبما يأمره به في هذا الأمر، فأمر رسول الله أبا بكر الصديق بالحج بمن يرغب هذا العام.

خرج أبو بكر الصديق بثلاثمائة مسلم من المدينة المنورة فذهب قاصدا مكة المكرمة والبيت العتيق (في ذي الحجة سنة ٩ هجريا) وانضم إليهم عدد أكبر من غير المدينة وبدأ الحج والمشركون يأتون من كل فج عميق بالجزيرة العربية.

أراد الله جلت حكمته أن يجتمع الناس للحج سواء كانوا من المسلمين أو المشركين فيتم ما أراد الله من تبرئة الله والرسول من تلك العهود بتبليغهم بنقضها التي كانت بين المشركين والمسلمين مع إعطائهم مهلة أربعة أشهر، اللهم إلا من كان عهده إلى أجل فيعطى أجله،

بعدما خرج أبو بكر الصديق، أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم أوائل سورة براءة بنقض المواثيق ونبذها على السواء، وقد بدأت مناسك الحج وسط هذا الخليط ولما اجتمع الناس بمنى يكملون مناسك الحج، أوفد رسول الله عليا ليؤدي عنه ذلك وإنما بعث رسول الله عليا لأنه من أهل بيت النبي تمشيا من رسول الله على عادة العرب في نقض عهود الدماء والأموال ولما وصل علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي أوفده النبي كي يلحق بأبي بكر فيخطب في الناس يوم عرفة، فالتقى على بأبي بكر بالعرج أو بضجنان، فقال أبو بكر لعلي يسأله:

أمير أم مأمور؟

قال على: لا بل مأمور، ثم أخبره بما جاء في أول ٣٦ آية من آيات سورة براءة، وأكمل أبو بكر مناسك الحج، حتى إذا كان يوم النحر بعرفة، قام على بن أبي طالب عند الجمرة، ليؤدي الدور الذي من أجله أرسله رسول الله، فأذن في الناس وإلى جانبه أبو هريرة بالذي أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونادى في الناس يتلو قوله تعالى من سورة براءة:

(بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ * وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ، فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ، وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ، وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ، إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ* فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ*وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ *كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ، فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ، إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ *كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً، يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَـٰسِقُونَ * ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ، إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ*لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً، وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ*فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ، وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ * أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، أَتَخْشَوْنَهُمْ، فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ، وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ، وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ*أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً، وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ *مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ*إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ، فَعَسَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ*أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَـٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ، لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ، وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ*ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ، وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ* يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ*خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا، إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ *وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ* قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ، وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ*لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ*ثُمَّ

أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟، وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ*ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ، وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ* يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ*وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ، قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ، أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ* ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا، لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ، سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ* يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ* هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ *يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ، هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ * إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ القيم فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ، وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً، وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

بعد التلاوة وقف على بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه ثم صاح بالناس:

(يا أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته)

وقد حسمت الآيات تلك الأوامر كالتالي فبقول على:

يا أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر:

(أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ)

ولا يحج بعد العام مشرك:

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ)

(إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِوَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ، فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ)

ولا يطوف بالبيت عريان:

(إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا)

ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته:

(إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ، إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ)



كانت تلك الآيات موجهة لمشركي العرب ممن عاهدوا رسول الله، ومن يومئذ لم يحج مشرك، ولم يطف بالبيت عريان وبرأت الآيات الله ورسوله من عهود سابقة مع المشركين، وقد أمهلهم الله أربعة أشهر يسيحون في الأرض، يراجعون فيها أمرهم، فإن تابوا فإخوة في الدين، وإن أبوا فقد بشرهم الله بعذاب أليم، أما من لم ينقضوا العهد ممن عاهدوا من المشركين شيئا ولم يتآمروا فلن يعذبهم الله وأمر الله أن يتم المسلمون العهد إلى مدته، وأمر بقتل المشركين من العرب بعد الأشهر الحرم.

فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ *

وقبل أن نكمل استعراض ما بقي من نصوص الآيات ينبغي على كل ذي عقل أن يفرق بين لفظى أقتلوهم، وقاتلوهم، فقد كان أمر الله بقتل المشركين العرب الذين بلغتهم الدعوة صريحا فالأمر بقتلهم أمر عادل عدلا إلهيا، إذ أن الله تعالى له السلطان على البشر وكل البشر مدينون لله بنعيم الدنيا وبحياتهم عليها، وكل من ينعم بنعيم ذي سلطان فهو مدين له بذلك النعيم فإن دان رجل مالا لآخر فهو يدين له بهذا المال فإن لم يؤد هذا المال وجب حرمانه منه غصبا، وبالتالي فالأوجب أنه إن كان على البشر لله دَين بحياتهم فلا ينكرونه، ومن يفعل وجب رد نعمة سلطانه، وأول رد لهذا الدَين لله هو حياة المشرك التي أنعم الله بها عليه، فمن خلق الروح له أن يستردها، فالروح دَين على المخلوق للخالق الذي لم يُقابل الدين بالعرفان، فأداء دين الله هو العرفان بالعبودية ولابد من ادائه وإلا فغضب الله (١) وعبدة الأوثان من المشركين العرب (٢)[١١٥] بلغتهم الرسالة دون غيرهم لم يستن الله فيهم الجزية وإنما لهم القتل أوالإسلام، ولا يبقى على الأرض منهم أحد وليس هذا ظلما لهم فقد وصلتهم الرسالة على مدى ٢٣ عاما ورسول الله بين ظهرانيهم وهم لا يرفضون وحدانية الله إلا تكبرا على رسوله واستهتارا.

يتفق هذا الرأي الذي جاء بأن المقصود بالمشركين الذين يأمر الله بقتلهم بمشركي العرب المعاصرين للدعوة، وخاصة ممن عاهدوا الرسول، دون غيرهم مع رأي الطبري كما يتفق مع النص القرآني فأمهلهم الله أربعة أشهر فلم يعاهد رسول الله مشركا من غير العرب.

(بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ)

لئن جحد ابن أباه، وادعى بنوته لرجل آخر فقد لوث شرف أبيه وعفة أمه، فإن كان الجاحد يجهل بنوته لأبيه فعلى الأب أن يثبت له أبوته بالأسانيد العاطفية والإثباتات التاريخية والوثائقية والعلمية بالتحاليل وفصيلة الدم وال DNA وغيرها، ولئن فعل الأب وظل الابن على غيه عنادا واستهتارا، فكيف للأب الرحيم باستهتار ابنه الصبر عليه بالنفقة وكيف للابن أن يأتي بيت الأب تحديا يمرح فيه عريانا ويرثه أيضا؟ ولئن منعه الأب من نعمة النفقة عليه وحرمه من التواجد في بيته ومن الميراث فلا تثريب عليه، وإن كان هذا التصرف والمنطق الإنساني السليم يقبل هذا الحرمان من النفقة والتواجد في البيت والميراث، فكيف لا يكون ذلك هو حق البارئ في حرمان المشرك - الذي ينكر الله ربا وخالقا - من نعم ممنوحة من الخالق وهي الحياة الممنوحة من الله، وكذلك نعيم وأمان بيت الله (الكعبة) التي

1) [١١٥]) بإضافة وبتصرف من تفاسير القرطبي وابن كثير والطبري (٢) كل من عاهده المسلمون داخل فيه من مشركي مكة وغيرهم. وروي أنهم نكثوا إلا بني ضمرة وكنانة فنبذ العهد إلى الناكثين. وقال مقاتل: المراد بالمشركين هنا ثلاث قبائل من العرب: خزاعة، ومدلج، وخزيمة وقيل: نزلت هذه الآية في أهل مكة، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم عاهد قريشا عام الحديبية على أن يضعوا الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس (الطبري)

يطوفون بها عرايا يشهدون على أنفسهم بالكفر، وميراث الجنة التي يورثها الله لعباده الصالحين، والرب الصبور الرحيم قد أرسل رسله بدين الحق على مدى عشرات القرون يثبت للعباد ربوبيته في صبر إلهي برسول بعد رسول رحمة منه سبحانه وتعالى، ثم أرسل رسوله محمد بدين الحق يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ويظل العبد على نجاسته وغيه عنادا واستهتارا.

والحرمان من التواجد والطواف بالبيت عرايا (إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا) ما هي إلا إنذارات

ثم يعطى الجاحد المشرك أربعة أشهر يسيح في الأرض (فسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ) ما هي إلا سماحة إلهية.

وآخر المطاف من الإنذار يحرم من ميراث الجنة

(شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ)

فالقتل إذا ليس عقابا بقدر ما هو إلا استرداد لنعمة الحياة المسداه لهم، بعدما جحدوا الدعوة التي ظل رسول الله يدعوهم بها ٢٣ عاما.

في حال أن استجار المشرك بمسلم ـ ممن لم يسمع كلام الله من قبل ولا يعلمه ـ فعلى المسلم أن يحميه ويسمعه كلام الله، ثم يبلغه مأمنه، وبعدها ينطبق عليه ما ينطبق على غيره

(وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ)

مساواة المشرك ومن لم تصلهم الدعوة بأهل الكتاب ممن يكفرون بها في قتالهم وليس قتلهم

وقد ساوت الآيات الكريمة ـ بعد عام واحد من غزوة تبوك ـ بين ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ بأهل الكتاب ممن لا يدين بدين الحق

فأهل الكتاب كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ وَكَانُواْ يَعْتَدُونَ على الدين الحق

وأهل الكتاب يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ ويمنعون الناس من معرفة هذا الدين الحق

وأهل الكتاب قد ضلوا وأضلوا بأن ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ

وأهل الكتاب قد ضلوا وأضلوا بأن عبدوا ٱلْمَسِيحَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا، لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ، سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ

وأهل الكتاب جعلوا لله ولدا فقالت اليهود عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ، قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ، والقائمين على أهل الكتاب من الأحبار والرهبان يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

وأهل الكتاب يخفون الحق عن الناس وهم يعلمون، ويمنعون أن تصل رسالة الله، فأنزل الله تلك الآيات من سورة التوبة يلزم بها المسلمين بالتبليغ للذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يدينون بدين الحق من أهل الكتاب لأنهم لا يعلمون ولم تصلهم دعوة تصحيح التوحيد بعدما حرفت كتبهم، فهم لا يستحقون القتل وإنما لهم الحق في أن تصلهم الدعوة، ولايجوز منع وصول الدعوة فإن واجه المسلمون من أئمة الكفر مانعا بالقوة، فالقتال (وليس القتل) حتى يجبر المانعون من أئمة الكفر على السماح في أن تصل الدعوة للمُضَلَّلين، فلئن آمنوا يكن خيرا لهم وإن بقوا على ما هم عليه فيعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فدين الحق الذي جاء به إبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام يحرم عليهم ما تم ذكره من الضلال

(قَاتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلۡاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ*وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ، قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ، أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ*ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا، لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ، سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

أمر (اقتلوهم) يختلف عن أمر (قاتلوهم) فالأمر بالقتال - وليس القتل - هو أمر قد اتبعه أتباع الأديان السماوية كلها واتبعه الأنبياء المرسلين والأنبياء الغير مرسلين لتبليغ الدعوة كفرض رباني لإعلام الناس فللباطل جنوده، وللحق دعاته، فجنود الباطل، قساة غلاظ القلوب، فجرة لا يرعون حرمة، ولا يقفون في عداوتهم عند حد، وإن لم يحشد الحق قواه للمواجهة فسيزهق دون أن يترك أثرا في قلوب المتشوقين له، وإن كان الله هو رب الحب والرحمة، فهو رب القوة أيضا، لما قام عيسى وحوله حواريوه وتجمعت الجموع حوله وجاء جواسيس أورشليم مثقلين بالرياء والدهاء، وقام رسول الله عيسى يعلن على الملأ حقيقة جديدة: (من ليس معي فهو على) .

- فعيسى عليه السلام القائل من ضمن ما قال (لا تظنوا أني جئت ألقي سلاما على الأرض بل سيفا، لأفرق ما بين المرء وأبيه والابنة وأمها والكنة وحماتها وأعداء الإنسان أهل بيته)
- لما أوجب الله على اليهود التوجه لأرض الميعاد وتولى يوشع بن نون، عبر بهم نهر الأردن إلى أريحا وقاموا بإبادة كل السكان والحيوانات وادعى يوشع بأن القتل (هو فريضة الشريعة التى أمر الله بها موسى وزكاة للرب) واستولوا على أحد المدن وقتلوا اثنى عشر ألفا من سكانها وأحرقوها وصلبوا حاكمها، مما جعلهم يدعون: (حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها للصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة غنيمة تغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك)
- وعلى يد الأباطرة المسيحيين بالقسطنطينية في عصر الدولة الرومانية الشرقية بالقسطنطينية (بيزنطة) كان الاضطهاد أشد عنفا وقتلا من عنف الوثنيين
- استمرت الإمبراطوريتان الشرقية والغربية في فرض الديانة المسيحية والمذهب الذي يرونه بقوة السلاح دون هوادة بالتفسيرات والاتجاهات التي يراها الأباطرة حتى القرن التاسع عشر الميلادي
- انتشرت المسيحية بالقوة والسلاح في أوروبا الوثنية من القرن الرابع للخامس عشر، أما في إفريقيا وأمريكا الجنوبية والشمالية فإما التنصير وإما القتل منذ القرن الخامس عشر للآن
- وفي الأندلس في زمن محاكم التفتيش فإما التنصير وإما القتل أو الطرد

- المسيحية التي دعت إلى السلام الذي بشر به المسيح وبدأت حروبها الصليبية لإرغام العالم على مسيحية بولس الوثنية منذ عهد قسطنطين حتى عصرنا الحالي
- لما غادر أبرهة الحبشي اليمن إلى مكة لهدم الكعبة قتل كل من عارضه في الطريق دفاعا عن المسيحية ضد مشركين غيورين على وثنيتهم لم يحاربوه، وكان على رأسهم ذونفر وخثعم، وقلنا فيه أن أبرهة قد يكون مسيحيا مخلصاً لله ولمسيحيته (المسيحية هي دين الله وكانت الدين الحق وآخر رسالة أنزلها الله حتى ذلك الزمن) ومن واجبه نشر دين الله خاصة عند أولئك المشركين من عابدي الأوثان ولو بالقوة

كان كل ما سبق نبذه ضئيلة عن مسيرة البشرية في نشر الدين في العصور الأولى أما في العصر الحديث فتقوم الإمبراطوريات بنشر مبادئها بالقتال بسلطة المسوغ الأخلاقي

- فبعض الدول تجد مسوغا أخلاقيا لقيام الحروب على مكافحة الرق كما فعلت الولايات المتحدة الأمريكية منذ قرنين من الزمان، ومن قبلها شنت بريطانيا الحروب على الرق وهو إن كان أمرا محمودا في التاريخ يحسب لتلك الإمبراطوريتان، فقد كان الثمن الإنساني باهظا، وقد كافح الإسلام الرق دون قتال
- بعض الدول تجد مسوغا أخلاقيا لقيام الحروب على مكافحة الإدمان والإتجار في المخدرات كما فعلت الولايات المتحدة الأمريكية منذ عقود وحتى الآن، وهو أمر محمود أيضا، وقد كافح الإسلام الإدمان بالحكمة والموعظة دون قتال
- كل العالم شن حروبا عالمية بحجة مكافحة البلشفية وظلم الشعوب في حربين عالميتين راح ضحيتها ما يربوا على ٨٠ مليون من البشر، ولا يزال العالم وتلك الدول التي شاركت في تلك الحروب الطاحنة تفخر وتتفاخر بها رغم أن الدمار الذي حدث كان صراعا على مستعمرات في إفريقيا وآسيا بن دول المحور ودول الحلفاء وهو أمر يندي له جبين العالم، وقد كافح الإسلام الظلم بالدعوة لدين الله
- أوروبا الغربية والولايات المتحدة خاضت ولا تزال تخوض حروبا من أجل الشورى في الحكم بنشر ديمقراطية قد صاغتها حسب رؤيتها لفرضها دونما اعتبار لطبائع الشعوب في صياغة هذا المبدأ حسب مقتضيات بيئاتها، وقد دعا الإسلام للشورى
- أوروبا الغربية والولايات المتحدة خاضت ولا تزال تخوض حروبا من أجل حقوق الإنسان، وهو ما دعا إليه الإسلام
- أوروبا الغربية والولايات المتحدة خاضت ولا تزال تخوض حروبا من أجل محاربة الشيوعية والإلحاد، وقد نزلت سورة التوبة تعلن الحرب على الشرك والكفر
- أوروبا الغربية والولايات المتحدة خاضت ولا تزال تخوض حروبا ديبلوماسية من أجل حقوق الطفل حقوق امرأة وهي دعوة الإسلام
- شعوب العالم تحارب حروبا من أجل العدالة الاجتماعية وهي من موجبات الإيمان

*هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ *

أُلقي الله على عاتق المسلمين تبعات نشر الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة لمن يصلون إليهم عن طريق التجارة وغيرها من أنشطة الحياة ولقد نجح الإسلام في أواسط وشرق وغرب إفريقيا وشرق آسيا وأواسطها وجنوب شرقها في هذا الأمر، وأقبل الوثنيون على دين الله دون إكراه لأنه حارب الرق، وكافح الإدمان على الخمر ونشر العدل بين شعوب تلك الأصقاع ونعم الناس بالعدالة الاجتماعية بعيدا عن الإلحاد والكفر وشاركوا في حكم بلادهم بالشورى محافظا على حقوق الإنسان

رجالا ونساء وأطفالا، فكان للإسلام السبق، وهذه الحروب أولى من محاربة النظم البلشفية، فمحاربة الشرك هي محاربة وأد البنات وظلم المرأة والعبودية وتعدد الزوجات بغير حد ونهب أموال العباد باسم الدين والربا وهي أيضا محاربة الفسق والفجور والإدمان والإباحية الخلقية

كان هذا بالنسبة للوثنيين أما أهل الكتاب فقد ألقي على عاتق المسلمين الدفاع العقيدة وعن أنفسهم من خيانة يهود الجزيرة العربية الذين كانوا يكفرون بآيات الله فباءوا بغضب من الله وضربت عليهم الذلة والمسكنة في وجود رسول الله بين ظهرانيهم،

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿البقرة ٦١﴾

وفي آخر عهد رسول الله حاولت الدولة الرومانية المسيحية غزو المدينة المنورة لإطفاء نور الله، وقد حمل المسلمون تلك المسؤولية وكانت مؤتة وتبوك البداية، وكان لزاما على المسلمين التبشير بدين الحق كمسوغ أخلاقي وأمر إلهي

* يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ*

بداية علامات الردة

استمرت الوفود تترى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من السنة التاسعة للهجرة حتى منتصف المحرم من سنة ١١ للهجرة وتتابع هذه الوفود إنما يدل في أول التتابع على اقتناع من كانوا في السبق أما من تأخروا في البيعة فإنما يدل على عدم تمكن الإيمان من قلوبهم وخاصة الأعراب منهم، وتدل الآيات التالية على ما ذهبنا إليه

ففي سورة التوبة (براءة) بالآيات من ٩٧- ٩٨ تنبئ رسول الله والمسلمين، فانعدام علمهم راجع إلى عدم رضاهم عما ينفقون من زكاة، فحذر الله المؤمنين من أنهم يتربصون بدعوة الإسلام الدوائر، ثم يطمئن المولى المسلمين بأن الأعراب ستكون عليهم دائرة السوء

(ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ، وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ، عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ، وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

وفي الآية التالية ٩٩ يستثني المولى عز وجل بعض منهم الذين يتخذون ما ينفق قربات عند الله تقربا لصلوات الرسول وهي قربة لهم وسيدخلهم الله في رحمته

(وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَـٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ، سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ، إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وقد حذر المولى من إيمانهم الشكلي من قبل في الآية ١٤ من سورة الحجرات

(قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا، قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَـٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ، وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا، إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

أعطى الله الذين آمنوا وعدا باستخلافهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم فيمكن لهم دينهم الذي ارتضى الله منذ نزول سورة النور

(وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ)

كان عام الوفود هو التتويج العملي لكفاح رسول الله والذين معه، فعلاوة على من بايع رسول الله بعد المعارك من المناوئين، فقد بايعت بعض القبائل بالاختيار الحر، أو بعد دعوتهم وجاءت

الوفود، وكان منطق الأعراب: إن ظهرعلينا فهو نبي صادق وإن ظهرنا عليه فقد كفينا شره، فتأكدوا بعد تبوك أنه النبي فتوافدوا بين العام التاسع والعاشر الهجري ما يزيد على سبعين وفدا، ولم تكن تعاليم الإسلام قد هذبت بعد نفوسهم تمام التهذيب مع عدم رضاهم عن قيود فرضت عليهم بسبب إيمانهم بهذا الدين الجديد فينفقون من أموالهم زكاة، ويمتنعون عن الخمر ووأد البنات، ويعتقون الرقاب، وتحريم الزنا عليهم، وفرض حقوق للمرأة والطفل، وقصاص في القتل بالأضافة إلى السلطة الروحية التي لرسول الله عليهم

أما الذين بايعوا بعد نزول سورة التوبة، فقد بايعوا بعدما أنزل الله

(فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ *)

وقد انسلخت الأشهر الحرم! فوجد أغلبهم أن يبايعوا ويسلموا دون إيمان في قلوبهم.

على الرغم من أن دين الله هو دين الفطرة إلا إن الإيمان في أغلب قلوب البشر هو عبئ على الضمير، فيظل المؤمن في صراع فكري في حيرة من أمر الرضوخ للحق بما فيه من إيثار وبين جاهلية قد اعتاد عليها بما فيها من إثرة، خاصة إن كان غارقا في أوهام وتصورات الأرض وجواذبها، والمكبل بالشهوات وأغلال الحياة الأرضية المادية، فهي معركة ضمير في الأساس، وصراع الإنسان مع الضمير هو صراع بين المكنون الحيواني المعني بالشهوات، والمكنون الملائكي غير المحسوس والدين يصعب على البشر استيعابه وفهمه إلا بمرور العمر، فالعمر كفيل بتجاربه الدنيوية أن يقنع بعد التجربة وإثبات حقائق الحياة أنها الأبقى ولئن كانت قد ذكرت في كتاب الله رمزا أو صراحة، فالعقل الإنساني في حاجة إلى سبر أغوار النفس طويلا قبل التسليم لها.

إن كان الإيمان بوحدانية الله منطقيا ومقبولا بإعمال العقل والضمير، فإن التكليفات المترتبة على هذا الإيمان مكبل ومكلف في ميزان الطبيعة البشرية، وحينما آمن الرعيل الأول من صحابة الرسول في مكة، كانت التكليفات وقيود الإيمان وقتها أقل ما يمكن فلم يزد عن صلاة وصدقة وطهارة نفس وعمل بالمعروف، إلا أن قبول أو مقاومة الاضطهاد بمكة (وهي تضحيات باهظة الثمن من أجل الدين) قد استتبعته تضحيات أخرى بترك مكة والهجرة منها للمدينة وهجر الأهل والعشيرة في الوطن، ثم كانت التكليفات الأخرى بالجهاد والدفاع عن النفس وكلها تكليفات تزداد مشقتها مع اكتمالها، ثم أن هذا الخضم من التكليفات وسلطان لرسول الله من أجل إيمان قد أختاره الرعيل الأول جاءت كالسيل كاملا أمام المشركين من الأعراب الذين ووجهوا به دون مقدمات إيمانية فأصبحوا بين عشية وضحاها مجبرين عليها وإلا فهو القتل!

لما جاء هؤلاء إلى رسول الله قبل وأثناء وبعد عام الوفود، كان كل رأس في قبيلة ينظر إلى ما قد يجنيه ماديا أو معنويا بعد تلك التكليفات، ولم ينظروا إلى ما يمكن أن تأت به هذه الدعوة التي " خلصت روح البشر من الوهم والخرافة، ومن العبودية والرق، ومن الفساد والتعفن، ومن القذارة والانحلال، وخلصت المجتمع الإنساني من الظلم والطغيان والتفكك والانهيار ومن فارق الطبقات واستبداد الحكام واستذلال الكهان " (١) [١١٦]

جاء من ضمن ما جاء وفد بني حنيفة سنة ٩ للهجرة وكانوا سبعة عشر رجلا فيهم مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب بن الحارث (مسيلمة الكذاب) الذي ظهر منه الاستنكاف في الطريق والاستكبار إذ قال لقومه إن جعل لي محمد الأمر لي من بعده اتبعته، وبعدما علم أن لن يكون له من الأمر شيئ، فآثر أن يتخلف على رحال القوم، وذهبوا إلى رسول الله فأسلموا، فأعطاهم النبي، فذكروا له أمر مسيلمة، فأراد رسول الله أن استئلاف قلبه بالإحسان بالقول والفعل، فأمر له بمثل ما أمر للقوم من عطايا، وقال:

أما إنه ليس بشركم مكانا ؛ وذلك لحفظ رحال أصحابه

لما عادوا إليه وسمع ما قاله رسول الله وعاد لليمامة بقي يفكر في أمره، فادعى أن الله أشركه في الأمر مع النبي صلى الله عليه وسلم، فادعى النبوة، فجعل يسجع السجعات فأسجع

(لقد أنعم الله على الحبلى. أخرج منها نسمة تسعى. من بين صفاق وحشا) **!**

وأحل الزنا وأباح الخمر ووضع عن قومه الصلاة**!** وانطلق يدعو الناس، وافتتن قومه بعد إسلامهم، فارتدوا وتبعوه في هذا الهراء الذي لا تكليف فيه، فتفاقم أمره وكتب إلى رسول الله رسالة يقول فيها:

(من مسيلمة نبي الله إلى محمد نبي الله، أما بعد إن الله أشركني في الأمر معك وإن لنا نصف الأرض ولقريش النصف ولكن قريشا قوم لا يعدلون**!)**

فرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول

بسم الله الرحمن الرحيم

(من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإن الأرض له يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) (٢)[١١٧]

فقتل في حرب اليمامة بقيادة خالد بن الوليد في عهد أبي بكر الصديق سنة ١٢ هـ إذ قتله وحشي بنفس الحربة التي قتل بها حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحد.

لم يكن مسيلمة هو الوحيد الذي رأى في ادعاء النبوة مأربا فكان عامر بن الطفيل الذي دعا رسول الله عليه فمات وهو في بيت امرأة سلوليه من مرض الطاعون، أيضا كان إربد بن قيس الذي دعا رسول الله عليه فمات إذ أحرقته صاعقة

---

[١١٦] (١) من مقدمة سيد قطب لكتاب (ماذا خسر العالم من انحطاط المسلمين) ص ١٤

[١١٧] (١) صحيح البخاري باب وفد بني حنيفة والأسود العنسي ١٢ ٦٢٧-٦٢٨وفتح الباري١٨ ٨٧ إلى ٩٣ زاد المعاد ١٣ ٣١-٣٢

والأسود العنسي الذي كان باليمن اتي كان بها جماعة يعز عليهم الخضوع للحجاز، فبعد موت بدهان جعل يدعي النبوة ويمارس السحر واستفحل أمره فطرد عمال رسول الله على اليمن ثم توجه إلى نجران وقتل بن نبهان وبنى بزوجته ونشر سلطانه فقتلته أرملة بن بدهان انتقاما لزوجها أو قتله فيروز واحتز رأسه قبل وفاة رسول الله بيوم وليلة

كان أيضا طليحة زعيم بني أسد وهو أحد أشاوس العرب في القتال ومن ذوي السلطان بنجد، فزعم أنه رسول وهزمة خالد بن الوليد وأسره، فعاد وانضم للإسلام تائبا وحسن إسلامه..

خلاصة القول أن الإسلام لم يكن حتى بعد وفاة رسول الله قد تمكن من قلوب العرب تمكنا كاملا يجعل العزوف عنه مستحيلا،

تم كل ذلك وأكثر من الأعراب ومن غيرهم

١- حياة رسول الله في المدينة بعد فتح مكة
هاجر من مكة بعد فتحها العديد من النخبة الأرستقراطية ممن كانوا بها من أكابر قريش للعيش بالمدينة المنورة، وكان حال من آمنوا بمكة بعد فتحها، ولم ينهلوا بعد من التربية الأخلاقية التي نعم بها المهاجرون والأنصار يمثل ضررا بالغا، فالأرستقراطية العربية التي كانت بمكة قد انتقلت للمدينة المنورة وعزفوا عن التغيير، وكان أناسا بعينهم يصعب عليهم هذا التغيير خاصة الأمويون منهم إذ وجدوا للموالي حضورا نافذا في اتخاذ القرار بالشورى فكان بلال بن رباح، كما كان سالم مولى أبي حذيفة وغيرهم، بعد الإسلام صاروا عتقاء ولم يكن هذا مريحا لهم، كان بن أم مكتوم يتولى المدينة أحيانا في غياب الرسول!

النخبة الأرستقراطية القرشية أضافت للأعراب ذلك اللون القاتم على المدينة، ولم يتبق لرسول الله الكثير من العمر حتى ينهلوا منه..

لم يستطع أحد منهم تحدي الأمر الواقع، كان منهم من حسن إيمانه، وأيضا كان منهم من أسلم ولم يؤمن، أما عن تسيير أمور المجتمع المثالي بالمدينة الفاضلة، فالنظام كان له عنصران مميزان، فالعنصر الأول كان الأمر فيه موكولا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وما يأتيه من السماء وطريقته في تناول الأمور قولا وفعلا، يأمر بالعدل والإحسان بسلطة معنوية نافذة بالقلوب والثاني أن كان أمر الناس شورى مع نخبة أبعد ما تكون عن الأرستقراطية المادية بل شارك فيها من كانوا في الجاهلية من الموالي، التي قام أمرها على الكفاية والتقوى وحسن البلاء والقرب من رسول الله والتقرب إلى المولى، لم يكن كل من بالمدينة أصحاب رسول الله وكان منهم من يأبى الانضواء.

كان الخمر واحدا من الآفات التي تعذر عليهم الشفاء منها على سبيل المثال لا الحصر، كان النفاق، والغش والزنا، وكذلك كانت العصبية والعنصرية.

التقى العرب بالإسلام لقاء الموعد، إذ كانت كل الدلائل حتى قبل مولد الرسول تشير إلى وجوبية اللقاء، ولم يكن اللقاء لقاءا عابرا، إذ قد ألح القرآن وألح النبي على مدى أكثر من عقدين من الزمان في تحذير الناس من الدنيا وغرورها، وبما تمدهم من أسباب الفتن، وأحسب أن جاهد البعض ممن أسلموا ولم يؤمنوا في إخلاص القلب والضمير للحق، والعدل والإحسان وكان البعض يحاط بالفتن حتى يقع في التناقض ما بين نوازعه، وما بين ما هو حق وعدل إلهي، وبعد عقود تمكن ضعاف الإيمان من صنع القرار وتشجيع الخروج شيئا فشيئا من حظيرة الإيمان الحق بعد وفاة رسول الله..

كان من ضمن من عاشوا بالمدينة بعد انتشار الإسلام في اليمن عبد الله بن سبأ! وهو المحرض على الفتنة الكبرى زمن عثمان بن عفان وصاحب التأويلات المخربة بعد وفاة الرسول على القرآن..

كان من ضمن من عاشوا بالمدينة الحكم بن العاص وأهله، وهوالذي كان يؤذي رسول الله وهو يسكن بجواره بمكة، وحينما سكن المدينة سكن بجوار الرسول، وكان يؤذي رسول الله فيسعى وراءه ويغمزه ويقلد حركاته ساخرا منه في مشيته صلى الله عليه وسلم وطريقة كلامه محاولا أن يثير الضحك، وكان يتلصص على بيت رسول الله فيطلع على النبي في بيته فخرج النبي مغضبا، فلما عرفه قال: من عذيري من هذا الوزغ (١)[١١٨]

ثم أخرجه صلى الله عليه وسلم من المدينة وقال: لا يساكنني فيها أبدا.

وكان ممن دفعوا هو وأبنائه للفتنة الكبرى بعد عقود في زمن ولاية عثمان بن عفان

كان من ضمن من عاشوا بالمدينة عبد الله بن سعد بن أبي السرح، والذي كان كاتبا للوحي لرسول الله، والذي ادعى أن ما يجيئ به محمد ليس وحيا، وكان ممن أهدر رسول الله دمهم بعد فتح مكة..

كان من ضمن من عاشوا بالمدينة الوليد بن عقبة بن أبي معيط الذي كذب على رسول الله بشأن زكاة مال بني المصطلق، وكفر بعدما كشف الله أمره، وكان أمر رسول الله بقطع رأسه بعد أسره عقب معركة بدر ماثلا أمامه طيلة حياته وهو متسبب فيما بعد في الثورة على عثمان بن عفان في مصر بعد توليه إمارتها، وكان ممن سبق ذكرهم وغيرهم كثيرون ممن يضمرن الكره للإسلام وللرسول!

وكانت الطبقية

وكانت النعرة العصبية

وكانت العنصرية الدفينة في القلوب

ولكن كان إيمان أفاضل الصحابة والتابعين وتابعي التابعين يقاوم وينتصر كثيرا، وإن لم يكن ينتصر دائما

٤ ـ وفاة إبراهيم بن محمد

حتى آخر عمره صلى الله عيه وسلم وهو موعود بألا تصفو حياته الشخصية أبدا، أو يسعد كما يسعد أي أب، فبعد أن رزقه الله بالبنين قبل الرسالة ماتوا جميعا الواحد تلو الآخر، وبعد أن نصره الله ببدر ماتت رقية رضي الله عنها، ثم ماتت ابنته الكبرى زينب رضي الله عنها بعد عمرة القضاء وعهد الحديبية سنة ثمان من الهجرة، ثم ماتت أم كلثوم، في شعبان من عام الوفود سنة تسع للهجرة بعد فتح مكة ونصر حنين وعودته من تبوك، ولم يبق من نسله إلا فاطمة وإبراهيم إذ بعد أشهر من وفاة أم كلثون، رزقه الله بإبراهيم الذي لم يُمهل خمسة عشر شهرا، فقد رزقه سبحانه وتعالى به في غرة ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة - إبريل سنة ٦٣٠ ميلادية ومات في الثامن عشر من ربيع الأول سنة عشر من الهجرة (يونية سنة ٦٣١ ميلادية)

[١١٨] (١) من يخلصني من هذا الكريه (وهي نفس الأمنية اتي تمناها رسول الله على كعب بن الأشرف فأخطأ المتحمسون فاغتيل ولكن الرسول نفاه)

كان إبراهيم قرة عينه صلى الله عليه وسلم، فكان إذا فرغ من استقبال الوفود والقيام بواجبات النبوة فيما يتعلق بأمر المسلمين، اطمأنت نفسه برؤية ما تبق له من فلذة كبده فيتهلل لفاطمة وويبش للطفل إبراهيم يلمح الشبه بين الطفل وبينه الذي يكتسبه الطفل بمرور الأيام والأشهر، فيزيد أباه تعلقا به وشغفا، وكأي أب تتمالكه العواطف الإنسانية في أسمى معانيها فيخلع على إبراهيم كل هذا الحب فيغمره بالقبلات ويرمقه من العطف بما لا عطف بعده، خاصة وقد تساقط الأبناء من حوله فدفنهم بيده واحدا وواحدة تحت الثرى، وها هو إبراهيم يجعل الجراح تندمل بمولده، فأثمر ذلك الرجاء والأمل.

لكن هذا الأمل لم يكن ليطول، فقد مرض إبراهيم بعدها مرضا خيف منه على حياته، فنقل إلى نخل بجوار مشربة أم إبراهيم، وقامت مارية وأختها سيرين تمرضانه، لما بلغ النبي نبأ صراع الطفل الرضيع مع الموت وقرب احتضاره - وكان رسول الله في الثانية والستين من العمر - دخل بيت مارية وهو معتمد على عبد الرحمن بن عوف، وهذا الرجاء لم يكن ليطول إلا لتلك الأشهر، إذ وجد الأب المكلوم ابنه ما يزال يجود بنفسه، فأخذه ووضعه بيده المضطربة وقد ملك الحزن عليه فؤاده، وبدت قسمات الألم على وجه رسول الله وقال يحدث ابنه الذي لا يسمعه: إنا يا إبراهيم لا نغني عنك شيئا من الله

ثم وجم رسول الله صلى الله عليه وسلم وذرفت عيناه، والغلام الرضيع يجود بنفسه، وأمه وخالته تصيحان، ويصمت رسول الله فلا ينهاهما! فلما استوى إبراهيم جثمانا لا حراك منه ولا حياه فيه، وانطفأ الأمل، زادت دموع النبي وهو يقول بين أناته: يا إبراهيم، لولا أنه أمر حق، ووعد صدق، وأن آخرنا سيلحق بأولنا، لحزنا عليك أشد من هذا

ثم وجم رسول الله هنيهة وقال: تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا يا إبراهيم عليك لمحزونون

ثم أجهش بالبكاء في هنات أليمة

لما رأى المسلمون ما برسول الله من لوعة، واسوه، وذكروه بما نهى عنه في أمر البكاء على الميت، وقد كان رسول الله يحاول جاهدا أن يكظم حزنه، فعجز وقال: ما عن الحزن نهيت وإنما نهيت عن رفع الصوت بالبكاء، وإن ما ترون بي أثر ما في القلب من محبة ورحمة ولم يبد غيره عليه رحمة

نظر رسول الله إلى مريم وسيرين نظرة عطف وطلب منهما أن تهونا عليهما قائلا لهما: إن له لمرضعا في الجنة

غسله الفضل بن عباس وحمل على سرير صغير، وشيعه النبي وطائفة من المسلمين إلى البقيع حيث دفن بعد أن صلى عليه النبي، وأثناء الدفن كسفت الشمس، فرأى البعض في ذلك معجزة وقالوا إنها كسفت لموته،

كان من الممكن أن يتعزى رسول الله الصادق الأمين من فرط حبه لابنه بسماع تلك الكلمات أو يسكت عنها على الأقل، وكان من الممكن أن يعذر الناس المأخوذين بشدة لوعته صلى الله عليه وسلم فيحسبونها معجزة من معجزات النبي، وكان من الممكن كل ذلك وأكثر ولكنه الرسول، والصادق الأمين غضب حينما ادعوا أن ظاهرة كسوف الشمس - يوم وفاة ابنه (إبراهيم) - حدثت حزنا على إبراهيم، ولكن سارع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين آهات الأب المكلوم وبين مدامعه الرقراقة، فيفند الادعاء ويدحضه قبل أن يتحول الحدث العارض، إلى أسطورة وتأليها فقال:

(إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة)

وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم للمدينة يباشر مهام الدعوة!

من منّا يقدر أن يفهم ويعي؟ لقد كان رسول الله أمينا على إيمان الناس وعلى عقولهم وتفكيرهم، وهو نفس الموقف الذى وقفه رسول الله عيسى بن مريم عليه السلام حين أيقظ ميت في بايين فتسارع محبوه والمؤمنون به إلى إدعاء ألوهية عيسى عليه السلام، فيقف لهم محذرا من هذا القول، وعلى الرغم من وجود هذا الحدث بنصه في الأناجيل، ألهوه وحتى يومنا هذا، ويسأله عيسى الله فيقول سبحانك لو كنت قلته فقد علمته، فهي الأمانة وأخلاق الأنبياء إذا، فقد غلا النصارى واليهود في دينهم ويعاتبهم الله في القرآن الكريم بسورة المائدة آية (٧٧) قائلا "قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلّوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل "

ورسول الله محمد لن يسمح للغلاة وهو بين ظهرانيهم.

والحقيقة أن الله لم يبق لمحمد نسله من الذكور فيبلغوا مبلغ الرجال فالفتنة بهم هي الخطر الأعظم على الرسالة فيدعي أحد الأبناء النبوة، وكان صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء والرسل، فلا وراثة للدعوة، ولعل الله جلت حكمته قد أبلغه وأبلغ الجميع - ولم يلحظوا -باستحالة أن يكون رسول الله أبا لرجل فالآية الكريمة من سورة الأحزاب رقم ٤٠ تحسم هذا الأمر

(مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّينَ، وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾

وصحيح أن أسباب النزول كانت على زيد بن الحارثة إلا أن الآية حاسمة.

الفصل الثامن

حجه الوداع

حجه الوداع

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشعر بدنو أجله، وكأن هاتفا خفيا قد انبعث في قلبه الشريف يشعره بأن مقامه في الدنيا قد أوشك على النهاية،

بعدما أكمل أبو بكر مناسك الحج في العام التاسع لهجرة، وبعد يوم النحر بعرفة وقيام على بن أبي طالب عند الجمرة، يؤذن في الناس وإلى جانبه أبو هريرة بالذي أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادى في الناس ويتلو قوله تعالى من سورة براءة ووقوفه رضي الله عنه يصيح بالناس (يا أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته) فكان أن تهيأ الأمر لرسول الله ينتظر بأن يأمره الله بالحج، وانتظر صلى الله عيه وسلم إلى أن أمره الله وأذن له بالحج، بعد تبرئة الله والرسول من تلك العهود التي كانت بين المشركين والمسلمين وكانت أعمال الدعوة قد تمت، وإبلاغ الناس بالرسالة، وبناء مجتمع جديد على أساس إثبات وحصر تلك الألوهية لله ونفيها عن غيره، فلم يتبق إلا القليل، فدخل المشركون في دين الله أفواجا كما رأينا

١ ـ بعثة أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن

لما انتشر الإسلام في ربوع اليمن، أوفد النبي صلى الله عليه وسلم في شهر صفر سنة عشر للهجرة (مايو سنة ٦٣١ م) أبو موسى الأشعري (عبد الله بن قيس) إلى زبيد وعدن ـ قبل وفاة إبنه إبراهيم ـ وهم أهل الأشعري بجنوب اليمن فكان عاملا عليها وكان عالما حاذقا

كما أوفد رسول الله معاذا إلى شمال اليمن يعلمهم ويفقههم وهو أنصاري خزرجي وأسلم ولم يبلغ ثماني عشرة سنة وكان ممن يفتون في عهد رسول الله (١)[١١٩] فهو أحد السبعين الذين شاهدوا العقبة من أنصار الخزرج وكان رسول الله يقول (خذوا أقران من أربعة: من ابن مسعود، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة) وكان أحسن الناس وجها وخلقا وأسمحهم كفا فكثرت ديونه من كثرة الصدقات فأوصاه قائلا: لعل الله يجبرك ويؤدي عنك دينك

وقال له : يسر ولا تعسر، وبشر ولا تنفر، وإنك ستقوم على قوم من أهل الكتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد إلى فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب، ويسألونك: ما مفتاح الجنة؟ فقل شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له

ثم أدرف رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا: يا معاذ، إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك تمر بمسجدي هذا وقبري.

فبكى معاذ خشعا لفراق الرسول صلى الله عليه وسلم.

وذهب معاذ بن جبل ومعه طائفة من المسلمين الأولين يعلمون الناس ويقضون بينهم بقضاء الله جلت حكمته.

[١١٩] (١) أنس بن مالك

٢ـ بعثة خالد إلى بني الحارث بنجران (التطبيق العملي لسورة التوبة)

أظهر بعض نصارى نجران صدا عن سبيل الله، رافضين أن يتيحوا لمعاذ نشر الإسلام بين ربوع اليمن في شهر ربيع أول سنةعشر للهجرة (يونية سنة ٦٣١) فبعث رسول الله خالد بن الوليد على رأس سرية من أربعمائة إلى بني حاث بن كعب بنجران (شمال اليمن حاليا) وأمره عملا بالأخلاق النبوية، أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثا، فإن استجابوا له فيقبل عليهم ويقم فيهم فيعلمهم الكتاب وسنة الرسول ومعالم الإسلام، وإن لم يفعلوا فليقاتلهم حتى يتيح الفرصة للعامة من نصارى نجران من معرفة دين الله، وكان أهل نجران على شريعة عيسى عليه الصلاة والسلام، فخرج خالد حتى قدم عليهم فبعث الركبات يضربون في كل وجه ويدعون الناس إلى الإسلام، ويقولون يا أيها الناس أسلموا تسلموا (والمقصود تسلموا من الذين لا يدينون دين الحق ويأكل رهبانهم أموالهم بالباطل فلا يصدون عن سبيل الله ويكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في رعايتهم وممن يقولون أن ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ فهم بذلك يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ، وكذلك من ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَما أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا فهم إذا يتساوون مع الذي لايؤمنون، إن هم صدوا عن سبيل الله)

فدخل بعضهم في الإسلام فمكث خالد فيهم يعلمهم ويحاول مع البعض الرافض،

أما من بقوا على النصرانية، فكانوا من الوضوح بحيث توجهوا يستفسرون عما جاء بسورة التوبة، فقد كان موقف الإسلام قبلها – فيما يرون – مخالفا لما صار إليه بعد نزولها، فهل أمر محمد مؤخرا في شأن أهل لكتاب والنصارى بغير ما أمر به أثناء الدعوة، وهل تساوى أهل الكتاب والمشركين بعدما ظفر محمد بالانتصار على اليهود والآن جاء الدور على المشركين والمسيحيين؟ ألم يبشر بدين إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام والرسل الذين جاءوا من قبل؟ ألم يذكر أن ما أنزل عليه قد أشاد بحسن إيمان النصارى وجميل مودتهم؟ فأين ما جاء بسورة المائدة آية ٨٢

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ، ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

الحقيقة أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يأمر وإنما هو كرسول مأمور ويؤمر من الله، فلما ذهب وفد النصارى يستعلمون ومعهم ما يرونها حججا يحسبونها دامغة من القرآن، ألم يفرق القرآن بين الذين كفروا وبين الذين آمنوا في الآيات من ٥٦، ٥٧ من سورة آل عمران

(فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ، وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

كان نصارى نجران قد حاجوا رسول الله من قبل في طبيعة المسيح التي اختلفوا هم أنفسهم حولها وكان تساؤلهم لرسول الله وقتها، فمن هو أبوه إن لم يكن ابن الله؟وقد حسمها الله لهم في الآيات من ٥٩ـ ٦٣ من سورة آل عمران من قبل

(إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ، خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ *ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ *فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ *إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ، وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ، وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ *)

والحقيقة أن القرآن الكريم منذ نزوله على رسول الله لم يتغير في ذكر حقيقة كون المسيح كان نبيا عليه الصلاة والسلام أبدا فكل الآيات التي تناولت هذا الأمر تسير على نفس النسق، بل وهناك من الآيات التي تذكر وتؤكد على كفر من يقول بأن الله ثالث ثلاثة ففي سورة المائدة بالآية ٧٣

(لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ، وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ، وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

أو في سورة المائدة وفي الآية ١١٦(وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ، قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ، إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ، تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ، إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ)

وفي سورة المائدة ١٧(لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ، قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا، وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ، وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)

وفي سورة المائدة ٧٢(لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ، وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ، إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ، وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ)

ولقد تجنب نصارى نجران في هذا اللقاء الذي تم منذ ثمانية أعوام ما جاء بشأن الابتهال، وقد دعا الله جلت حكمته رسوله بأن يأتوا إلى كلمة سواء بين أهل الكتاب وبين دين الله الخاتم بألا يعبدوا إلا الله ولا يشركوا به شيئا ولا يتخذوا من دون الله أربابا من دون الله، ثم أمر الله المسلمين أنه إن تولى أهل الكتاب أن يأتوا إلى الكلمة السواء أن يشهدوهم بأنهم مسلمون، ففي الآية ٦٤ من نفس السورة هذا المعنى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ، فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

فلما جاء وفد نصارى نجران لقوا أشد حفاوة بهم، فلما علموا أن لا تناقض وإنما نصوص الآيات تدين الذين آمنوا من أهل الكتاب الذين لا يدينون دين الحق ويأكل كثيرا من الرهبان أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ويكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله وممن يقولون أن ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ فهم بذلك يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ، وكذلك من ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَما أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا فهم إذا يتساوون مع الذي لايؤمنون، إن هم صدوا عن سبيل الله، وليس عليهم إلا ثلاث:

فإما الدخول في دين الله أو الجزية والسماح بكلمة الحق لمن يتبعونهم وإلا فالقتال، أما إجبارهم على الإسلام فليس واردا، ولأن منهم قسيسين ورهبان ولأنهم لا يستكبرون، فقد بقوا على دينهم وأدوا الجزية عن يد وهم صاغرون، والجزية ما هي إلا جواز الدفاع عنهم، وحفظ أموالهم وبيوتهم وكنائسهم وحريتهم الدينية.

لم تكن هذه هي الحادثة الأولى في التصالح من أهل الكتاب واحترام تمسكهم بدينهم حتى قبل نزول سورة براءة، فقد دان يهود تيماء لسلطان المسلمين، وصالحوا رسول الله على البقاء على اليهودية وأداء الجزية دون قتال وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بألا يفتن اليهود عن يهوديتهم وصار لليهود ما للمسلمين وعليهم ما عليهم كأهل ذمة.

٣ ـ بعثة على إلى اليمن وآخر الوفود إلى المدينة

ثم ظهرت جماعة أخرى قد عز عليهم ترك الشرك فأرسل رسول الله عليا بن أبي طالب في ٣٠٠ فارسا يدعوهم إلى الإسلام في رمضان سنة عشر (ديسمبر سنة ٦٣١ م) وأبلغه أن يأمر خالدا بالعودة للمدينة، وقرأ على جماعة منهم كتاب رسول الله، فأبوا ورموا المسلمين بالنبل والحجارة، وخرج منهم رجل من مذحج يدعو إلى المبارزة فبرز إيه الأسود الخزاعي فقتله ثم دفع علي لواءه إلى مسعود بن سنان فقتل منهم نحو عشرين رجلا فانهزموا فكف علي كرم الله وجهه عنهم، ودعاهم مرة أخرى فأسلمت همدان كلها في يوم واحد، ولما علم رسول الله بذلك من علي قال النبي عليه الصلاة والسلام:

(السلام على همدان)

وآخرون استقبلوا أول الأمر دعوته بالاستكبار فحاربوه، ولكن عليا ألقى الرعب في صفوفهم ولم يكن معه إلا ثلثمائة فارس، فلم يجدوا مفرا من التسليم، فأسلموا وحسن إسلامهم، وأنصتوا إلى تعاليم معاذ بن جبل، فأكمل على ما بدأه خالد، وأرسلوا وفدهم للنبي وكان هذا الوفد آخر وفد التقى بالنبي قبل وفاته.

علم علي بنية رسول الله في الحج فشد الرحال إلى مكة.

تجهز النبي لحجة الوداع:

أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم بقصده لهذه الحجة المبرورة المشهودة، وبينما كان علي رضي الله عنه وأرضاه يتأهب للعودة إلى المدينة، وفي يوم السبت لأربع بقين من ذي القعدة سنة ١٠ هجريا (مارس سنة ٦٣٢ م) تهيأ رسول الله صلى الله عليه وسلم للرحيل (١)[١٢٠] ويأمر الناس بالتأهب للحج، فترجل وادهن ولبس إزاره ورداءه وقلد بدنه وانطلق بعد صلا الظهر.

لم يكن النبي قد حج أبدا الحج الأكبر فقد كان قبل الهجرة ليثرب يحج كل عام على دين إبراهيم وإن كان قد اعتمر مرتين بعد الهجرة، وللحج مناسك يجب أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة فيها للمسلمين، وما كاد المسلمون يعرفون ما صح عليه عزم النبي ودعوته إياهم للحج معه حتى انتشرت الدعوة في كل أرجاء الجزيرة العربية، فتوافد الآلاف من البشر يلتمسون إمامة رسول الله في الحج الصحيح (٢)[١٢١] فجاءوا من البوادي والمدائن ومن الجبال والصحارى المترامية الأطراف، وضربت الخيام حول المدينة المنورة لمائة ألف أو يزيدون وليس فيهم مشرك واحد، واستعمل رسول الله على المدينة أبو دجانة أو سبع بن عرفطة الغفاري، وأخذ رسول الله نساءه جميعا معه، كل في محفتها، وسار في المقدمة وتبعه هذا الجمع الزاخر يحدوهم الإيمان فلما بلغوا ذا الحليفة، نزل رسول الله فصلى العصر ونزلوا معه وصلوا، وأقاموا ليلهم بها وباتوا هناك حتى أصبحوا، فلما أصبح رسول الله قال لأصحابه أتاني الليلة آت من ربي فقال: صل في هذا الوادي المبارك وقل: عمرة وحجة (٣)[١٢٢] فأحرم رسول الله وأحرم المسلمون معه، ولبس كل منهم إزاره ورداءه وانتظموا جميعا في زي واحد تحقيقا للمساواة بين الناس جميعا في زي بسيط، وقرن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الحج والعمرة وانطلق رسول الله بالركب ونادى ربه مناديا:

---

[١٢٠] (١) الرحيق المختوم ص ٤٢٠ عن بن حجر – فتح الباري ١٠٤/٨

[١٢١] (٢) مسلم عن جابر، باب حجة النبي ٣٩٤/١

[١٢٢] (٣) رواه البخاري عن عمر بن الخطاب ٢٠٧/١

لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والشكر، لا شريك لك لبيك

وينزل رسول الله في كل مسجد يؤدي فرضه ومن ورائه حجاج بيت الله الحرام ولما بلغ سرف مساء الأحد في اليوم الثامن من الرحلة الثالث من ذي الحجة عام ١٠ هجريا، وهي محلة بين المدينة ومكة قال صلى لله عليه وسلم لأصحابه:

(من لم يكن معه هدي فأحب أن يجعلها عمرة فليفعل، ومن كان معه هدي فلا)

التحق بالركب كل من كان جنوب المدينة بعشرات الألوف، وكل في شوق لتأدية حجة الإسلام بإمامة رسول الله، أمر رسول الله من معه ولم يكن لديه هدي أن يجعلوا إحرامهم بعمرة، فيطوفوا بالبيت وبين الصفا والمروة، ثم يحلوا إحرامهم إحلالا تاما، فتردد الناس فقال:

(لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت، ولولا أن معي هديا لأحللت)

فاستجاب الناس وسمعوا وأطاعوا، ولما وصل رسول الله حتى قرب مكة، فبات بذي طوى، ثم دخل مكة بعد أن صلى الفجر واغتسل من صباح يوم الإثنين الموافق الرابع من ذي الحجة فاستلم الحجر الأسود فقبله والمسلمون من بعده وطاف بالبيت سبعا وصلى عند مقام إبراهيم ثم سعى بين الصفا والمروة ولم يحل إحرامه، فنزل بأعلى مكة عند الحجون، وأقام هناك، ولم يعد إلى الطواف غير طواف الحج.

في هذه الأثناء وصل علي بن أبو طالب رضي الله عنه من اليمن عائدا وقد أحرم بالحج لما علم أن رسول الله حج بالناس ولما دخل على فاطمة وجدها قد حلت إحرامها، فسألها فذهب إلى النبي فقص عليه أخبار سفرته لليمن فلما أتم حديثه قال له النبي: انطلق فطف بالبيت وحل كما حل أصحابك.

قال علي: يا رسول الله، إنني أهللت كما أهللت.

قال رسول الله: ارجع فاحلل كما حل أصحابك.

قال علي: يا رسول الله إني قلت حين أحرمت: اللهم إني أهل بما أهل به نبيك وعبدك ورسولك محمد

فسأله النبي: أمعك هدي؟

فلما نفى علي أشركه النبي في هديه، وأدى علي مناسك الحج الأكبر مع الحجيج.

وفي اليوم الثامن من ذي الحجة – وهو يوم التروية – توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ورائه الحجيج إلى منى، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء وفجر اليوم التاسع، ثم مكث صلى الله عليه وسلم حتى طلعت الشمس، فأجاز إلى عرفة، وكانت القبة قد ضربت له بنمرة، فنزل بها وقال: الحج عرفة

بقي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا زالت الشمس، أمر بالقصواء فرُحِلت له، فأتى ببطن الوادي، ونزلت سورة النصر:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾

سبح رسول الله بحمد ربه وقد اجتمعت له وحوله مائة وأربعة وأربعون ألفا من الحجاج (بعد ورود حجاج جنوب الجزيرة العربية وأهل مكة) فقام فيهم يخطب خطبة جامعة وربيعة بن أمية بن خلف يردد ما يقوله فقال صلى الله عليه وسلم:

(أيها الناس، اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الوقف أبدا، أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، فمن كان عنده أمانة فليؤدها لمن ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تَظلِمون ولا تُظلَمون، قضى الله أنه لا ربا، وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله، وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وأن أول دماءكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب.

أما بعد أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس من أن يُعبد بأرضكم هذه أبدا، ولكنه إن يُطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم، أيها الناس إن النسئ زيادة في الكفر يُضل به الذين كفروا يُحِلونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فَيُحِلوا ما حرم الله ويُحَرِموا ما أحل الله.

أما بعد أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا، لكم عليهن ألا يوطئن فُرُشكم أحدا تكرهونه، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قدأذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عَوَان لا يملكن لأنفسهن شيئا، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله. فاعقلوا أيها الناس قولي قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا أمرا: كتاب الله وسنة رسوله (١)[١٢٣]

أيها الناس إنه لا نبي بعدي، ولا أمة بعدكم، ألا فاعبدوا ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، طيبة بها نفوسكم، وتحجون بيت ربكم وأطيعوا أولات أمركم تدخلون جنة ربكم (٢)[١٢٤]

أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمون أن كل مسلم أخا للمسلم، وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس فلا تظلمن أنفسكم، إن الله قد أدى إلى كل ذي حق حقه وأنه لا تجوز وصية لوارث، والولد للفراش وللعاهر الحجر، ومن ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عني فماذا أنتم قائلون؟

أجاب الناس: نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت

قال: اللهم فاشهد) ورددها ثلاث مرات (٣)[١٢٥]

[١٢٣] (١) صحيح مسلم باب حجة النبي ٣٩٧/١

[١٢٤] (٢) معدن الأعمال رواه بن ماجة وابن عساكر رحمة العالمين ١/ ٢٦٣

[١٢٥] (٣) صحيح مسلم ٣٩٧/١

لما أتم رسول الله ما قال نزل عن ناقته القصواء، وأقام حتى صلى الظهر ثم العصر، ثم ركبها حتى الصخرات ؛ وهناك تلى رسول الله آخر آية نزلت للتو من سورة المائدة الآية ٣:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَـٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) لما سمعها عمر بكى قائلا: إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان.

ترك رسول الله من عرفات للمزدلفة وصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، فقال:

هذا الموقف وكل المزدلفة موقف.

واضطجع حتى طلع الفجر فصلى الفجر وبقي حتى تبين الصبح ثم ذهب بالقصواء حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة فدعاه وكبره وهلله ووحده، فدفع من المزدلفة إلى منى قبل أن تطلع الشمس؛ ثم أفاض من يومه وعاد إلى منى فبات فيها ثلاث ليال يرمي الجمرات الثلاث حتى أتى الجمرة الكبرى بعد زوال كل يوم؛ حتى إذا بلغ خيامه نحر ثلاثا وستين ناقة يوم النحر في العاشر من ذي الحجة، واحدة عن كل سنة من سني حياته، ونحر علي ما بقي من الهدي المائة التي ساق النبي منذ خروجه من المدينة وهي سبع وثلاثون بدنة، وقال: نحرت ها هنا ومنى كلها منحر

بعد النحر كانت الآية بإتمام الدين قد نزلت فخطب النبي خطبة أخرى في العاشر من ذي الحجة حين ارتفع الضحى وهو على بغلة شهباء، والناس بين قائم وقاعد (١)[١٢٦] فقال: إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق السماوات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية ورجب مفرد الذي بين جمادي وشعبان،

ثم قال: أي شهر هذا؟

قالوا: الله ورسوله أعلم

قال: اليس ذا الحجة؟

قالوا: بلى

قال: فأي يوم هذا

قالوا الله ورسوله أعلم

قال: أليس يوم النحر

قالوا: بلى

[١٢٦] (١) أبو داوود باب أي وقت يخطب يوم النحر ٢٧٠/١

قال: فأي بلد هذا

قالوا: الله ورسوله أعلم

قال: أليست البلدة؟

قالوا: بلى

قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا..

وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، أفلا ترجعوا بعدي ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض

ألا هل بلغت اللهم فاشهد، فيبلغ الشاهد الغائب مبلغ أوعى من سامع (١)[١٢٧]

وأقام أيام التشريق يؤدي مناسك الحج ويعلم الشرائع ثم أتم حجه، فنفر من منى، فأفاض إلى البيت يوم الثالث عشر من ذي الحجة فصلى بمكة الظهر والعصر والعشاء، ثم رقد رقدة، ثم ركب إلى البيت، فطاف طواف الوداع ثم حث الركاب إلى المدينة المنورة.

تسمى هذه الحجة بحج الوداع أو حجة التمام والكمال أو حجة الإسلام ففيها كمال شعائره، وقد أتم الله نعمته على المسلمين، وودع رسول الله مكة،

- كان مع رسول الله حينما خرج قبل أربعة أعوام في السنة السادسة من الهجرة في ذي القعدة (منتصف فبراير ٦٢٨ م) ١٦٠٠ معتمر ومنع صلى الله عليه وسلم من الدخول للمدينة عامها حسب بنود هدنة الحديبية
- كان معه صلى الله عليه وسلم في عمرة القضاء في ذي القعدة من العام السابع من الهجرة (أوائل فبراير ٦٢٨ م) ألفين من الرجال سوى النساء والصبيان (بزيادة ٢٥% بعد عام واحد)
- دخل رسول الله مكة في ١٠ رمضان سنة ٨ من الهجرة (يناير سنة ٦٣٠ م) بعدما نقضت قريش هدنة الحديبية ومعه ما يربو على عشرة آلاف من المسلمين (بزيادة ٥٠٠%) في العام الذي تلاه
- في حجة الوداع في ذي القعدة سنة ١٠ هجريا (مارس سنة ٦٣٢ م) حج رسول الله وحوله مائة وأربعة وأربعون ألفا (تسعون ضعفا في أربعة أعوام)

فأي كفاح كان هذا

[١٢٧](١) صحيح البخاري باب الخطبة أيم منى ٢٣٤/١

الفصل التاسع

قدوة العالمين في رحاب الله

قدوة العالمين في رحاب الله

١ ـ عودة رسول الله إلى المدينة المنورة:

عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد رحلته الشاقة إلى المدينة المنورة أواخر ذي الحجة لكي يستمر في الكفاح والكدح لله وفي سبيله وقضى شهر المحرم من عام ١١ للهجرة.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد كافح طويلا طيلة ما يقرب من ربع القرن منذ كلفه الله بالدعوة (٢٣عاما) منها خمسة عشر عاما يعتدى عليه وعلى المسلمين، يفرون من وجه الأعداء، والأعداء لا يتركونهم للعيش في حرمان من أموالهم وديارهم في سلام، ولما أجاز له الله القتال خاض سبع وعشرين معركة بنفسه، مضحيا بأقرب الأقربين إليه، وأرسل ثمان وثلاثين سرية وحملة، وتعرض رسول الله للغدر من أعدائه من المشركين فانتصر عليهم ومن اليهود فانتصر عليهم وطردهم، ثم لقى المسلمون الغدر من الروم كذلك،

كان غرور دولة الروم قد دل على أنها تأبى للدين الجديد أن يعرف الناس إليه سبيلا، فقد كان الروم يصدون عن سبيل الله بوضوح خاصة بعدما قتلوا فروة بن عمرو الجذامي، والذي كان واليا على معان شرق نهر الأردن، وصلبوه لا لشئ إلا إيمانه بالدين الجديد

* لما أرسل رسول الله خمسة عشر رجلا إلى ذات الطلح على حدود الشام كان جزاؤهم القتل جميعا ولم ينج منهم إلا رئيسهم فغضب الرسول ـ فالرسل لا يقتلون ـ فالرد يجب أن يكون مساويا للجرم

* لما أرسل للحارث صاحب دمشق كتابا يدعوه للإسلام فرمى الحارث بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأراد أن يرضي سيده، فقال: من ينزع مني ملكي؟ رغم أن الكتاب الذي وصله لم يلمح إلى ضياع ملكه، ولكن الحارث أراد افتعال موقف فيسمع به هرقل، فقال:

أنا سائر إليه ولو كان باليمن جئته، فكان الرد متوقع من رسول الله

* لما أرسل رسول الله إلى فروة بن عامر الجذامي وكان عاملا للروم على معان فأسلم وأهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم بغلة بيضاء ورسالة بإسلامه فقتله قيصر الروم وصلبه لا لشئ إلا لإيمانه بالدين الجديد!

* ولما أرسل رسول الله سرية مؤته بقيادة زيد بن الحارثة وابن عم رسول الله جعفر الطيار وبن رواحة لرد، قتلوا جميعا، فاكتفى صلى الله عليه وسلم بعودة جيشه من مؤتة بقيادة خالد سالما، فدولة الروم إذن كانت ولا تزال تقف حائلا بين دين الله وبين العباد المقيمين فيها.

هرقل كان يرى وجوب القضاء على هذا الدين، وكان أكيدر بن عبد الملك الكندي النصراني أمير دومة أكبر معاوني القيصر، ولقد بلغت الأنباء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن هرقل قد هيأ جيشا كبيرا، وأعطى قيادته لعظيم من عظماء الروم، وجلب معهم قبائل لخم وجذام وغيرهما من العرب المتنصرة فتستعد لغزو المدينة، وأن مقدمة هذا الجيش قد بلغت البلقاء، وتلقى المسلمون هذه الأنباء بالترقب والفزع، وكانت غزوة تبوك آخر غزوات رسول الله بغرض تأديب دوله الروم وكان ذلك أمرا ملحا حينما قاد رسول الله هذه الغزوة

نزلت سورة التوبة تأمر رسول الله والمسلمين بقتال من هم يصدون عن الدين، فتبدل الموقف وبعدما كان تأديب الروم أمرا ملحا، صار أمرا محتوما، براءة من الله ورسوله فلا يمنع دين الله من عباده ولو بالقتال بل فبات فرضا بعد نزول هذه السورة، وشأن نصارى الروم هو شأن نصارى نجران، الذي كان شأن اليهود من قبل، فإما السماح بالهداية والتبشير والإنذار بالحسنى وإما بفرض إيصال التبشير والإنذار للعباد بالقتال ولكن لا إكراه في اعتناق الدين.

في هذا الوقت الحرج كان المشركون من القبائل القاصية عن مكة، ولم يكن الإسلام قد تمكن من أنفس هؤلاء، ولم يحظوا بتهذيب الإسلام لنفوسهم، وقد حذر المولى منهم فقال عن بعض الأعراب (ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ، وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ، عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ، وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ويستثني المولى عز وجل بعض منهم فيقول (وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَـٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ، سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ، إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقد حذر المولى من إيمانهم الشكلي قائلا (قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ آمَنَّا، قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ، وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا، إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ولم يحسبوا أن الدعوة هي ميدان الضمير، وإنما فهموه ميدان مكسب لمال أولملك، إذ بعد نجاح دعوة فتى قريش محمد بن عبد الله كانت القبائل الأعرابية تود أن يكون لها من الحظ الذي أوتيت قريش، وحسبوا أن الأمر لا يعدو أن يكون بضع كلمات من النثر يتشدق بها بعض الكذابين،

فكان طليحة الأسدي زعيم بني أسد، وكان مسيلمة الكذاب وسجاح ببني حنيفة وباليمامة، وكان الأسود العنسي صاحب اليمن بعد مقتل بدهان، وغيرهم سيستمر ظهورهم!

٢- بعثة أسامة بن زيد بن حارثة إلى الشام:

رغم كل ما سبق، جهز رسول الله بعثة أسامة، وكان صلى الله عليه وسلم قد بقي بالمدينة بقية ذي الحجة وشهر المحرم، ولما دخل شهر صفر، أمر الناس بالتجهز لغزو الشام، وأمّر عليهم أسامة إبن مولاه زيد بن حارثة وابن مرضعة الرسول، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين على مقربة من مؤتة حيث قتل أباه، وأن ينزل في عماية الصبح، وأن يباغت فلا تصل الأنباء إلى العدو، فإذا فعل فلا يطيل البقاء، وكان في التاسعة عشر من عمره أو نحو ذلك، وكان في هذا الجيش كبار المهاجرين والأنصار كأبي بكر وعمر بن الخطاب وغيرهم وعليهم أسامة أميراً على الرهط من كبار الصحابة، وقد كان من ضمن أسباب اختيار رسول الله لأسامة هو إدراك أسامة لثأر أبيه، وقد أدى هذا الاختيار إلى أن يطعن الجند في تولية أسامة لصغر سنه، ولأنهم لا يزالون يرونه ابن مولى (زيد) وجارية الرسول ومرضعته (أم بركة الحبشية) فأجاب رسول الله:

إن تطعنوا في إمارة أسامة فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبل، وأيم الله إن كان خليقا للإمارة، وإن كان من أحب الناس إلي، وإن هذا من أحب الناس إلي بعده (١)[١٢٨]

بدأ الرجال والصحابة ينتظمون في الجيش إنفاذا لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان من بينهم تحت أمرة أسامة كل من أبي بكر الصديق، عمر بن الخطاب، أبو عبيدة بن الجراح، سعد بن أبي وقاس، سعيد بن زيد، وقتادة بن النعمان رضي الله عنهم، فذهبوا يلتفون حول أسامة وهم على فرسخ من المدينة، وبينما الناس على ذلك علموا باعتلال صحة رسول الله وحبيبهم فلم يكن المرض في حد

1) [١٢٨]) صحيح البخاري، باب بعثة النبي أسامة ٦١٢/٢

ذاته، بل كان ما اتصل في حديث أبا مويهبة من علامات خطر، فوقف الجيش، وهرول كبار الصحابة لرسول الله يعودونه في مرضه.

٣ـ شعور النبي بدنو أجله:

أرق النبي أول ما بدأ يشكو من الشقيقة (صداع نصفي) وكان قد بدأ يشعر به أثناء غزوة خيبر، وطال أرقه ليال طوال، وفي ليلة من تلك الليالي خرج عليه الصلاة والسلام، وصحب معه مولاه أبا مويهبة، فقال لأبي مويهبة:

إني أمرت أن استغفر لأهل هذا البقيع فانطلق معي

وذهب رسول الله إلى بقيع الغرقد فقال يخاطب أهل البقيع:

السلام عليكم يا أهل المقابر ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، والآخرة شر من الأولى

لما استغفر لهم قال لأبي مويهبة:

يا أبا مويهبة، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلود فيها ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة

قال أبو مويهبة: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة،

قال رسول الله: لا والله يا أبا مويهبة، ! لقد اخترت لقاء ربي والجنة،

في اليوم التالي بدأ رسول الله يشكو المرض، فأشاع مويهبة ما دار بين ن رسول الله وبينه ليلة البارحة، ووصل الأمر لجيش أسامة

وشعور المرء بدنو الأجل يؤتاها الكثيرون كما يعرف الناضجون في هذه الحياة الدنيا

أصبح رسول الله وقد مر بعائشة في اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر (الإثنين) وكان عائدا من جنازة في البقيع، فوجدها تشكو صداعا، وتصرخ: وارأساه

فقال لها: بل أنا والله ياعائشة وا رأساه،

لم يكن الألم قد اشتد به إلى الحد الذي يلزمه الفراش، وفي يوم، سمعته عائشة يشكو من الصداع، فذهبت إليه فقال لها مازحا: وما ضرك لو مت قبلي فقمت عليك فكفنتك وصليت عليك فدفنتك

فأثارت هذه الدعابة عائشة الغيورة وقالت له: ليكن ذلك حظ غيري، والله لكأني بك لو فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك

ضحك النبي رغم ألمه وقام يطوف بأزواجه كما كان دأبه، وثقل يوما من الأيام برسول الله المرض، فجعل يسأل أزواجه: أين أنا غدا؟ أين أنا غدا؟

٤ـ الأسبوع الأخير في حياة قدوة العالمين

في يوم الثلاثاء الخامس من ربيع الأول سنة ١١ هـ عاوده الألم في بيت ميمونة وجعل الألم يزداد، ورأى في نفسه الاحتياج إلى التمريض فدعا نساءه في بيت ميمونة واستأذنهن ـ بعد أن رأين حاله ـ أن يمرض في بيت عائشة، فأذِنَّ له، فخرج عاصبا رأسه معتمدا على علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب، فسارا به وقدماه لا تكادان تحملانه حتى دخل بيت عائشة،

وزادت الحمى فكانت عائشة تقرأ بالمعوذات والأدعية التي حفظتها من رسول الله وتمسح على رأسه رجاء البركة،

في يوم الأربعاء السابع من ربيع الأول سنة ١١ هجريا اتقدت حرارة العلة في بدن رسول الله، فاشتد به الوجع فغمي عليه وفلما أفاق قال:

هريقوا عليّ سبع قرب من آبار (، وسماها) حتى أخرج الناس فأعهد إليهم

فأقعدوا الرسول الحبيب في مخضب، وصبوا عليه الماء، حتى قال: حسبكم، حسبكم

أحس قدوة العالمين صلى الله عيه وسلم بخفة، فدخل المسجد ـ وهو معصوب الرأس ـ وجلس على المنبر والناس مجتمعون حوله فقال يخطب فيهم: قاتل الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد (١)

ثم أراد الرسول أن يكون واضحا فقال الصادق الأمين: لا تتخذوا قبري وثنا يعبد (٢)

ثم عرض نفسه للقصاص فقال: من كنت قد جلدت له ظهرا، فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضي فليستقد منه (٣)

وليبرئ نفسه من ديونه قال: من كان له عندي مال فليأخذه

قال رجل: إن لي عنك ثلاثة دراهم، ! فقال الرسول الأمين: اعطه يا فضل

ثم أوصى بالأنصار قائلا: أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشي وعيبتي، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، إن الناس يكثرون والأنصار يقلون، حتى يكونوا كالملح في الطعام، فمن ولي منكم أمرا يضر فيه أحدا أو ينفعه، فيقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، (٤) كل ما سبق وقاله الحبيب كان واضحا منه أنه صلى الله عليه وسلم يحاول جاهدا أن يبرئ نفسه من هذه الدنيا، فأضاف قدوة العالمين:

إن عبدا خيره الله أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده (٥)[١٢٩]

----

[١٢٩](١) صحيح البخاري ٦٢/١، موطأ الإمام مالك ص ٣٦٠ (٢) موطأ الإمام مالك ص ٦٥

(٣) لم يتقدم أحد فلم يجلد إلا ظهر أصحاب حديث الإفك وهم مدانون، ولم يحدث قط أن أن شتم عرض (٤) صحيح البخاري ١/ ٥٣٦
(٥) مشكاة المصابيح ٢/ ٥٤٦

فهم أبو بكر وأدرك أن النبي يعني نفسه فبكى وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله

عجب الناس من أبي بكر وبكائه وقالوا: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبرنا رسول الله عن عبد خيره بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا، وبين ما عنده، وهو يقول فديناك بآبائنا وأمهاتنا!

والحقيقة أن أبا بكر علم أن رسول الله يرثي نفسه، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم هو المخير، فاختار جوار الله وكان أبو بكر أعلمهم بالمقصود (١)

فخشي رسول الله أن تمتد عدوى التأثر فقال:

على رسلك يا أبا بكر

ثم أمر أن تقفل جميع أبواب المسجد إلا باب أبي بكر فلما أقفلت قال:

إني لا أعلم أحدا كان أفضل في الصحبة عندي يدا منه، وإني لو كنت متخذا من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن صحبة وإخاء إيمان حتى يجمع الله بيننا عنده (٢)

في يوم الخميس الثامن من ربيع الأول سنة ١١ هجريا وقبل أربعة أيام من لحوق رسول الله بالرفيق الأعلى قال وقد اشتد عليه الألم:

هلموا أكتب إليكم كتابا لن تضلوا بعده

قال عمر: قد غلب عيه الوجع، وعندكم القرآن، حسبكم كتاب الله

واختلف الحضور، منهم من يقول: قربوا كتابا يكتب لكم فلا تضلوا بعده، وما فتئ بن عباس يرى أنهم أضاعوا كثيرا بأن لم يسارعوا بالاستجابة لطلب رسول الله

ولما رأى رسول الله خصومتهم قال لهم: قوموا عني (٣)[١٣٠]

وعمر المشهود له ببعد النظر، معروف عنه أيضا إعمال العقل، وقد اعترف عمر رضي الله عنه عدة مرات بأنه يخطئ أحيانا، على الرغم من نفاذ بصيرته

كان سهيل بن عمرو خطيب قريش وأحد قادتها - على سبيل المثال لا الحصر - ممن أشار عمر على رسول الله بقطع لسانه، مخالفا رأي رسول الله وقد صدقت الأيام مقوله رسول الله بأن الإسلام سيحتاج لسانه، وقد صدق رسول الله، وندم عمر

وعمر بن الخطاب قد اعترض على صيغة هدنة الحديبية من شدة حيرته فذهب لأبي بكر الصديق يعترض قائلا: فعلام نُعطي الدَّنيَّة في ديننا؟ ولم يهدأ وظل على ثورته حتى أتى رسول الله وهو على هذه الحالة فقال له: يا رسول الله، ألست برسول الله؟ أولسنا بالمسلمين؟ أوليسوا بالمشركين؟ فعلام نُعطي الدَّنيَّة في ديننا؟ فيقول له رسول الله: أنا عبد الله ورسول الله لن أخالف أمره ولن يضيعني الله

---

[١٣٠] (١) متفق عليه – مشكاة المصابيح ٥٤٦/٢ (٢) متفق عليه – مشكاة المصابيح ١/ ٥٤٨، صحيح البخاري ١/ ٢٢، ٤٢٩، ٤٤٩، ٢/ ٦٣٨ (٣) البخاري عن أم الفضل باب مرض النبي ٦٣٧/٢

وعاد يسأل رسول الله: أولست كنت تحدثنا عن أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال له رسول الله: فإنك آتيه ومطوف به، وندم عمر بعدها، وغيرها من المواقف، منها ما كان على حق فيها ومنها ما لم يكن، فقد وفق عمر في أمر الخمر والحجاب على سبيل المثال لا الحصر أيضا، ولا نرى أن وفق عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذا المنع (إن صدقت هذه الواقعة) إلا أن عمر ـ لو كانت تلك الواقعة صحيحة ـ قد استند إلى أن الله تعالى قد قال في كتابه العزيز ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم، مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (١)[١٣١] ولكن الثابت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان ينفذ أمره مهما كان الاختلاف خاصة إن كان الأمر المطلوب جللا، ولسوف نرى الدليل عى ذلك في أمر حيوي بتولية أبو بكر الصديق إمامة المصلين، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ماكان به من شدة المرض يصلي بالناس جميع الصلوات حتى ذلك اليوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام، وصلاة المغرب كانت آخر ما صلاها مع الناس في هذا اليوم، فقرأ فيها المرسلات (٢)[١٣٢] وحاول رسول الله أن يؤم الناس لصلاة العشاء فزاد ثقل المرض عليه، بحيث لم يستطع الخروج للناس إلى المسجد الذي يبعد خطوات عن بيت عائشة، إ ذ أغمي عليه ولما أفاق سأل عائشة: أصلى الناس؟

فقالت: لا يا رسول الله، وهم ينتظرونك،

قال: ضعوا لى ماء في الخضب

فاغتسل ولما ذهب لينوب أغمي عليه ثانية فسأل عائشة: أصلى الناس؟

فقالت: لا يا رسول الله

فاغتسل فأغمي عليه ثالثة ولما علم أنه لن يقدر قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس

فقالت عائشة: إن أبابكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن

قال رسول الله: مروه فليصل بالناس

فكررت عائشة: إن أبابكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن، فليصل عمر بالناس، فسمع رسول الله عمر وهو يصلى بالناس فقال: فأين أبوبكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون

فغضب رسول الله ولما جاء أبوبكر قال: إنكن صواحب يوسف مروه فليصل بالناس

وصلى أبو بكر بالناس كأمر النبي صلاة العشاء ليلة الخميس

في يوم الجمعة التاسع من ربيع الأول سنة ١١ هجريا لم يصل رسول الله بالناس طيلة اليوم فقد كان في إغماءات متكررة، وكان إذا أفاق صلى وحده، فأعدت أسماء بنت عميس شرابا كانت قد تعلمت إعداده أثناء إقامتها بالحبشة، فانتهز النساء فرصة إماءة من إغماءات الحمى فصبوه في فيه، وقضى رسول الله ليلة هادئة ونزلت عنه الحمى.

[١٣١] (١) سورة الأنعام بالآية ٣١
[١٣٢] (٢) متفق عليه، مشكاة المصابيح ١٠٢/١

في يوم السبت العاشر من ربيع الأول سنة ١١ هجريا وجد النبي صلى الله عليه وسلم في نفسة نشاطا، لكأن الدواء الذي سقاه أهله قد فعل فعله فخرج عاصبا رأسه، ووجد أبا بكر يصلي بالناس صلاة الظهر، فخرج بين رجلين وأبو بكر يؤم بالناس فلما رأى المسلمون النبي وهم في صلاتهم كادوا يفتنون عن الصلاة فرحا به، وسر رسول الله، فلما أحس أبو بكر بما صنع الناس نكص عن مكانه وتأخر ليخلي مكان الإمام لرسول الله، فأومأ إليه بأن لا يتأخر فجلس إلى يسار أبي بكر، فاقتدى أبو بكر بصلاة الرسول (١)[١٣٣]

بعد انتهاء الصلاة التف المسلمون فرحين حول رسول الله فأقبل عليه أسامة بن زيد يستأذنه في مسيرة الجيش إلى فلسطين، ومثل بين يديه أبو بكر قائلا: يا نبي الله إني أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما تحب، واليوم يوم بنت خارجة (زوجة جديدة لأبي بكر لم يدخل عليها) أفآتيها؟ فأذن له انبي وانطلق أبوبكر لأطراف المدينة حيث تقيم بنت خارجة، وعاد رسول الله لبيت عائشة، وقد بدأ الإنهاك يراوده من جديد.

في يوم الأحد الحادي عشر من ربيع الأول سنة ١١ هجريا كان خروج النبي للصلاة بمثابة الصحو قبل الموت، كان صلى الله عليه وسلم يرى الموت يدنو منه، ولم يبق له ريب في أن بينه وبين الموت ساعات،، فأعتق النبي غلمانه، وكانت درعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعا من الشعير أطعم أهله منها وتصدق بما بقى، فوهب أسلحته للمسلمين، وسدد ديونه التي كان قد اقترضها ليساعد فقير يرغب في الزواج، ولما علم بأن لديه باق من المال يبلغ سبعة دنانير فقال (ما ظن محمد بربه لو لقى الله عنده هذه) فتصدق بها،

في يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول سنة ١١ هجريا، الثامن من يونيه ٦٣٢ ميلادية (الساعات الأخيرة) استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سمع المسلمين في صلاة الفجر، فوجد عنده فائضا من العافية تمكنه من إمامة الصلاة معهم، فتوضأ وحملته قدماه الشريفتان إلى أن بلغ باب حجرته، فكشف ستر حجرة عائشة ونظر إليهم، رآهم يصطفون للصلاة فتبسم فرحا بهم وبما تم ترسيخه فيهم، ونكص أبو بكر على عقبيه ؛ ليصل الصف، ظانا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يخرج للصلاة، ، وهم المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم، ثم دخل غرفة عائشة وأرخى الستر (١) فقد كان منهكا وغير قادر على السير، وصلى في مضجعه ولم يأت على رسول الله وقت صلاة بعدها، ولما ارتفع الضحى، أتت فاطمة كعادتها ك يوم، وكان المرض قد بلغ أشده على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد زادت به الحمى، فقال لها: مرحبا بابنتي. فقبلته فاطمة فشعرت بحرارة شديدة تنبعث من رأسه، فيغشى عليه أحيانا ثم يفيق فقالت فاطمة باكية: واكرب أبتاه، ! فقال لها: لا كرب على أبيك بعد اليوم

ثم أسر إليها حديثا فبكت (٢)[١٣٤] وأسرها بحديث آخر فضحكت (٣) [١٣٥]

دعا رسول الله بإناء فيه ماء بارد يضع فيه يده ويمسح على وجهه

أتى رجل من آل أبي بكر وفي يده سواك، فنظر إليه رسول الله نظرة دلت على أنه يريد السواك، فأخذته عائشة منه ولاكته حتى لان فاستاك به صلى الله عليه وسلم.

---

[١٣٣] (١) صحيح البخاري، باب مرض النبي ٢/ ٦٤٠

[١٣٤] (٢) قال لها أنه سيقبض في مرضه هذا

[١٣٥] (٣) اسر لها أنها أول من سيلحق به من أهله وقد ماتت بعد شهور

في الضحى (الدقائق الأخير) شق عليه صلى الله عليه وسلم النزع الأخير، وكان رأسه أثناء نزعه الأخير في حجر عائشة فتوجه إلى الله يدعوه فقال: اللهم أعني على سكرات الموت

فثقل رأسه الشريف في حجرها، فنظرت إلى وجه رسول الله، فإذا ببصره قد شخص وهو يقول: بل الرفيق الأعلى في الجنة مع الذين أنعمت عليهم (١)[١٣٦] وكررها ثلاثا، ومات.

فهمت عائشة أنه قد خير فقالت عائشة: خيرت فاخترت والذي بعثك بالحق

فوضعت رأسه على الوسادة وقامت تلتدم مع النساء وتضرب وجهها

هو فيض من الآلام طوال عمره صلى الله عليه وسلم الذي لم يمتد كثيرا، فيض من آلام منذ مولده، فهو يتيم الأب، وفيض من الآلام منذ حرمانه من الأم بحنانها الفطري كي ترضعه مرضعة غريبة عنه، منذ رؤية قبر أبيه وهو غض، وفقده الأم بعد ـ صدمة قبر الأب ـ أمام عيناه وهو غض في الخامسة من العمر، منذ فقده جده كأب بديل وهو في الثامنة من العمر، منذ قضاء جل طفولته في الفيافي يرعى الغنم بالأجر، منذ فقده أولاده الذكور وهو في ريعان الشباب، منذ عداء عشيرته الأقربين وكل أعمامه له في باكورة سن النضوج، منذ تآمر قريش عليه لقتله، منذ وفاة حبيبته خديجة، منذ مطاردته وفراره بدينه ليثرب، منذ العوز الذي لاقاه بالمدينة، منذ مقتل حمزة عمه أمام عيناه، منذ فقده بناته واحدة تلو الأخرى، وابن عمه جعفر وابنه إبراهيم، وكأن محمدا محروم مما نفرح به في حياتنا الدنيا كبشر، فلا مال ولا بنون، يرتضي كل الحرمان، ولا يعرف في حياته إلا الفداء والتضحية والكفاح وبذل الذات من أجل إبلاغ الناس، ويأمره الله بالصبر، فيصبر.

(فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ، فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) (٢)

فقد يرى رسول الله وعد الله الحق أو يتوفاه سبحانه وليس عليه إلا البلاغ وعلى الله الحساب (وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ) (٣)

المنهج الرباني يقتضي تكليف رسول الله بالمهمة، فإما يرى نجاحاتها أو تنتهي حياته بعد أداء المفترض والمفروض عليه من البلاغ، ثم يغادر الحياة الدنيا فالله شهيد على البشر وعلى ما يفعلون فإليه سبحانه وتعالى مرجعهم

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْنَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ) (٤)

فهو صلى الله عليه وسلم ميت وإلى الله مرجعه، وهم ميتون وإلى الله مرجعهم ويوحي إليه (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ) (٥)

ولا يبلغه الله الغيب بمتى ولا كيف يموت فمن ضمن ما جاءه من الوحي: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ، أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ، وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا، وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ) (٦)[١٣٧]

---

[١٣٦] (١) صحيح البخاري باب مرض النبي ٢/ ٦٤٠

[١٣٧] (٢) غافر ٧٧ (٣) الرعد ٤٠ (٤) يونس ٤٦ (٥) الزمر ٣٠ (٦) آل عمران ١٤٤

يأكل من شاة في خيبر ولا يموت، ويأكل بشر بن البراء من نفس الشاة فيموت، فحياته لن تنتهي إذ أنه قد أرسل لأداء مهمة ومهمته لا تنتهي إلا بأمر الله، حينما ينهي ما هو مكلف به.

لا يجزع من الموت إلا من ينكر الحياة الآخرة، أولئك لا يتمنون الموت، والذي يتمنى الموت هو من يجاهد أن يعمل صالحا.

يقول تعالى: ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ (١)[١٣٨]

ويقول لنبيه: (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ، أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ، وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً، وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٢)[١٣٩]

---

[١٣٨](١) سورة الملك ٢

[١٣٩](٢) الأنبياء ٣٤&٣٥

الفصل العاشر

بداية تاريخ المسلمين

بداية تاريخ المسلمين

مقدمة

أعلم تماما أن هذا الكتاب من أوله لآخره يسير على حقل ألغام ولكنني لا أجد بدا من مواصلة السير بتلك الرؤية فعسى الله أن يهديني إلى سواء السبيل، ومرة أخرى، هل وضع رسول الله أسس لدولة الإسلام أم لدعوة الإسلام؟ وهل الدولة أقدر من الدعوة؟ فالدولة هي السلطة والسلطان، والقهر والقانون، والمركز والسيطرة، والجاه والمال، وعلى رأس هذه الدولة ملك أو إمبراطور أو رئيس ينعم بسلطات يحددها مقيمها، ويجبر بالقهر تطبيق قانونه، وترتكز السيطرة بيده وبيد من هو راض عنهم، ينعم بجاه الدولة ومالها، ويعد الناس بنعيم الدنيا كذبا أو صدقا، والدولة تبسط تحكمها فيمن تحكم، وما أن تنتهي الدولة بهزيمة أو ثورة أو بوفاة مؤسسها أو بالتقادم ينتهي قانونها وما كانت عليه أو يتبدل، فيذكرها التاريخ أو لا يذكرها، ولا شأن للدولة بالضمائر وإنما هي للمصلحة الآنية، أما الدعوة فهي مخاطبة الضمير، ومحفزة العقل، ومحكمة الغيب، ومطالبة البذل والتضحيات، وداعية للخير، وكل من يؤمن بالدعوة ويدافع عنها يصارع ضميره، ويتهم في عقله، يحكم عليه إن حاد عن مبادئها في غيب السماوات، يفقد حريته وحياته ويفقد الجاه والمال من أجلها ويدعو للكمال ولو على حسابه، والدعوة تعد الناس بنعيم الآخرة صدقا بوعد الله الذي لا يخلف الميعاد، الدعوة تسمو بالأخلاق والضمائر وتظل قائمة لا تتبدل بل تبقى في وجدان كل من آمن بها لا شأن للدعوة بالمصالح الآنية وإنما بإعمال الضمير، فلئن كانت الدولة هي شأن الزعماء فالدعوة شأن الأنبياء والرسل، الدولة تموت ولو كانت قوية والدعوة تبقى إلى الأبد لو كانت إلهية والدولة تعجز عن الإقناع بالإيمان بمبادئها أما الدعوة فتحقق الإيمان بالإقناع بها فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وما عليه إلا البلاغ المبين. وقد ينخدع البعض أو يخدعون بظواهر الأمور فيدعي أن العشر سنوات التي قضاها رسول الله في المدينة، كانت لنظام حكم ثيوقراطي يعتمد في كل شيء على الدين، ولا رأي للناس فيه! فكيف إذن وقد أمر الله نبيه أن يشاور المسلمين في الأمر، ولو كان هناك حكما إلهيا يتنزل من السماء ما استطاع المسلمون أن يستكرهوا رسول الله على ما لا يريد في غزوة أحد؟ نظام الولاية والحكم بعد رسول الله لا يعدوا أن يكون عهدا بين المسلمين والولاة، فاحترام العهود أمر موكول للضمير، ضمير الحاكم في القرار وضمير المحكوم في اختيار الحاكم، وإن كان الحكم معرض أن يقع فيه الصواب والخطأ من البشر، ويتاح للناس أن يعرفوا ما يجرى فينكرون أ ويسخطون، كان حكما ديمقراطيا بديموقراطية الصفوة فحسب، فلم يبايع الخلفاء أي من الدهماء وإنما أهل الحل والعقد.

١ ـ دفن رسول الله

كانت حجرة عائشة مكتظة، وكان الصحابة واقفين في قلق وذهول خارج الغرفة في المسجد المكتظ عن آخره، كانت الجموع خارج المسجد تترقب في قلق أليم وحيرة وخوف، وكانت يثرب في قتامة الليل رغم شمس الضحى في صيف حارق. فوجئ المسلمون بالعويل والصراخ، فقد رأوا رسول الله في الصباح أثناء صلاة الفجر، وظنوا أنه عوفي وسرعان ما سيعود إليهم، ألم يذهب أبو بكر إلى زوجه بنت خارجة بالسنح ليبني بها بإذن الرسول، ألم يلحق أسامة بن زيد بمعسكر الجيش الزاحف إلى الشام!

كانوا في حيرة من الأمر، وسيطر الإنكار على تفكيرهم، ففي الإنكار راحة، لكن النساء في حجرة عائشة كن يلتدمن ويضربن وجوههن، وما علامة ذلك الصراخ إلا الحدث الجلل وما الحدث الجلل إلا الموت

أسرع عمر يدفع الناس إلى الباب يطرقه ففتح له، فهرول إلى جثمان الرسول صلى الله عليه وسلم وهو ينكر قبل المجيئ أنه مات، فكشف وجهه الشريف فألفاه لا حراك فيه، فكبر عليه الأمر وتعلق بوهم أن رسول الله في غيبوبة، ولكنه محمد هو رسول الله فلماذا لا يكون قد ذهب بروحه إلى الله ليلقى ربه ويعود، ألم يغب موسى أربعين ليله وعاد لبني إسرائيل بعدما قيل أنه قد مات؟

قال عمر ذلك لمن حوله وقد خرج عن وعيه، وعبثا حاول المغيرة بن شعبة إقناعه بالحقيقة، وعمر ينكر الحقيقة الأليمة بإصرار وحدة، فلما ألح المغيرة قال له عمر بحدة: كذبت

وإذ هم كذلك أقبل أبو بكر في فرسه بعدما سمع الخبر من السنح ونزل مهرولا للمسجد دون أن يكلم أحدا، وخرج عمر ومعه المغيرة وهو يصيح (إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي ؛ وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ؛ فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل: قد مات، والله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنه مات) !

التف أغلب الناس حول عمر وهم يتمنون أن يكون صادقا في زعمه، وكادت فتنة الخرافات تعصف بالدعوة مبكرا، كانوا أدنى إلى تصديقه إرضاء لأحلامهم!

أبو بكر الصديق يخرج بالمسلمين من نفق فتنة الخرافات.

لم يقف أبو بكر طويلا أما كلمات عمر بل دلف مسرعا إلى بيت عائشة ابنته، فاستأذن في الدخول فقيل له: لا حاجة اليوم لأحد بإذن، فدخل

فألفى أبو بكر حبيبه رسول الله مسجى في ناحية من البيت عليه بُرد حَبرة (١)[١٤٠] فأقبل حتى كشف وجهه الشريف، فأقبل باكيا يقبل وجهه ثم أخذ رأس النبي بين يديه يحدق فيه وقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله**!** أما الموتة التي كتبها الله عليك فقد ذقتها ثم لن يصيبك بعدها موتة أبدا

ثم أعاد رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الوسادة ورد البرد عليها وخرج للناس خارج المسجد. ولا يزال عمر بن الخطاب ينكر وفاة رسول الله ويقف في الناس وهو يتوعد من يقول بذلك، كان عمر قد ألف أن يسمع لرسول الله ويدبر أمرهم، فحسب أنه يبقى ليكون آخر من يموت من هذا الرعيل

أفسح الناس لأبي بكر الطريق، فلما اقترب من عمر ناداه: على رسلك يا عمر**!**، أنصت**!**

لكن عمر أبى أن يسكت أو ينصت، وما يزال ما فتئ ينادي بأنه لم يمت، والصديق يحاول الحديث للناس، واحتار المسلمون وكادت تقع الفتنة، فقال أبو بكر: اجلس يا عمر

وأبى عمر أن يجلس، فأقبل أغلب الناس على أبي بكر، فقال رابط الجأش: أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله، فإن الله حي لا يموت، قال الله:

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ، أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ، وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا، وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ) (٢)[١٤١]

---

[١٤٠] (١) برد يماني مخطط

[١٤١] (٢) آل عمران ١٤٤

ما أن سمع عمر ما تلى أبو بكر من آيات القرآن حتى علم يقينا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات وتخاذلت رجلاه فهوى عمر إلى الأرض

وكأن كل من كان بالمشهد الحزين قد سمع هذه الآيات لأول مرة! وجعلوا يتلونها ويتعزون بها

نعلم أن قد تغيب الشمس، ويعم الظلام، وتتبدد حرارتها، أما العقيدة فترسخ، والأتقياء يخلدون، ومحمد يصبح الاسم الأكثر انتشارا في العالم، فسيرته لا تموت.

حيرة الأيتام في المستقبل بين الأنصار والمهاجرين وآل هاشم

بعد اليقين من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أضحى المسلمون في حيرة من أمر حياتهم فتفرقوا بعد مدة وجيزة للمجهول، كانوا يشعرون باليتم المفاجئ،

الأنصار

تجمع الأنصار منحازين إلى سقيفة بني سعدة حيث يرقد سعد بن عبادة مريضا، وقد كان سعد بن معاذ وأسيد بن حُضير - سيدا قومهما من بني عبد الأشهل قبل الإسلام وأسلما على يد مصعب بن عمير رحمه الله، فآمن أسيد من فوره أما سعد بن معاذ فذهب لقومه بعدما أسلم وصلى وقال لهم: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيباً، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فما أمسى فيهم رجل أو امرأة إلا مسلماً ومسلمةً، فقال عنه رسول الله (عمل قليلا وأجر كثيراً)

المهاجرين

وانحاز المهاجرون ومعهم أسيد بن حُضير صديق سعد بن عبادة ومعه بني عبد الأشهل إلى أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح

آل هاشم

بقي آل هاشم في بيت فاطمة واعتزل علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وإبناه الفضل وقثم، وشقران مولى الرسول وأسامة بن زيد وأوس بن الخولي، والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله

لم يكن من بقي مع جثمان رسول الله قد شغلوا أنفسهم إلا في أمر تجهيز جثمانه صلى الله عليه وسلم لدفنه، وقد دخل الليل من يوم الإثنين عليهم وهم لا يزالون يعانون من أثر الصدمة، لا يدرون ماذا يحدث خارج جدران بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى كان آخر ليل الثلاثاء مع الفجر، وقد بقي جسده الشريف على فراشه، مغشي بثوب حبرة، وقد أغلق الباب، فغسلوا الجسد الشريف من غير أن يجردوه من ثيابه، وكان القائمون على الغسل علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وابناه الفضل وقثم، وشقران وأسامة بن زيد وأوس بن الخولي، ثم كفنوا الجسد الشريف في ثلاثة أثواب بيض سحولية من كرسف ليس فيه قميص ولا عمامة واختلفوا في أمر موضع الدفن فقال أبو بكر: سمعت رسول الله يقول: ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض

٢ـ من يخلف رسول الله:

جاء رجل ينبئ أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح ومعهم أسيد بن حُضير ورهطه بأن القوم من الأنصار قد انحازوا إلى سعد بن عبادة بسقيفة بني ساعدة لتوليته على المسلمين وهو يقول: (فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فادركوا الناس قبل أن يتفاقم أمرهم)
فالأنصار إذا وفي عصر يوم وفاة رسول الله كانوا يعدون عدتهم، وجثمان رسول الله لم يزل في بيته لم يفرغ من أمره وقد أغلق أهله دونه الباب، قال عمر لأبي بكر:

(انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار حتى ننظر ما هم عليه)

فانطلق القوم، وإنهم في طريقهم إذ لقيهم رجلان صالحان من الأنصار فذكرا لهم ما تمالأ عليه القوم من الأنصار، ولما علما أنهم يريدون سقيفة بني سعدة للقاء الناس هناك قالا: (لا عليكم لا تقربوهم يا معشر المهاجرين واقضوا أمركم)

قال عمر: (والله لنأتينهم)

وانطلقوا حتى بلغوا سقيفة بني ساعدة، فلئن قضى المهاجرون أمرا يخالف أمر الأنصار فلسوف تبدأ الفتنة والصراع على السلطة والزعامة، وهي عادة عربية أصيلة، فإذا بسعد بن عبادة راقدا مزملا، فسألهم عمر بن الخطاب: من هذا؟ قالوا هو سعد بن عبادة به وجع.

فلما جلس المهاجرون قام خطيب من الأنصار فحمد الله وأثنى عليه ثم قال (أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا، وقد دَفّت دافةُ من قومكم وإذا هم يريدون أن يحتازونا من أصلنا ويغصبونا الأمر)

لم تكن تلك الكلمات غريبة على أفواه بعض الأنصار منذ وجود النبي بين ظهرانيهم، فكيف بهم وقد توفي عليه الصلاة والسلام وهم في شوق لحكم مدينتهم ولا يرون لأحد ميزة عليهم كما كان لرسول الله!

ما أن سمع عمر فهم أن يدفع هذا الكلام، فأمسك أبو بكر بعمر مخافة شدته وقال له: على رسلك يا عمر

كان أبوبكر الصديق وعمر يدركان ما لأهمية تولي قُرَشِيّ في هذه الظروف، فالإسلام بعد لم يتوغل في قلوب الأعراب، ولم تكن العرب تعرف قيادة روحية إلا لبطن من بطون قريش، ولقد كانت مكة، ومكة فحسب هي القرية التي اعتاد العرب على الرضوخ لسلطتها الروحية قبل الإسلام فكيف الحال وقد أضحت المدينة (يثرب) ودون الرسول.

أبو بكر الصديق يخرج بالمسلمين من نفق فتنة الخلافات.

قام أبو بكر فقال: (أيها الناس نحن المهاجرين أول الناس إسلاما وأكرم العرب أنسابا، وأوسطهم دارا، وأمسهم حما برسول الله، أسلمنا قبلكم، وقدمنا في القرآن عليكم فقال تبارك وتعالى: (وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍۢ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍۢ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا، ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ) (١)[١٤٢] فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار، أخواننا في الدين وشركاؤنا في الفئ، وأنصارنا على العدو، وأما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل وأنتم أجدر بالثناء من أهل الأرض جميعا، فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، فمنا الأمراء ومنكم الوزراء)

قام أحد الأنصار غاضبا يقول: أنا جذيلها الحكك، وعذيقها المرجب، منا أمير ومنكم أمير!

وكأن الإسلام لا يعدو أن يكون أمرا بين المهاجرين والأنصار، وهو في حقيقته أمر العالمين جميعا، ولم يكن يقصد أبو بكر إلا حصر إدارة الأمور من قرشي بصفة مؤقتة حتى تعتاد العرب على أمر

---

[١٤٢] (١) التوبة ١٠٠

غياب الرسول، ولم يحصر إدارة الأمر لقريش طوال الدهر خاصة، والحقيقة فإن لفظ خليفة رسول الله لم يكن حتى تلك اللحظات قد صيغ بعد، فليس من الناس مهما كانوا قد بلغوا أن يقارنوا برسول الله، وإنما هي مجرد إدارة لسلطة روحية لم تكن لتتحقق إلا بالاقتداء برسول الله، وهي مهمة شاقة، واختيار دقيق للمسلمين في انتخاب أفضل القادرين على حمل الأمانة، فمهمة الذي يبايع من يدير الأمر، لا دخل فيها بمعسول القول الذي يقال له، فتجعل مهمة من يتولى الأمر أشق، ولقد أسيئ فهم مقصود أبوبكر من هذا الأنصاري، إذ أن قريش كانت لها المكانة المؤقتة حتى يستقيم الأمر، كما أساء تفسيره الهاشميون وعلى رأسهم العباس وعلي رضي الله عنهما، ولا تزال بعض الممالك تدعي أن على رأسها قرشي، والبعض الآخر يدعون أنهم من سلالة رسول الله، وما كان محمدا أبا أحد من رجالهم.

قال أبوبكر: بل منا الأمراء ومنكم الوزراء، ولقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم.

وأخذ بيد عمر وبيد أبا عبيدة، فكثر اللغط ؛ فنادى عمر بصوت جهوري: أبسط يدك يا أبا بكر.

فبسط أبو بكر يده فبايعه عمر وهو يقول: (ألم يأمرك النبي بأن تصلي أنت يا أبا بكر بالمسلمين! فأنت خليفته؛ ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعا)

وهكذا كانت التسمية بخليفة رسول الله، وهي تسمية غير دقيقة، وكان الأوقع تسميته بأمير المؤمنين، ومست تلك الكلمات قلوب الناس فبايع أبو عبيدة وأسيد بن حُضير وقومه من بني عبد الأشهل وبايع باقي الناس أبا بكر في سقيفة بني ساعدة.

٣- أول من تولى أمرالمسلمين (أبو بكر الصديق)

لفظ الخلافة المجازي

حينما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه عبارة (فأنت خليفته) لم يقصدها إلا كتعبير مجازي، مما أدى إلى الارتياح لمشاعر العامة من المسلمين، فحالة اليتم المفاجئ الذي صدم به الناس جعلهم يتعلقون بآمال الإعالة من جديد.

يموت رب الأسرة، فيتملك صغاره شعور الضياع، فلئن تولاهم من يعد بالرعاية، فقد خفف عنهم هذا الشعور باليتم والضياع، قد يتطوع الجد بالولاية والرعاية، فإن كان الصغار قد خبروا رعايته من قبل اطمأنوا لغدهم، وقد تتحمل الأم ذلك العبء، فيجري الطفل من فوره آليات المقارنة ما بين أداء الأب المفقود وأداء الجد أو الأم المفترض، وتلك الآليات تتمحور في الأساس حول القدرة والكفاءة، والكفاءة تشمل: العاطفة، والمصداقية، والجلد، والقدرة على السيطرة، والإعالة، وغيرها، فأداء الجد مرهون بما سبق وربما ما هو أعمق وأكبر ولكنه أداء مقلق، فكم من العمر قد بقي له في تحمل هذا العبء.

أداء الأم قد يكون أكثر أمانا للصغار، فعاطفتها قد تم لهم الاستمتاع بها من قبل، ومصداقيتها وجلدها قد تم لهم ملاحظتها، وسيطرتها قد تم لهم الخضوع إليها، وإعالتها قد تم لهم والركون إليها، وإن كان الأداء منقوصا، فالحياة تحت ولايتها ليست حياة ضائعة.

إن استبدال الأب بمن هو دونه، حري بأن يستنفر قلقا يستدعي مغالبة النفس بغية الخروج من حالات الضياع.

إن غاب الحاسوب (Computer) والذي يستخدم في مهام لا نهائية، يصعب استبداله بالآلة الحاسبة (Calculator) فالآلة الحاسبة تتعامل مع الحسابات والمعادلات فحسب، ولذلك ينبغي استخدام أجهزة أخرى لاستكمال مهام الحاسوب كالهاتف المحمول وغيرها، ولا تصير الأمور سلسة كما كانت، مهما أضيف إليها.

مع التجاوز في التشبيه، فرسول الله صلى الله عليه وسلم، كان منحة إلهية لا يمكن استبداله أو خلافته، فرسول الله مصطفي من الله وموكولا منه سبحانه، وأبو بكر الصديق مختار من البشر، ورسول الله ينزل عليه القرآن بالوحي للإبلاغ، وأبو بكر الصديق لا يملك إلا تطبيق ما جاء بشرع الله في القرآن بحسب اجتهاد تأويله - ولا يعلم تأويله كاملا إلا الله - ورسول الله لا ينطق عن الهوى، وأبو بكر يجتهد، فلا خليفة من البشر لنبي أو لرسول

لما كان الغد - الثلاثاء - الثالث عشر من ربيع الأول سنة ١١ هجريا، التاسع من يونيه ٦٣٢ ميلادية وقف أبو بكر على المنبر، وكان للمنبر ثلاث درجات يقف رسول الله على درجته الثالثة، فحرص أبو بكر على الاكتفاء بالصعود حتى الثانية توقيرا لمكان ومكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقام عمر يعتذرعن مقالته بالأمس بإنكار موت رسول الله، ويقدم أبا بكر ويدعو إلى مبايعته، فبايع الناس أبي بكر البيعة العامة بعد بيعة السقيفة (١)[١٤٣]

تكلم أبو بكر فقال: (أما بعد، أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي، حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي، حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم)

كان أبو بكر الصديق مرتعبا من هول المسؤولية. ولكن ما أجبره على تولي القيادة أيضا أنه كان مرتعبا من فرقة المسلمين، ومن الردة، وأحسب أنه رضي الله عنه وأرضاه قد ارتأى أن يسير على نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم دون الحيد عنه قدر أنملة، حتى يضمن تسيير أمور المسلمين كما كان يفعل رسول الله.

وتولى أبو بكر الصديق أمر المسلمين باتفاقهم عليه، فصار يتولى أمر المسلمين بتسمية مجازية، وهي خليفة رسول لله.

في واقع الأمر، كان اختيار الصديق لتولي أمر المسلمين أفضل اختيار، فهو من بكّر بالإسلام فأسماه رسول الله أبا بكر، وهو أول من صدّق بآية الإسراء والمعراج دونا عن الجميع فخرج من فتنة ذلك الحدث لرحابة اليقين، فأسماه رسول الله الصِدّيق، وهو ثاني اثنين إذ هما بالغار وهو من قبل هدنة الحديبية دونا عن الجميع، وهو من أنجز الإنجاز عقب الوفاة فإذا بأبي بكر الصديق يخرج الناس من عثراتهم عقب وفاة رسول الله وقبل توليه فقد قاد:

- الخروج بالمسلمين من فتنة الخرافات برفض إنكار عمر بن الخطاب لموت الرسول.
- الخروج بالمسلمين من نفق الخلافات فيمن يتولى الأمر من بعد رسول الله.

[١٤٣] (١) البخاري، ٩٤ كتاب الأحكام، ٥١ باب الاستخلاف

أما ما كان بعد توليته فهو كثير، إذ لما عاد القوم مساء يوم الإثنين، ولم يكن جثمان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دفن، فقد اختلف الناس في أمر موضع الدفن فقال أبو بكر: سمعت رسول الله يقول:

(ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض)

وكان أهل مكة يحفرون القبر مسطح القاع، أما أهل المدينة يحفرونه مقوسا، فاستدعي أبوبكر كل من أبا عبيدة بن الجراح فيضرح كأهل مكة، وأبو طلحة زيد بن سهل فيضرح كأهل المدينة، فتأخر أبو عبيدة، فرفع أبو طلحة فراش رسول الله الذي توفي عليه، فحفر تحته وجعل القبر لحدا،، وفرشوا القبر برداء أحمر كان النبي يلبسه، وبنوا فوقه باللبن وأهالوا التراب فوق القبر، ثم دخل الناس أرسالا عشرة فعشرة، يصلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يؤمهم أحد، فصلى عليه أولا أهله وعشيرته، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، وصلت عليه النساء، ثم صلى عليه الصبيان، ومضى في ذلك يوم الثلاثاء كاملا، ونهار الأربعاء حتى دخلت ليلة الأربعاء فدفن عليه الصلاة والسلام (١)[١٤٤]

لما بلغ الناس نبأ موت النبي، وقد ذاع النبأ في المدينة وترامى إلى قبائل العرب المترامية حول المدينة، تبلبلت عقائد ضعاف الإيمان، وارتدت العرب جميعا، فيما عدا المدينة المنورة ربما لغلبة الباقين من الصحابة الذين عاصروا رسول الله، حتى مكة! فقد هم أهلها بالرجوع عن الإسلام، حتى خافهم عتاب بن أسيد عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم فتوارى منهم خوفا، ولكن صدق حدس رسول الله فقد قام سهيل بن عمرو بينهم فقال:

(إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة (يقصد وفاة الرسول) فمن رابنا ضربنا عنقه، يا أهل مكة، كنتم آخر من أسلم فلا تكونوا أول من ارتد، والله ليُتِمّن الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم)

فرجع الناس عن ردتهم وحسن إسلامهم، ولما بدأت القبائل تتململ من الإسلام تمهيدا للردة وقد حاصرت القبائل المدينة لغزوها، أعد لهم أبو بكر العدة لحربهم في ليلة واحدة وفي نفس الوقت الذي أنفذ فيه بعثة أسامة إلى الشام، وقاد الجيش بنفسه في مطلع الفجر وبدد شمل العصاة، فكان الحسم سيد الموقف.

لم تكن العرب تتململ من دعوة الإسلام بسبب التوحيد، أو الاعتراف بنبوة محمد، بقدر ما كانت تتململ من تبعات هذه الدعوة والتي أتت عليهم بما لم يألفوه من تضحيات، فقد كان قوامها العدل الخالص المطلق، وما استتبعه من تكليفات عن خطاياهم،، والخطايا من سمات الإنسان، فلم تكن المبادئ التوحيدية هي ما نفرتهم من الدعوة بقدر ما كان الإصلاح الاجتماعي، وقياسات التطور الإنساني الذي كانوا بعيدين عنه، فيتعين العتق على المسلم فرضا ككفارة من ذنوبه، وكانت الذنوب بدءا من الكذب وانتهاء بالقتل الخطأ، ومرورا بالإفطار في رمضان وحلف اليمين وغيرها العديد، وكان من دواعي العدل أيضا مبدأ المساواة الإنسانية بين الحر والعبد، وتحريم الربا، والصدقة وإن كانت غير مفروضة فالغرامة المالية في الزكاة غرامة مفروضة، فيؤخذ من الأغنياء لعطايا الفقراء، وتحريم الخمر والزنا والتسري والقمار، فلو كان رسول الله قد دعاهم إلى التوحيد فحسب لما كانت غالبية العرب لترتد! ولم يكن العرب جميعا أصحاب رسول الله، بل منهم من لم يكن أصلا قد صاحب النبي وتعلم منه أو رآه، ولم يكن إيمان العرب بالدين الجديد مقاربا لإيمان الصحابة في المدينة.

[١٤٤] (١) مختصر سيرة الرسول ـ صحيح البخاري ـ فتح الباري ـ صحيح مسلم ـ مشكاة المصابيح.

علامات الردة وإنفاذ بعثة أسامة.
بمجرد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانت القبائل المتاخمة للمدينة قد أعدت العدة لغزوها واستباحتها، وبدأت الحشود حول المدينة المنورة، ولأن أبابكر كان قد آل على نفسه سياسة الاتباع لرسول الله، والزم نفسه بها، فقد أمر بإنفاذ بعثة أسامة رغم المخاطر المحدقة بالمدينة، فوجه أسامة بن زيد في سبعمائة رجل إلى الشام، فاجتمع الصحابة فقالوا له: رُدَّ هؤلاء، توجه هؤلاء الرجال للروم، وقد ارتدت العرب حول المدينة؟

قال: والذي لا إله إلا هو، لو جَرّت الكلاب بأرجل أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما رددت جيشا وجهه رسول الله، ولا حللت لواءَ عقده.

ومن فوره جهز جيشا ممن بقوا بالمدينة وعلى رأسهم كبار الصحابة وأعلن قيادته لهم بنفسه، فلما مر جيش أسامة بن زيد بهذه القبائل، وعلموا بإعداد أبو بكر جيشا لدحرهم، علموا أن بالمسلمين قوة، خاصة بعد عودة أسامة مظفرا، فثبتوا على الإسلام.

حروب الردة
أجمعت العرب على الارتداد عن الإسلام بطريقة أو أخرى، ففريق قال: نؤمن بالله، ونشهد أن محمدا رسول الله، ولكن لا نعطيهم أموالنا (الزكاة) وفريق قال: انقطعت النبوة فلا نطيع أحدا بعده، وفريق قال: لوكان نبيا ما مات! وفرق أخرى كان فيهم من ادعى النبوة.

وقرر أبو بكر الصديق خوض غمار حروب الردة ضد كل هؤلاء دفعة واحدة.

حاول عمر بن الخطاب أن يثني أبا بكر عن مواجهة الفرقة الأولى قائلا: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أمرت أن أقاتل الناس (قبائل العرب) حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها) (١)[١٤٥]

قال أبوبكر: فإن الزكاة من حقها، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها لرسول الله لقاتلتهم على منعها، وفي سورة فصلت بالآية ٧ يقول عز وجل عن كفر من لا يؤتي الزكاة: (ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ)

كانت الرؤية شديدة الوضوح لدى الصديق، ولقد انتصر الصديق في كل معاركه بفضل من الله وبفضل رؤيته تلك، وأكد قدرته على حمل الأمانة.

قدم عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس (٢)[١٤٦] إلى أبي بكر الصديق، يريدان أن يجعل لهم أبو بكر الصديق مالا يرضيهم حتى يكفيان من وراءهما عن الإسلام! وقد استحسن القوم هذا الأمر إلى أن يعود أسامة بن زيد، كان ذلك ابتزازا رخيصا فأبى ذلك أبو بكر الصديق وقال:

---

[١٤٥] (١) البخاري
[١٤٦] (٢) كان الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن وهم من قبائل غطفان قد حصلا مع غيرهم على ٥٠ بعيرا وكانا من المؤلفة قلوبهم من تلك القبائل هي التي فرت أول القتال في يوم حنين وتركت أرض المعركة ولم تعد إلا بعد صمود المهاجرين والأنصار حول رسول الله وهي نفس القبائل التي ارتدت بمجرد وفاة الرسول ونذكر القارئ أن عيينة بن حصن كان من ضمن قادة الجيوش لتحصيل الزكاة من القبائل ومن ضمن من أنكروا الزكاة بعدها وتزعموا الردة.

(أرى أن ننبذ إلى عدونا، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وألا ترشون على الإسلام فنجاهد عدوه كما جاهدهم رسول الله، والله لو منعوني عقالا لرأيت أن أجاهدهم عليه حتى آخذه ولو رأوا ذباب السيف، لعادوا إلى ما خرجوا منه، أو أفناهم السيف، فإلى النار، فقد قتلناهم على حق منعوه وكفر اتبعوه)

فظهر للناس جميعا صلابته في حق الله، وقدرته على تسيير الأمور، ولم يعد أحد بعدها يرفض له رؤية في الحق فأمر الناس بالتجهز، وأجمع على المسير بنفسه.

وكان رسول الله قد بعث جامعي الزكاة من قبائل العرب، فلما بلغهم وفاة الرسول أبوا أن يؤدوها، وكانت طيء قد قالت لعدي بن حاتم الطائي وهو كبيرهم: إن هذا الرجل (يقصدون رسول الله) قد مات، وقد أنتقض الناس بعده، وقبض كل قوم ما كان في أيدهم من صدقات، فنحن أحق بأموالنا من شذاذ الناس.

فرأوا منه الجد إذ حذرهم مغبة الردة فعادوا طائعين، وبدأ قتال أهل الردة، وكان أبو بكر ينتوي قيادتها بنفسة، فنهاه الناس، فأوكل إلى سيف الله المسلول خالد بن الوليد قيادة هذا الجيش.

فهرس التواريخ والأحداث

* ما بين عامي ٦٢٨ إلى ٦٢٩ م ٧-٨ هجريا بدأ رسول الله يرسل رسائل الدعوة للملوك
* قُتل كسرى أبرويز الثاني ابن هرمز ٦٢٩ م على يد ابنه الأخير كفادة الثاني شيرويه
* في صفر سنة ٨ هجريا يوليه ٦٢٨ أصبحت مارية جارية رسول الله وملك يمينه
* موقعة مؤتة في جمادي الأولى سنة ثمان هجريا أكتوبر ٦٢٨ م
* عمرة القضاء في شهر ذي القعدة من العام السابع هجريا فبراير٦٢٨ م
* زواج رسول الله من ميمونة في ذي القعد سنة ٧ من الهجرة فبراير ٦٢٨ هـ
* فتح مكة في الأربعاء ١٧ رمضان سنة ٨ هـ فبراير سنة ٦٢٩ م
* بيعة أهل مكة لرسول الله الخميس ١٨ رمضان سنة ٨ هـ فبراير سنة ٦٢٩ م
* سرية خالد بن الوليد إلى العزى يوم ٢٤ رمضان سنة ٨ للهجرة فبراير سنة ٦٢٩ م
* سرية سعد بن زيد الأشهلي إلى مناه يوم ٢٥ رمضان سنة ٨ للهجرة فبراير سنة ٦٢٩ م
* سرية عمرو بن العاص إلى سواع في شوال سنة ٨ للهجرة مارس سنة ٦٢٩ م
* سرية خالد بن الوليد إلى جذيمة في شوال سنة ٨ للهجرة مارس سنة ٦٢٩ م
* غزوة حنين في ٦ شوال سنة ٨هـ - مارس سنة ٦٢٩ م
* هدم صنم ذي الكفين في ١١ شوال من سنة ٨ هـ مارس ٦٢٩ م
* حصار الطائف ١٥ شوال من سنة ٨ هـ إبريل ٦٢٩ م حتى يونية
* سرية علي لهدم صنم طيئ في ربيع الأول من سنة ٩ للهجرة سبتمبر سنة ٦٢٩ م
* مولد إبراهيم بن محمد ذي الحجة سنة ثمان للهجرة إبريل ٦٣٠ ميلادية من ماريا
* غزوة تبوك (آخر غزوات الرسول) جيش العسرة تحرك الجيش في شهر المحرم مايو ووصل في رجب سنة تسع للهجرة – نوفمبر سنة ٦٣٠ ميلادية
* عام الوفود استمر نحو عامي التاسع والعاشر الهجري ٦٣١ – ٦٣٢ م وصل فيهما ٧٠ وفدا يدخ في دين الله أفواجا.
* حج أبو بكر الصديق سنة ٩ هجريا مارس ٦٣١ م
* حجة الوداع سنة ١٠ هجريا مارس سنة ٦٣٢ م
* وفاة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول سنة ١١ هجريا، الثامن من يونيه ٦٣٢ ميلادية (الساعات الأخيرة)

المراجع العربية والإسلامية والأجنبية

١. القرآن الكريم
٢. التوراة
٣. التلمود
٤. الأناجيل الأربعة
٥. إنجيل برنابا
٦. الله (كتاب في نشأة العقيدة الإلهية) ـ لعباس محمود العقاد
٧. قصة العقائد لسليمان مظهر
٨. إبراهيم أبو الأنبياء لعباس محمود العقاد
٩. سلسلة مقارنة الأديان للدكتور أحمد شلبي
١٠. إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة لإبكار السقاف
١١. (تاريخ اليهود) الجزء الأول والثاني للكاتب أحمد عثمان
١٢. التلمود شريعة بنى إسرائيل ـ أحمد صبري
١٣. الصهيونية في المجال الدولي للدكتور عبد المعز نصر
١٤. تاريخ الشعب العبري لريناتش
١٥. قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار
١٦. الإسلام والنصرانية للشيخ محمد عبده
١٧. حياة المسيح لعباس محمود العقاد
١٨. المسيح عيسى بن مريم لعبد الحميد جودة السحار
١٩. سلسلة مقارنة الأديان للدكتور أحمد شلبي
٢٠. قصة الحضارة ـ لول ديورانت
٢١. A SHORT HISTORY OF THE WORLD
٢٢. Encyclopaedia of Relegions and Ethics volume 5 :AlfredE.Grarvie
٢٣. Outline of History Volume 3
٢٤. محاضرات تاريخ الأمم ـ للخضري
٢٥. سقوط روما وانحطاطها ـ إدوارد جيبون
٢٦. الأصنام لابن الكلبي
٢٧. كتب الحديث سنن النسائي وأبي داوود ـ وابن ماجة ـ شرح صحيح مسلم لأبو زكريا النووي ـ صحيح البخاري ـ صحيح مسلم ـ الأحاديث الصحيحة المجلد الأول والثاني لناصر الدين الألباني ـ موطأ الإمام مالك، جامع الترمذي
٢٨. تفاسير الطبري، وابن كثير، الجلالين فتح القدير، الدر المنثور، زاد المسير، السمط الثمين
٢٩. أسباب النزول لأبي الحسن الواحدي النياسبوري بهامش الناسخ والمنسوخ
٣٠. لباب النقول في أسباب النزول للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي
٣١. الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس عن رواية أبي بكر بن على الأدفوي النحوي

٣٢. زاد المعاد في هدى خير العباد لشمس الدين المشقي (ابن القيم الجوزي)
٣٣. سيرة بن هشام لأبي محمد عبد الملك بن هشام
٣٤. المغازي للواقدي
٣٥. فجر الإسلام لأحمد أمين
٣٦. موسوعة آل النبي
٣٧. أعلام النساء
٣٨. معدن الأعمال
٣٩. مشكاة المصابيح
٤٠. تاريخ الطبري
٤١. الأمانة والسياسة
٤٢. في الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين
٤٣. رياض الصالحين للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي
٤٤. من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار- الجزء الأول والثاني
٤٥. مباحث في علوم القرآن لمناع القطان
٤٦. عبقرية محمد لعباس محمود العقاد
٤٧. عبقرية الصديق لعباس محمود العقاد
٤٨. عبقرية عمر لعباس محمود العقاد
٤٩. عثمان بن عفان لعباس محمود العقاد
٥٠. عبقرية الإمام لعباس محمود العقاد
٥١. فاطمة الزهراء والفاطميون لعباس محمود العقاد
٥٢. معاوية بن أبي سفيان لعباس محمود العقاد
٥٣. المرأة في القرآن لعباس محمود العقاد
٥٤. رجال ونساء أنزل الله فيهم قرآنا (المجلد من الأول للثالث) د. عبد الرحمن عميرة
٥٥. الروض الأنف لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي
٥٦. معالم في الطريق ـ لسيد قطب
٥٧. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـ لسيد قطب
٥٨. تفهيم القرآن لأبي الأعلى المودودي
٥٩. جامع الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي
٦٠. فتح الباري، فقه السيرة للغزالي، سنن أبو داوود، طبقات بن سعد
٦١. الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ـ للقاضي عياض
٦٢. إحياء علوم الدين للغزالي
٦٣. طبقات بن سعد
٦٤. حياة محمد ـ لمحمد حسين هيكل باشا

٦٥. الرحيق المختوم للشيخ صفي الرحمن المباركفوري
٦٦. محمد صلى الله عليه وسلم لمحمد رضا
٦٧. هذا الحبيب محمد يا محب ـ لأبي بكر الجزائري
٦٨. الرسول في بيته لعبد الوهاب حمودة
٦٩. الحكم وقضية تكفير المسلم لسالم علي البهنساوي
٧٠. ولاة مصر لمحمد يوسف الكندي
٧١. على هامش السيرة للدكتور طه حسين
٧٢. الوعد الحق للدكتور طه حسين
٧٣. مختصر سيرة الرسول ـ لمحمد بن عبد الوهاب التميمي
٧٤. كتاب مصر وحضارات العالم القديم
٧٥. قلب جزيرة العرب
٧٦. السمهودي / وفاء الوفاء
٧٧. تفهيم القرآن
٧٨. بشارة المصطفى
٧٩. تفسير سورة النور لأبي الأعلى المودودي
٨٠. رسول أكرم ي سياسي زند كي ـ لدكتور حميد الله (النسخة العربية)
٨١. تفهيم القرآن
٨٢. الاستيعاب في معرفة الأصحاب
٨٣. تلقيح فهوم أهل الأثر
٨٤. تاج العروس للتميمي
٨٥. نهاية الإرب للنويري
٨٦. تاريخ الإسلام للنجيب آبادي
٨٧. مناقب الأنصار
٨٨. مجلدات الموسوعة المصرية (تاريخ مصر القديم وآثارها)
٨٩. الشفاء بتعريف حقوق المصطفى – للقاضي عياض
٩٠. أصول الشعائر السامية الأولى لـ (هوك)
٩١. أور الكلدانيين لـ (وولي)